عمال
الأدبية
1

دوستويفسكي

الفقراء . المِثل
قلب ضعيف

ترجمة : الدكتور سامي الدروبي

أعمال دوستويفسكي الأدبية
١

ترجمة
الدكتور سامي الدروبي

- الفقراء
- المثل
- قلب ضعيف

دوستویفسکی

مقدمة الطبعة العربية

لأعمال دوستويفسكى الأدبية الكاملة

بنشر اعمال دوستويفسـكى الأدبيـة الكاملة ، تفتتح دار الكاتب العربى عهدا جديدا فى تاريخ النشر باللغة العربية · ان بين خالقى التراث الانسانى قمما يجب ان تنقل آثارها الى اللغة العربية كاملة ، وأن تنقل نقلا يتصف بالأمانه والدقة مثلما يتصف بنصاعة البيان ونقاء الأداء ، لتجىء الترجمة صورة تمثل الأصـل تمثيلا صـادقا ، ولتكون بذلك ترجمة أخيرة اليها يرجع وعليها يعتمد ، فلا حاجة بعد ذلك الى اعادة ترجمتها ، كلهـا أو بعضـها ، مرة بعد مرة ، فى هذا القطر أو ذاك من اقطار الأمة العـربية · واذا كانت الترجمة المثلى هى التى تنقل عن لغة الكاتب رأسا بغير وسيط من لغة أخرى ، فليس بين أصحاب الاقلام فى الوطن العربى الآن من يملك ناصية اللغة الروسية الى الحد الذى يكفل نقل عيون آثار الفكر الروسى عن اللغة الروسية بلسان عربى مبين ، فكان لابد من لغة أخرى يتم النقل عنها وسيطا بيننا وبين تلك اللغة . وكانت اللغة الفرنسـية هى ذلك الوسيط الذى اعتمده المترجم فى نقل اعمال دوستويفسكى الأدبية التى نقدمها الآن · ونحنُ نحسب مع ذلك أن الترجمة العربية تملك من مزيتى كمال الأمانة وجمال البيـان ما يجعلها خليقة بان تعد نهـائية ، ونحسب ان الكاتب العـربى الذى سيجىء فى المستقبل مؤهلا باتقان اللغتين الروسية والعربية لنقل امهات كتب الأدب الروسى سيشعر حين يضاهى بين هذه الترجمة وبين الأصل الروسى ، أنه ليس عليه أن يعيد الترجمة ، وأنه لا يحتاج الى أكثر من تنقيحات يسيرة يجرى بها قلمه على كلمة هنا أو جملة هناك · ذلك أن الترجمة التى نقدمها الآن قد كان الوسيط بين صاحبها وبين الأصل الروسى ترجمات فرنسية اختارها الكسندروف سولوفييف ، وتمت مراجعتها على الأصل الروسى فى الطبعة الروسية التى ظهرت سنة ١٨٨٩ فى اثنى عشر مجلدا ، وفى الطبعة

السوفياتية التى ظهرت بين ١٩٥٦ و ١٩٥٨ فى عشر مجلدات ، وتم تنقيحها وتصحيحها على ماتقتضيه الأمانة والدقة والمقدرة التى يتصف بها استاذ من كبار أساتذة الأدب الروسى فى العالم ، مثل سولوفييف ، الاستاذ بجامعة جنيف ، متعاونا فى هذا العمل مع عالم من أبرز علماء الأدب والنقد هو جورج هالداس . ولقد ظهرت الترجمة الفرنسية فى ستة عشر مجلدا عن دار النشر السويسرية (Rencontres) ، مصدرة بنبذة عن حياة دوستويفسكى اعتمدها المترجم ولكنه لم يقتصر عليها ولا تقيد بها كاملة ، وكذلك فيما يتصل بالمقدمات التى تمهد لكل عمل من الأعمال فى صدر كل مجلد . وقد رأى سولوفييف ان يتقيد بالطبعة السوفياتية التى صدرت فى عامى ١٩٥٦ — ١٩٥٨ ، فاقتصرت طبعته الفرنسية على « الأعمال الأدبية » ، لذلك لم ينشر من « يوميات كاتب » ، وهى مجموعة شتى من المقالات والكتابات ، الا ما هو أدب ، الا ما هو حكايات وأقاصيص ، مثل «بوبوك» و «الفلاح مارى» وغيرهما ، وكذلك لم ينشر « الدفاتر » التى تتضمن ما كان يخطه قلم دوستويفسكى اعدادا لكتابة أعماله المختلفة ، ولا نشر رسائل دوستويفسكى . ولكن المجلد التاسع عشر من الطبعة العربية التى ستنشرها دار « الكاتب العربى » تباعا ، سيشتمل على مختارات من رسائل دوستويفسكى ، وانما جاء الحرص على نشر مختارات من هذه الرسائل ، لما لها من قيمة أدبية أولا ، ولأنها تلقى أضواء على مؤلفات دوستويفسكى ثانيا ، ولأنها بعد هذا وذاك تسجل أطرافا من حياة دوستويفسكى الحافلة وترسم صورة لشخصيته الفنية ، وترتبط بأعماله أنواعا من الارتباط على كل حال .

وتتسلسل أعمال دوستويفسكى الأدبية فى مجلدات هذه الطبعة العربية تسلسل ظهورها فى الزمان ، الا فى مواضع قليلة من المجلدات الأولى ، وذلك تغيير طفيف فى التسلسل الزمنى أملته ضرورة اخراج المجلدات فى حجوم متساوية ما أمكن التساوى . غير أن تاريخ ظهور كل عمل من أعمال دوستويفسكى مذكور تحت كل عنوان . فبذلك يتاح يتاح للقارىء أن يتتبع مراحل النمو والنضج فى شخصية دوستويفسكى ابتداء من أولى مبدعات شبابه « الفقراء » (١٨٤٦) وانتهاء بروايته الكبرى الأخيرة التى هى قمة انتاجه عمقا وقوة وكمالا : « الأخوة كارامازوف » .

دار الكاتب العربى

حياة دوستويفسكي

١٨٢١ - ١٨٨١

ولد فيدور ميخائيلوفتش دوستويفسكى بموسكو فى ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٨٢١ ، ومات بسان بطرسبرج فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٨١ . ولعل الظروف التى رأى فيها النور جديرة بأن تعد رمزا . فلقد جاء الى هذا العالم فى مسكن صغير بمستشفى مريم الذى كان أبوه يعمل فيه طبيبا ، فكأن القدر قد أراد له منذ خطا فى الحياة أولى خطواته أن يكون مكانه بين الفقراء والمرضى

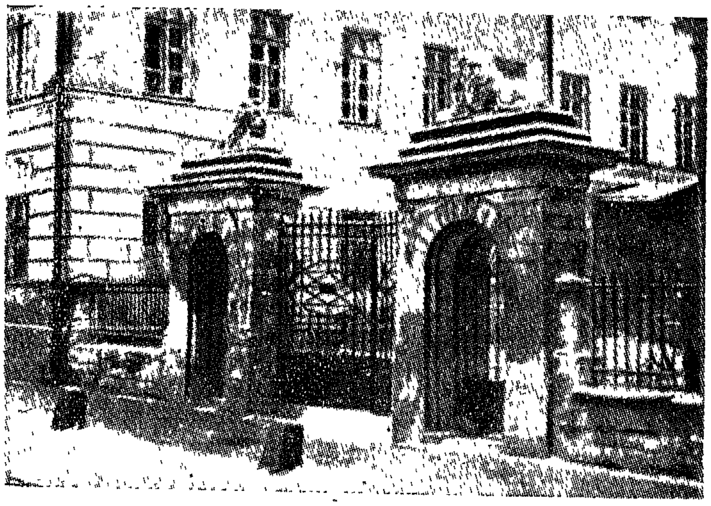

المستشفى الذى ولد فيه دوستويفسكى بموسكو

والمعذبين . لقد فتح عينيه على عالم لا فرح فيه ولا بهجة ، فى جو تملؤه رائحة الأدوية ، بين أرجاء يسير فيها البشر عرجا أو كتعا أو عورا .. أو يرقدون على أسرة حجراتها البائسة مهزولين مصدورين .. وكانت أمه امرأة حزينة قلقة متطيرة تضنيها الهواجس وترهقها فئول الشؤم . وكان أبوه امرءا

مستبدا طاغية جهم المزاج ، شرس الطبع ، قاسيا خاشنا ، بخيلا شحيحا ، يفرض سلطانه على من فى المنزل باللسان السليط والقول الهاجر والسباب الجارح والصياح الخانق ، ولا ينى يتذمر من كثرة النفقات ، مرددا على مسامع أفراد الأسرة أنهم أناس فقراء فعليهم أن يقتصدوا ماأمكن الاقتصاد.

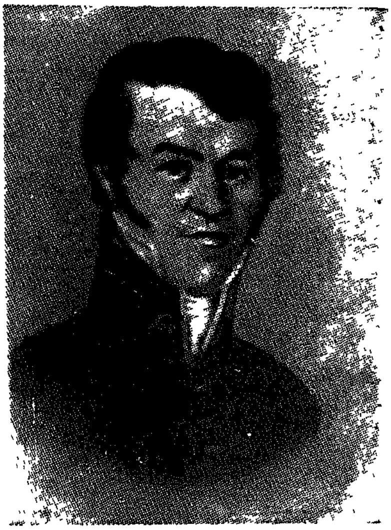

أبوه

وكان على الصبى دوستويفسكى أن يخطو خطواته الاولى فى التعلم والدرس خاضعا لهذا الأب ، قارئا عليه متعلما منه ، فكان يكرهه فى سره، وكانت صرخات الأب الغاضب تلاحقه حتى فى أحلامه ، ولعل الصبى كان يتمنى لأبيه الموت فى قرارة نفسه على غير شعور . ولكن الأب كان فى مقابل ذلك على جانب من ثقافة ، فكان يحلو له أن يقرأ لاولاده صفحات من عيون الأدب ، وكان يحب أن يقرأ لهم آثار بوشكين خاصة . واستطاع الأب بالتوفير والاقتصاد أن يحقق حلما من أحلامه فاشترى أرضا بمقاطعة تولا ، مساحتها خمسمائة هكتار وأقنانها ثمانون . فكانت أيام الاجازات التى تقضيها الأسرة بالريف سعادة كبرى للأولاد . هنالك انما تعلم فيديا (فيدور) حب الفلاحين والارض ، وبقيت له من ذلك ذكرى مضيئة أودعها قصته القصيرة « الفلاح ماراى » . وفى عام ١٨٣٣ عهد الأب بفيدور وأخيه ميشيل (وهما أكبر أولاد الطبيب) الى معلم فرنسى اسمه سوشار ، ثم

عهد بهما بعد سنة من ذلك الى مدرسة داخلية يديرها رجل تشيكى اسمه نشرمان ، وهى مدرسة يسودها جو عائلى ، وتدرس فيها اللغات والآداب ، فكان شيلر ووالتر سكوت وديكنز هم الكتاب الأثيرين على قلب فيديا خلال سنين ، حتى لقد أخذ ينظم أبياتا من الشعر سرا فى أثناء ذلك •

أمه

فلما جاء الصيف من عام ١٨٣٦ ، مرضت أم دوستويفسكى مرضا خطيرا فماتت بالسل فى السابع والعشرين من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٣٧ بعد مقتل الشاعر الكبير بوشكين بشهر واحد ، فكان للحادثين أثر عميق فى نفس الفتى دوستويفسكى الذى كان يحب أمه حبا رقيقا حنونا ، وكان يعبد الشاعر العظيم عبادة •

كذلك تحطم العش العائلى بوفاة الأم ، فانحدر الأب الى هوة اليأس وأدمن على الشراب وأخذ يفكر فى ترك عمله ، والاعتكاف بعيدا فى أرضه • وما هى الا فترة قصيرة حتى أرسل ابنيه الى سان بطرسبرج ليلتحقا بمدرسة الهندسة الحربية ، فأما فيدور فقد نجح فى امتحان القبول بعد الاستعداد له ستة أشهر ، وأما ميشيل فلم يفلح ، بسبب سوء صحته ، فمضى الى ريفيل ينتسب هنالك الى ملحق يتبع « مدرسة الهندسة » •

هذا هو الفتى دوستويفسكى الذى لما يتجاوز السادسة عشرة من

عمره يعيش اذن وحده فى مدرسة عسكرية داخلية تفرض عليه حيـــاة قاسية لا يطيقها مزاجه الفنى ، وتلزمه بدراسة صعبة لا تتفق وأذواقه الادبية ٠

ويجد الفتى فى دراسته ويكد ، ولكن عالم الفنون يظل هو العـــالم الذى يخلو اليه سرا ، وها هو ذا يكتب الى أخيه قائلا « الحياة هنا كريهة مقيتة ٠ لا جمال عندى الا فيما هو مبرأ من اسفاف المادة وسعادة الارض» وهو يقبل على القراءة شرها نهما ، ويؤلف حلقة من الرفاق تعنى بالشعر والأدب تقرأ شيلر وهوفمان وبالزاك وجورج صاند وفكتور هوجو ، وتنعقد أواصر صداقة بينه وبين جريجوريوفتش الذى سيصبح كاتبا شهيرا بعد قليل ، وتنشأ صداقة أخـرى بينـه وبين موظف شاب اسـمه ايفـان شيدلوفسكى ، وهو شاعر مثالى كان عاكفا على كتابة تاريخ للكنيسة ٠ لقد كتب دوستويفسكى بعد ذلك يقول « ان معرفتى بشيدلوفسكى هيأت لى ساعات اعدها من اجمل ساعات عمرى » ٠

وفى أثناء ذلك أحال الدكتور دوستويفســكى نفسه على التقاعد ، ومضى يعتكف فى أرضه مع بنتيه الصغيرتين ، (احداهما فى الثامنة من عمرها والاخرى فى الثانية) ، واستمر الارمل المعتزل يدمن هنالك على الشراب الى ان غدا من ذلك صاحب هواجس وهذيان ، وكان يسىء معاملة أقنانه ، فيثير حفائظهم ويخرجهم عن أطوارهم ، فما انقضت سنتان حتى وجد قتيلا فى الحقول عام ١٨٣٩ ، قد أجهز عليه نفر من الفـــلاحين كان يهددهم بجلدهم بالسياط ، وكتمت الفضيحة ، فلم يعاقب الجناة ٠

فهذه اذن مأساة أخرى هزت نفس الفتى هزا قويا ، صحيح أنه كان لا يطيق اسراف أبيه فى الشراب ، وامعانه فى الفجور ، وكان يأخذ عليه خشونته وقسوته وجبروته ، وكان يمقت فيه بخله وشحه خاصة ، فما أكثر ما كان الفتى يحتاج الى قليل من المال يضن به عليه أبوه ويمنعـــه عنه ٠ صحيح أن الفتى كان يحقد على أبيه لهـذه الأسباب كلهـا ، وأن الرسائل التى كانا يتبادلانها كانت تفيض مرارة وعنفا ، وأنه كان فى قرارة نفسه يكرهه حقا ، ولكن هذا بعينه هو ما هز نفس الشاب هزا قويا فلقد أحس حين قتل أبوه أنه كان مجرما فى حق أبيه : ألم يحمل له بغضا وسخيمة ؟ ألم يتمن له الموت ؟ انه يتحمل اذن تبعـة مقتله ٠٠٠ انه هو الذى قتله ، ولكن لا بيديه بل بأيدى الفلاحين ٠

قضى دوستويفسكى أربع سنين ونصفا فى « مدرسة الهندسة » تخرج بعدها مهندسا برتبة ملازم ثان فى صيف عام ١٨٤٢ ، فألحق بمكتب المهندسين فى دائرة الهندسة بالعاصمة •

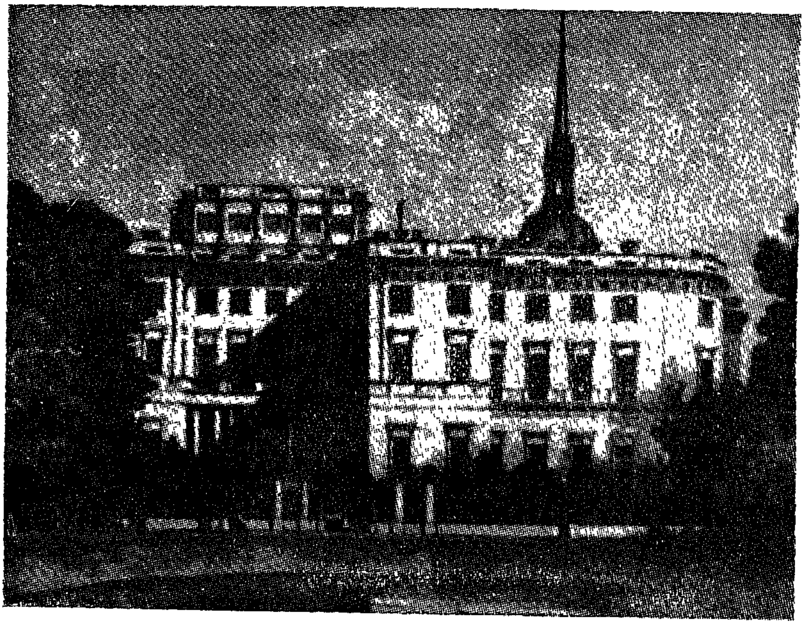

مدرسة الهندسة

وأصاب المهندس الشاب حظا من ثروة ، وكان صهره ، زوج اخته الكبرى ، الوصى على الأسرة ، يمده بشىء من المال من حين الى حين ، ولكن الضابط الشاب مبذر متلاف ، وهو الى هذا يتعاطى القمار فيخسر مبالغ طائلة ، وهو يستدين تارة ، ويسرق تارة أخرى • فما يشارف الشهر على نهايته الا ويكون خالى الوفاض لا يجد ما يتبلغ به من جوع ، وهو يختلف الى المسارح وحفلات الموسيقى ، بل هو يتردد على منازل مشبوهة قذرة يعقد فيها صلات مع سكارى ضائعين ، ولكن شغفه بالأدب وانصرافه اليه يزدادان أثناء ذلك يوما بعد يوم • حتى لقد كتب مسرحيتين لم تصلا الينا ، منذ كان طالبا فى مدرسة الهندسة : « مارى ستيوارت » و « بوريس جودونوف » ، تقليدا ومحاكاة للكاتبين اللذين يؤثرهما على سائر الكتاب : شيلر وبوشكين •

فلما هبط بالزاك سان بطرسبرج ، وكان دوستويفسكى يقدره كثيرا ، أسرع يترجم كتابه « أوجينه جرانديه » ترجمة عجلى ، اختصر الناشر ثلثها عدا ذلك ، وكان دوستويفسكى يتمنى فى الوقت نفسه أن ينشر ترجمة كاملة لآثار شيللر .

ويضيق دوستويفسكى ذرعا بعمله ضابطا مهندسا ، فيقرر عام ١٨٤٤ أن يستقيل رغم أنه منقل بالديون . وفى ذلك الأوان انما التقى برفيقه القديم جريجوريوفتش الذى كان قد بدأ حياته الأدبية كاتبا واقعيا ناجحا . فاستأجر الصديقان منزلا أقاما فيه معا ، وفى ذلك المنزل انما بدأ دوستويفسكى يكتب روايته الاولى « الفقراء » ، على غير علم من صديقه ، يعمل ليل نهار بحماسة شديدة واندفاع عظيم ، الى أن فرغ منها فى ذات مساء من شهر أيار (مايو) ١٨٤٥ ، فنادى صديقه وأطلعه على سره ، وأخذ يقرأ له روايته . ظل دوستويفسكى يقرأ فى نشوة تمازجها خشية ، وظل جريجوريوفتش يصغى فى اعجاب يبلغ حد الذهول ، وفى حميا لا تدانيها حميا ، الى أن فرغا من القراءة فى ساعة متأخرة من الليل ، فاستولى جريجوريوفتش على المخطوطة ، وحملها فى الغد الى نكراسوف ، الشاعر الوطنى ، الذى يتمتع بفكر عملى والذى كان قد أصبح مدير مجلة . لبث جريجوريوفتش الليل كله يقرأ الرواية على نكراسوف فلما انتهى الكاتبان من قراءتها فى نحو الساعة الرابعة من الفجر ، كانا قد بلغا ذروة الحماسة ، فقاما يقرعان باب دوستويفسكى فى تلك الساعة ويوقظانه من نومه ليهنئاه . كانت تلك اللحظة أجمل لحظة فى حياة دوستويفسكى ، لم تبارح ذكراها خياله . وبعد ثلاثة أيام ذهب دوستويفسكى الى الناقد الشهير بيلنسكى الذى كان قد تلقى المخطوطة من نكراسوف ، فما رأى بيلنسكى المؤلف الشاب حتى هتف يقول له متحمسا : « أأنت تفهم أيها الشاب ماذا كتبت » ؟ كان بيلنسكى يرى فى هذه الرواية أول محاولة فى كتابة رواية اجتماعية ، محاولة لا يقدر عليها ولا ينجح فيها الا فنان ، أى انسان لا يشعر بما سينشأ عنها ، ويترتب عليها .

ومنذ تلك اللحظة ، وحتى قبل أن تنشر الرواية ، طار صيت دوستويفسكى وذاعت شهرته ، فالاوساط الادبية تبحث عنه وتسعى اليه ، فيسكر دوستويفسكى من المديح يكال له بغير حساب ، ومن النجاح

يحققها بهذه السرعة ، ومن آيات الصداقة يغمره بها كبار الكتاب ، ويظهرها له الارستقراطيون من حماة الادباء ورعاة الفنانين فى ذلك الزمان . وتظهر الرواية أخيرا . ويكون دوستويفسكى عندئذ قد فرغ من كتابة روايته الثانية « المثل » ، فلا تصيب هذه الرواية الثانية ما أصابته الرواية الاولى من نجاح . فيسارع يكتب أعمالا أخرى ، ولكنه يسرف فى التعجل ، فينشر «الجارة» وأقاصيص أخرى تخيب ظن بيلنسكى وتخيب ظن أنصار ظهور دب « اجتماعى » يتجه الى الشعب ويفيد المجتمع . وأخذ الأدباء الذين احتفوا بدوستويفسكى أشد الاحتفاء فى « الصالونات » الادبية ، أخذوا يتندرون عليه ، ويسخرون من زهوه بنفسه ، ويضحكون على خراقته ، ويشمتون بسقوط موهبته بل ويهزءون بدمامة خلقه ، لم يبرأ من هذا حتى نكراسوف وتورجينف ، فها هما ينظمان قصيدة يهجوان فيها دوستويفسكى متفكهين هازئين . ويستبد الضجر والسأم والملل بدوستويفسكى ، وتتكاثر ديونه وتتراكم ، ويتشرد متنقلا من مسكن الى مسكن . ويبدل أصدقاءه واحدا بعد آخر ، وتنتابه « أهوال غيبية » ومخاوف غريبة ، ويخشى أن يفقد صوابه وأن ينتهى الى الجنون ، وتأخذ نوبات الصرعة توافيه منذ ذلك الحين ، وكان قد صار الى الالحاد بتأثير صديقه بيلنسكى ، فها هو ذا يحاول أن يسرى عن نفسه بالاختلاف الى اجتماعات « الجمعة » التى كان ينظمها بتراشفسكى ، الموظف الشاب بوزارة الخارجية ، وهو رجل مثقف كان يجمع اصدقاءه ليتحدثوا فى السياسة والاشتراكية وهم يحتسون الشاى ويدخنون الغليون ، ويقرأون الى ذلك كتبا منعت الرقابة تداولها .

على هذا انقضت من حياة دوستويفسكى سنة ١٨٤٨ كلها . وفى تلك الاثناء تشب ثورة شباط (فبراير) فتقلب عرش الأورليان ، ويترجع صداها قويا فى ألمانيا والنمسا والمجر ، ويلقى باكونين خطبا نارية فى المؤتمر السلافى بمدينة براغ ، وتهب المجر فتنادى بالجمهورية فيقرر نيقولا الاول أن يتدخل فى المجر دعما لعرش فرانسوا جوزيف ، الذى أخذ يترنح وأوشك أن يتداعى .

وهذا جاسوس يقال له آنتونيللى بنبى بحلقة بتراشفسكى ، واصفا أعضاءها بأنهم شيوعيون يحلمون باقامة مجتمع اشتراكى كالذى نادى به فورييه ، وبأنهم أناس مهووسون يهيئون لاضطرابات ومجازر ومذابح سياسية ، وبأنهم أقاموا حفلة عشاء تكريما للاشتراكى فورييه قال فيها

بتراشفسكى : « لقد حكمنا بالموت على المجتمع الحالى ، فيجب عل
ننفذ الحكم » • فيقرر نيقولا الاول أن القضية خطيرة ويقول : «
كله لا يعدو أن يكون كلاما وثرثرة ، فانه يظل جريمة لاتغتفر
أن تظل الامبراطورية الروسية صخرة لا تتزعزع ، تتكسر ع
الثورة التى تهدر فى الغرب ، ولا بد اذن من انزال العقـــوبة
المجانين الذين يتحدثون عن ثورة تقوم فى روسيا •

دوستويفسكى فى السادسة والعشرين من عمره

فلما جاء فجر ليلة الثاني والعشرين من نيسان (أبريل)
قرع باب منزل دوستويفسكى من جديد ، ولكن الفارع اليوم ليس

يحمل اليه نبوءة المجد والشهرة ، بل نفر من رجال الدرك يقودونه مكبلا بالاغلال الى قلعة بتروبافلوفسكايا (القديس بطرس وبولس) • لقد اقتيد الى هذه القلعة ثلاثة وأربعون شخصا وضعوا فى زنزانات منفردة• وانقضت على سجنهم هناك ثمانية أشهر قاسية ، لم يسمح للسجناء خلالها بالقراءة والكتابة الا فى شهر تموز (يوليو) ، وعندئذ انما كتب دوستويفسكى قصته المشرقة الوضاءة (البطل الصغير) • ولم يمثل دوستويفسكى أمام المحكمة الا فى تشرين الاول (أكتوبر) وكانت التهمة الموجهة اليه أنه قرأ على جمهور من الناس الرسالة الحادة العنيفة التى وجهها بيلنسكى الى جوجول وفيها « يشتم الكنيسة الارثوذكسية ، والسلطة العليا » ، وانه حضر قراءة « قصة جندى » ، وهى قصة تدعو الى الثورة وتحض على العصيان والتمرد •

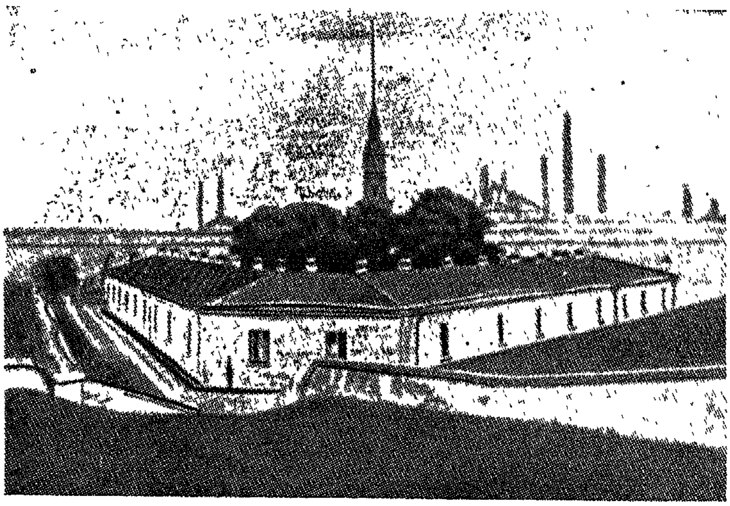

القلعة

وفى ١٦ تشرين الثانى (نوفمبر) أصدر « المجلس العام » حكمه بالاعدام على اثنين وعشرين شخصا ، على رأسهم بتراشفسكى ، وقرر الافراج عن الآخرين ، ولكن الحكم يقترح تخفيف هذه العقوبة وابدالها بعقوبة الاشغال الشاقة ، وقد وافق نيقولا الاول على هذا الاقتراح وعرض على الامبراطور أن تكون عقوبة دوستويفسكى ثمانية أعوام ، فعدل

الامبراطور الحكم بجعله «أربع سنين سجنا وأربع سنين جندية فى الجبهة» ولكن القرار ظل سرا مكتوما لم يذع فى الناس ولم يطلع عليه أحد • وقد شاء أولو الامر أن يتسلوا بتمثيل مسرحية هزلية أبطالها بل قل ضحاياها هؤلاء الاشقياء الذين صدر الحكم باعدامهم •

السجناء لا يعرفون عن مصيرهم شيئا • وهاهم اولاء يوقظون من نومهم فى صبح الثانى والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) ، فيقادون بعربات الى ميدان سيمينوفسكايا ، ويتلى عليهم هناك قرار المحكمة بانزال عقوبة الموت فيهم • صعق دوستويفسكى ورفاقه لهذه العقوبة التى ليس لها ما يسوغها • وقام الجلادون فشدوا ثلاثة من المحكوم عليهم الى عمد أحكموا ربطهم بها ، واصطفت أمامهم مفرزة من الجنود سددت بنادقها الى صدورهم وتأهبت لاطلاق النار • وهنا يصل أحد الضباط مسرعا يتلو القرار الجديد : يبدل حكم الاعدام بحكم بالاشغال الشاقة « رحمة ورأفة من صاحب الجلالة الامبراطور » • لقد أراد نيقولا الأول أن يلقن الشبان الطائشين درسا لن ينسوه • ولقد ظل دستويفسكى يذكر تلك اللحظات الرهيبة فعلا طوال حياته ، وقد استحضر صورتها وأفاض فى الكلام عليها فى كتابه « الاهبل » •

فى ليلة عيد الميلاد من سنة ١٨٤٨ أرسل السجناء مكبلى الأرجل بالأغلال الى سيبيريا على زلاقات ، فوصلوا الى توبولسك بعد ثمانية عشر يوما من السفر فى جو بارد لا يطاق ، وهناك قابلتهم نسوة «ديسمبريات» هن منفيات متطوعات بطلات ، فأعطين كل واحد منهم انجيلا وقليلا من المال •

ورحل دوستويفسكى الى أومسك يقضى فى معتقلها أربع سنين فى صحبة مئات من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، وجلهم من القتلة (كان الحكم بالاعدام على جناة الحق العام قد ألغى فى روسيا منذ سنة ١٧٤١) وكانت الاشغال شاقة حقا ، فعلى المعتقلين أن ينقلوا حجارة ، وان يسحقوا صخورا ، وان يكنسوا ثلوجا ، بينما كعوبهم ترسف فى الأغلال •

ودوستويفسكى يعمل مع العاملين لا يخلو الى نفسه ولا ينفرد ساعة فلا يستطيع أن يقرأ أو أن يكتب الا اذا أصابه مرض فأدخل المستشفى، وهو اذا قرأ أو كتب فعلى خفية وفى غفلة من الرقباء • وقد أثرت فيه هذه السنون الأربع الرهيبة تأثيرا قويا بل بدلته تبديلا عميقا ، قال فى ذلك :

« المعتقل قتل فى نفسى أشياء كثيرة ، ولكنه فتح أشياء أخرى » ، فبعد أن كان اشتراكيا وبعد أن كان ملحدا ، عاد مسيحيا مؤمنا ، وفيلســـوفا أخلاقيا ، ينصرف باهتمامه الى مشكلة الجريمـــة ، والى الصراع بين الخير والشر فى كل نفس انسانية ٠

وأطلق سراح دوستويفسكى فى اليوم الخامس عشر من شهر شباط (فبراير) سنة ١٨٥٤ ، وأرسل على مراحل مع آخرين من قدماء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة الى سيميبا لاتفسك التى تبعد عن أومسك مسافة سبعمائة كيلو متر ، ليصبح هنالك جنديا فى لواء على الجبهة ٠ الرحلة شاقة مرهقة ، ولكن الاغلال قد سقطت ، فدوستويفسكى يتنسم هواء الحرية بعض الشىء ويشعر بالسعادة ٠ وبعد سفر دام قرابة شهر ، يصل دوستويفسكى الى تلك المدينة الشرقية التى يدين أهلها بالاسلام ويتناثر فيها موظفون وجند من الروس هنا وهناك ٠ الخدمة العسكرية قاسية ، ولكن دوستويفسكى لا يتذمر ولا يشكو ، حتى لقد كتب الى أخيه يقول: « ذلك صليبى وقد استحققته » ٠ وأمكن بفضل بعض الشـــفاعات فى أومسك أن يسمح له بالسكنى بالمدينة خارج الثكنة ٠ فها هوذا يتمتع أخيرا بغرفة له ، له وحده ، فى كوخ بائس تقيم فيه أرملة أحد الجنود ، ولكنه يستطيع فيه أن يخلو الى نفسه وأن يقرأ ويكتب على ما يشـاء له هواه ٠ ان نفسه تفيض بالمشاعر ، وان رأسه يمتلىء بالمشاريع ، وان به لظمأ محرقا الى القراءة ٠

هوذا يكتب الى أخيه قائلا : « ارسل الى مجلات ، ارسل الى كتب المؤرخين الكلاسيكيين (فى ترجمة فرنسية) ، والاقتصـــاديين الجدد ، وآباء الكنيسة وتاريخ الكنيسة » ٠ أرسل الى القرآن ، وكتاب كنت (نقد العقل المحض) وأرسل الى كتب هيجل حتما ، ولا سيما كتابه ــ تاريخ الفلسفة ــ ان مستقبلى كله رهن بهذا » ٠ ان دوستويفســـكى يريد أن يتدارك الزمن الذى ضاع فى المعتقل ، وان يملأ نغرات ثقافته ، ويريد أن يكتب أشياء جادة ذات شأن ٠

ولكنه يقول فى كثير من المرارة « آمل أن يسمح لى بالنشر بعد ست سنين » ٠ ولقد صدقت نبوءته : فما كان أصعب طريق العودة الى الادب على الجندى المسكين ٠

غير أن رسولا من السماء هبط على هذه المقاطعة النائية بعد ثمانية

الى المنفى

آشهر : انه البارون الشاب الكسندر فرانجل الذى وصل من العاصمة نائبا عاما بمحكمة سيميبا لانسك ، وقد زاره ميشيل دوستويفسكى قبيل مغادرته العاصمة وحمله لاخيه رسائل و كتبا ٠

وكان البارون قد شهد ، بمصادفة غريبة ، المهزلة التى مثلت فى ميدان سيمينوفسكايا ، أعنى مهزلة تنفيذ الحكم بالاعدام ، وكان قد قرأ مؤلفات دستويفسكى ، فكان لذلك يهتم بمصير الكاتب ، فما ان وصل الى سيميبا لانسك حتى أرسل يستدعيه ٠ فلما قرأ دوستويفسكى رسائل أخيه انفجر باكيا ، فاذا بالبارون يشاركه البكاء ، وتعانق الرجلان وأصبح النائب العام والجانى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة صديقين حميمين ٠

وفعل فرانجل كل ما استطاع أن يفعله من أجل أن يحصل للكاتب على العفو كاملا ، فقدمه الى الحاكم العسكرى بالمنطقة ، وأدخله صالونات أخرى ، فسرعان ما تلقى الجندى البسيط رتبة صف ضابط ، وأصبح يقضى وقته كله حرا طليقا عند فرانجل ٠ وفى الصيف من عام ١٨٥٥ استأجر فرانجل منزلا ريفيا ذا حديقة على شاطىء ارلتش ، قضى فيه الصديقان الصيف كله معا ٠

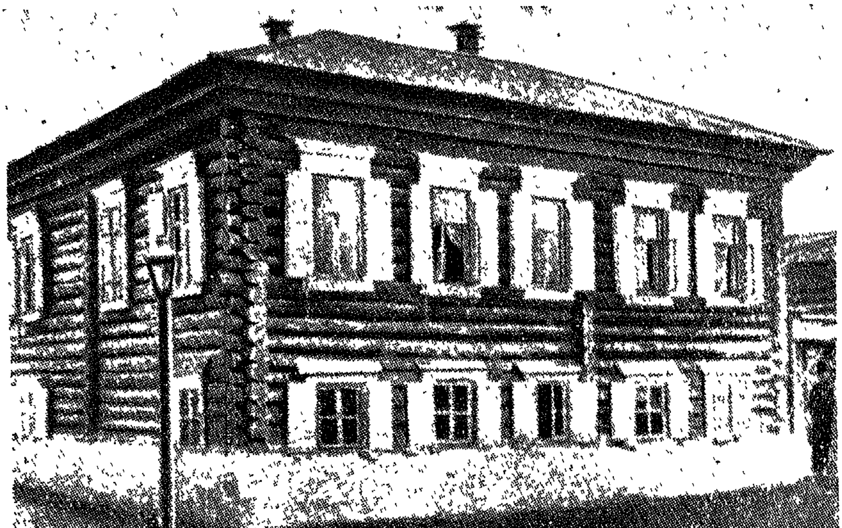

منزل فى سيميبالاتنسك اقام فيه دوستويفسكى سنة ١٨٥٤

فى تلك الفترة اهتز قلب دوستويفسكى بحبه الأول الكبير ، وهو حب مرضى مفجع من نوع الحب الذى تحدثنا عنه رواياته • لقد تعرف بماريا ايسابيفا ، وهى امرأة مثقفة أبوها ديمترى كونستان ، مدير الجمارك فى استراخان • كانت ماريا قد تزوجت معلما شابا اسمه ايسابيف ، شاء سوء حظه أن يدمن على الشراب ، فما زال ينقل من مكان الى مكان حتى هبط تلك المدينة النائية التى فقد فيها وظيفته آخر الامر •

وانعقدت أواصر الصداقة بين دستويفسكى وبين السكير المسكين وامرأته الشقية التى شعر نحوها دوستويفسكى بشفقة كبيرة • وهاهو ذا يكتب اليها قائلا : « لقد سلخت خمس سنين من حياتى خارج المجتمع ، وحيدا ، ليس لى انسان أفتح له قلبى ، الى أن استقبلتنى كأننى واحد من أهلك • انك امرأة رائعة • ان لك نفسا فذة بين النفوس • انك طيبة كطفل • لقد كنت لى أختا • » ودام هذا الحب الذى يشبه أن يكون حبا أخويا سنة بكاملها ، ثم لم تلبث الشفقة أن استحالت الى هوى عارم جامح مستميت • واستطاع بعض أصدقاء ايسابيف أن يحصلوا له على وظيفة صغيرة بمحكمه مدينة كوزنتسك التى تبعد عن سيميبالاتنسك مسافة سبعمائة كيلو متر • فتمزق قلب دوستويفسكى للفراق تمزقا •

ومات ايسابيف بعد قليل ، تاركا لأرملته طفلا فى السنة السابعة من عمره • فأخذ دوستويفسكى وفرانجل يمدان الأرملة البائسة ببعض المال يرسلانه اليها من حين الى حين • ثم عرض عليها دوستويفسكى أن يتزوجها ، فوافقت ماريا رغم انها لا تشعر بالحب حقا نحو هذا الضابط الصغير ذى الوجه البائس الحزين •

ويترك البارون فرانجل سيبيريا الى العاصمة ، ويبقى دوستويفسكى وحيدا مع حبه المرضى ، ويظل عشرة أشهر يكتب الى ماريا التى بقيت فى كوزنتسك رسائل تفيض حبا محموما • وها هى ذى تحدثه فى ذات يوم عن معلم شاب اسمه فرجونوف قائلة انها هائمة بحبه • فيضطرب دوستويفسكى أشد الاضطراب ، ويسافر الى كوزنتسك ، ويلقى ماريا وغريمه الشاب فيجهش الثلاثة باكين • ولا يسع دوستويفسكى الا أن يذعن ، ولكنه يريد أن يظل صديقا وفيا (كبطل قصة «الليالى البيضاء») ، ويقوم بمساع من أجل أن يحصل على مساعدة لماريا ، ومن أجل أن يدخل ابنها فى مدرسة داخلية ، بل ومن أجل أن يمد يد العون لغريمه •••

وفى أثناء ذلك يرفع دوستويفسكى الى رتبة ملازم ثان فى ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) من سنة ١٨٥٦ ، ويسترد حقوق النبالة ، فيتغير بذلك وضعه ويتحسن مركزه ، فيسافر مرة أخرى الى كوزنتسك يعرض الزواج على ماريا من جديد ، فتوافق ماريا ، ويتم الزواج فعلا فى اليوم السادس من شباط ١٨٥٧ بتلك المدينة •

ويصاب دوستويفسكى بنوبة صرعة فى طريق عودته مع زوجته ، فيكون هذا خيبة له ولها معا •

ماريا ديمترينا الزوجة الأولى

هو ذا يعود الى سيميبالاتنسك ضابطا ، ومتزوجا • وتهيىء له زوجته شيئا من رخاء العيش ، فيأخذ يكتب فى ساعات فراغه ، ولكنه لما يحصل على الاذن بنشر أعماله • ويقوم أخوه ميشيل بطبع قصته « البطل

الصغير » بسان بطرسبرج (كان دوستويفسكى قد كتب هذه القصة وهو فى السجن عام ١٨٤٩) ، فاذا بالقصة المليحة العذبة ، رغم أنها نشرت دون ذكر اســـم مؤلفها، ترد الناس فى العاصـمة الى التحـدث عن دوستويفسكى • وأظهرت مجلتان استعدادهما لنشر روايات من تأليفه ، فيشرع دوستويفســكى قلمه ويسرع يكتب روايتين هما « حلم العـم » و «ستيبانشيكوفو وسكانها» • ويتلقى أثناء ذلك اذن الامبراطور باحالته على التقاعد والعـــودة الى روسيا ، ولكن دون أن يكون له حق دخـول

دوستويفسكى ١٨٦٠

العـــاصمتين • فيترك دوستويفسكى فى شهر تموز (يوليو) ١٨٥٩ سيبيريا مع زوجته وابن زوجته ، ويعود الى روسيا ، الى أوربا ، بعد عشر

سنين قضاها فى السجن فالمعتقل فالجندية بلنفى . ويقال ان فرجونوف عشيق زوجته ، قد تبعهما فى عربة أخرى .. ويختار دوستويفسكى لاقامته مدينة تفير الواقعة على الخط الحديدى بين بطرسبرج وموسكو ، فلا يشعر بالارتياح ، رغم أن حاكم المقاطعة نفسه الكونت بارانوف ، قد أحسن استقباله واحتفى به ودعاه الى صالونه . وينصحه الكونت بارانوف والبارون فرانجل الذى زار تفير بأن يرسل الى الامبراطور الكسندر الثانى التماس عفو ، فيفعل دوستويفسكى ذلك ، ويتلقى فى شهر تشرين الثانى (نوفمبر) ١٨٥٩ الاذن له بدخول العاصمة وبنشر مؤلفاته ، فيخف الى بطرسبرج حيث يستقبله فى محطة القطار أخواه . وهنا تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياته .

ان روسيا الآن فى حالة فوران وغليان . الحكومة تعد قانون الغاء القنانة منذ تسنم الكسندر الثانى العرش . وهى تهيىء كذلك اصلاحات أخرى كثيرة . والناس يتناقشون فى أمر هذه الاصلاحات فيهاجمونها : الثوريون ، وهم لا يزالون قلة ، يريدون محو الماضى بأسره ، والطبقة النبيلة تستاء وتستنكر أن يتم أى تنازل فى طريق اللبرالية . والرقابة قد ألغيت أو كادت ، وعدد كبير من الصحف والمجلات يصدر ويناقش شئون السياسة . فيقرر دوستويفسكى الذى يحس انه مؤهل للكتابة الصحفية أن ينشىء مع أخيه ميشيل مجلة جديدة يتولى أخوه ادارتها . ويظهر العدد الأول من المجلة « الزمان » فى كانون الثانى (يناير) ١٨٦١ ، أى قبل اعلان تحرير الأقنان بشهر واحد تماما . ان دوستويفسكى هو المدير الأدبى والسياسى للمجلة . انه يعتنق مذهبا لبراليا وسطا بين أنصار الغرب ودعاة السلافية . وها هو ذا يحدد هذا الموقف بقوله : « ان واجبنا أن نخلق لأنفسنا صورة جديدة للحياة ، صورة خاصة بنا ، صورة هى لنا نحن ، مستمدة من أرضنا ، نابعة من روحنا ، ممتوحة من تقاليدنا الشعبية . » واستطاع دوستويفسكى أن يحظى بمعاونة تورجنيف ونكراسوف ونيقولا ستراخوف والناقد آبولون جريجورييف . وفى هذه المجلة انما نشر دوستويفسكى كتابه « مذلون مهانون » ، الذى كتبه متعجلا ، ولم يكد ينهيه تماما والحق يقال . وقد أقبل الناس على قراءة الكتاب بنهم شديد ، ولكن بعض النقاد وجهوا اليه نقدا قاسيا . وفى النصف الثانى من سنة ١٨٦١ ، نشرت المجلة نفسها كتاب « ذكريات من منزل الموتى » . فنال الكتاب نجاحا كبيرا . ان اللوحة الصادقة التى

يرسمها الكتاب للمعتقل قد هزت ضمائر جميع القراء ، حتى الذين ينتمون منهم الى الطبقات العليا ، فكان له صدى كبير ، وكان لهذا الصدى فضل فى سن قانون الاصلاح القضائى الذى صدر سنة ١٨٦٤ ٠

ويصبح دوستويفسكى الذى كان سجينا سياسيا ، أكثر أدباء زمانه حظوة بتأييد النقاد من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، وأكثرهم حظوة حتى بين الشبيبة الثورية التى تزداد حماستها يوما بعد يوم ٠ وتسرى فى الناس منشورات سرية تمجد قيام «جمهورية اجتماعية ديمقراطية روسية»، وتدعو الى « اغراق الشوارع بدماء الأوغاد » ولكن دوستويفسكى يستاء من هذا « التطرف » ولا يشارك هؤلاء « المحمومين » آراءهم ، حتى ليتصور انهم قد طاف برءوسهم مس من « الجن » ٠ ويرهقه العمل الضخم الذى يقوم به كاتبا ومحررا ، فتزداد نوبات الصرعة التى تنتابه من حين الى حين٠

فيقرر أن يترك روسيا زمنا ليرتاح ويستجم فى الخارج ٠ فيغادر سان بطرسبرج فى حزيران (يونية) ١٨٦٢ ٠ ولكن أوربا الغربية التى يراها عندئذ لأول مرة تخيب ظنه وتبدد أحلامه ، فلا يقيم فى باريس ولندن الا فترة قصيرة ، يسرع بعدها عائدا الى ألمانيا ، ثم يصل الى جنيف حيث يجد صديقه ستراخوف ، فيذهب الصديقان معا الى ايطاليا ، فيمكثان فيها وقتا قصيرا يعود بعده دوستويفسكى الى روسيا ٠

هذه الرحلة التى قام بها دوستويفسكى الى أوربا ودامت شهرين قد أمدت الكاتب بمادة كتابه « مذكرات شتاء عن مشاعر صيف » الذى نشره فى مجلته ٠ ان الكتاب نقد حاد لعيوب الحضارة ، حتى لقد أصبح دوستويفسكى لا يحب سان بطرسبرج ، وها هو ذا يصف باريس بأنها « مدينة تعيسة تعاسة رهيبة » لا يفكر سكانها البورجوازيون الا بالمال ، وهو يحمل من لندن شعور الاشمئزاز فيقول عن « فوضاها انها النظام البورجوازى فى ذروته » ، ولا يرى فيها الا مئات من البغايا فى حى بيكاديللى ، والا السكان الذين يشبهون أن يكونوا عراة فى هوايتشابل ، انه يتصور أن أوربا الغربية قد وصلت بماديتها الى حافة المنحدر ، وأنها بنسيانها الله ماضية الى الأفول ٠ فليس على روسيا المسيحية أن تتوقع من أوربا الغربية أى خير وعليها أن تتبع طريقها الخاص بها ٠ ويشتد ايمان دوستويفسكى بالأرض وتقوى الآمال التى يعقدها على الفلاح ، فيستحيل هذا كله الى مزيد من الحرارة فى الدعوة الى السلافية ٠ ويمضى دوستويفسكى يعبر عن آرائه هذه فى مجلته بحماسة قوية وعنف شديد ٠

ولكن ما تلبث أن تنزل بالمجلة مصيبة ، فان الثورة البولونية التى شبت سنة ١٨٦٣ قد حضت ستراخوف على أن ينشر فى المجلة مقالا بعنوان « القضية المحتومة » يعرض فيه المطالب البولونية عرضا محايدا ، مع تظاهره برفضها والرد عليها ، فيصدر وزير الداخلية قرارا بوقف المجلة عن الصدور « لقيامها بحملات تناقض أهداف الحكومة » . فكان هذا القرار ضربة خطيرة للأخوين دوستويفسكى ، ضربة أدبية ومالية فى آن واحد .

باولين

وكانت حياة دوستويفسكى العاطفية تمر فى ذلك الوقت نفسه بمنعطف جديد . ان زوجته تمعن فى المرض يوما بعد يوم ، وان عصبيتها الهستيرية تتفاقم مزيدا من التفاقم ، وتظهر فى حياة الكاتب أثناء ذلك طالبة شابة اسمها باولين سوسلوفا ، فتاة تنتمى الى الجيل الجديد وتشبه

أن تكون بشخصيتها بطلة رواية من الروايات • هى ابنة رجل غنى صاحب مصنع (وكان فى الماضى قنا من أقنان أسرة تحمل لقب الكونت شيريمتييف) صبية بارعة الجمال ، متسلطة الطبع ، شديدة الحماسة ، قوية الاندفاع ، ملحدة تعتنق المذهب الفوضوى ، والعقيدة العدمية ، وتدعو الى الحب الحر الذى لا تقيده قيود ، تتوله بدوستويفسكى كاتبا شهيرا وثوريا قديما ، وتصارحه بحبها فى رسالة مشبوبة ، وتصبح من أعوانه فى المجلة لأنها تكتب قصصا • ولكن كان من الطبيعى ألا يعمر حب كهذا الحب بين رجل فى الاربعين أهرمته المحن وأضناه المرض ، وبين فتاة فى غضارة الصبا تفيض نشاطا وحركة وتتقد اقبالا على الحياة • ان الطبعين مختلفان اختلافا شديدا • ومع ذلك يقرر دوستويفسكى وباولين أن يسافرا معا الى الخارج فى صيف عام ١٨٦٣ • ولكن تصفية شئون المجلة تمنع دوستويفسكى من السفر فورا ، فينفد صبر الفتاة ، فتسافر وحدها الى باريس ، فتمكث فيها خمسة أسابيع • ويغادر دوستويفسكى روسيا أخيرا ، ولكنه لخلو جيبه من المال يفكر فى أن يجنى ثروة من القمار ، فيتلبث فى فسبادن ، فيكسب مبلغا ضخما بالمقامرة على الروليت ، ثم يخسر نصف المبلغ فى الغداة ، ويصل بعد ذلك باريس ، ولكن « بعد فوات الأوان » كما صرحت له بذلك باولين فور التقائه بها ، فان الفتاة الجميلة كانت قد أصبحت خليلة طالب اسبانى غنى ، ويعجز دوستويفسكى عن قطع صلته بها ، ويعرض عليها أن يمحضها « حبا أخويا » (وذلك دور سبق أن قام به ، وكثيرا ما وصفه فى كتبه) • ولكن الاسبانى ما يلبث أن يهجر باولين ، فترضى باولين عندئذ،وقد صعقها الحزن والالم ،أن تسافر مع دوستويفسكى الى ايطاليا • وتقودهما هذه الرحلة الى بادن بادن (حيث يندفع دوستويفسكى الى المقامرة بالروليت من جديد) ثم الى جنيف ، فروما ، فنابولى ، وتدوم هذه الرحلة ستة أسابيع ، تمثل باولين أثناءها دور « المرأة الجهنمية » ، فهى تعذب صديقها بجعله دائما على مسافة منها ، وفى غضون هذه الرحلة انما تصور دوستويفسكى خطة قصته « المقامر » التى تحتل فيها باولين الدور الاول •

واستحال حب الخليلين الى كره شيئا بعد شىء ، فليس يطيق أحدهما صاحبه ، فيعود دوستويفسكى الى بطرسبرج فيجد امرأته قد تفاقم مرضها ، واشتدت غيرتها ، واحتد هيجانها ، فيرسلها الى موسكو حيث المناخ أصح وأسلم ، ويبقى هو وحيدا فى بطرسبرج • ويحصل

أخوه ميشيل أثناء ذلك على الاذن باصدار مجلة جديدة يسميها «العصر» ، تبدأ بالظهور منذ مطلع سنة ١٨٦٤ ، فينشر فيها دوستويفسكى أثرا

الاخوان ميشيل وفيدور دوستويفسكى مديرا مجلتى «الزمان» و «العصر»

رائعا بعنوان « فى قبوى » ، يتجاهله النقاد فلا يتحدثون عنه ولا يشيرون اليه. وتتكاثر عليه المصائب فترهقه من أمره عسرا ، فالمجلة تسير متعثرة ، وآخوه ميشيل مريض ماينفك يدمن على الشراب مزيدا من الادمان ، وماريا ديمتريفنا تحتضر بموسكو فى ١٥ نيسان (ابريل) من سنة ١٨٦٤ ، فيسهر دوستويفسكى على سريرها وقد طفحت نفسه ندامة وحسرة وعذاب ضمير ، وتموت زوجته ماريا ، فما هى الا أشهر ثلاثة حتى يصاب أخوه الحبيب بمرض فى الكبد يودى بحياته هو أيضا ، فيقبع الكاتب وحيدا « فى الصقيع والفراغ » على حد تعبيره .

وقد أورثه أخوه تركة شاقة : فالمجلة التى كان على دوستويفسكى أن يحررها لاتملك قرشا واحدا ، وهى الى ذلك مدينة بخمسة وعشرين ألف روبل ، والمال الذى جبى اشتراكات فى المجلة قد أنفق ، ولابد من ثمانية عشر ألف روبل لطبع الأعداد الستة الأخرى الموعودة الى ختام العام .

وباندفاعة نبيلة كريمة هوجاء يتعهد دوستويفسكى بسداد ديون أخيه كلها ، عدا كفالته امرأته وأولاده ، فكان لاينى يركض هنا وهناك من أجل أن يقترض مايستطيع اقتراضه من المال ، من أجل أن يواصل اصدار المجلة التى كان يصحح تجارب طبعها بنفسه ويكتب لها المقالات ويؤلف لها القصص ، عاملا طول الليل على عادته .

ولكن عدد المشتركين فى المجلة ماينفك فى تناقص ، فيضطر دوستويفسكى الى وقف صدورها فى شهر حزيران (يونيه) من عام ١٨٦٥ ، وفى تلك اللحظة ظهر له ناشر محتال شره الى الربح يعرف اصطياد الفرص ، ويعرف من أين تؤكل الكتف (هو ستيلوفسكى) فيعرض على الكاتب أن يشترى منه بمبلغ تافه هو ثلاثة آلاف روبل حق طبع جميع مؤلفاته السابقة ، فى ثلاثة مجلدات ، بالاضافة الى رواية جديدة لم يسبق نشرها ، فاذا لم يقدم الكاتب مخطوطة الرواية الجديدة فى أول تشرين الثانى (نوفمبر) من سنة ١٨٦٦ فقد دوستويفسكى جميع حقوقه عن كتبه جميعها ، ما صدر منها وما لم يصدر ، فتصبح ملكا للناشر وحده لا شريك له فيها .

لقد وقع دوستويفسكى هذا العقد فى شهر تموز (يوليو) سنة ١٨٦٥ ، ومن أجل أن نقدر الغبن الذى أوقعه هذا الناشر المحتال في

دوستويفسكي يجب أن نتذكر أن تورجنيف كان يتقاضى فى ذلك الوقت خمسمائة روبل عن الملزمة الواحدة أى سبعة آلاف وخمسمائة روبل عن رواية واحدة مؤلفة من ٢٤٠ صفحة· قبض دوستويفسكى الآلاف الثلاثة ، فسدد ما استطاع أن يسدده من ديون ملحة ، ثم سافر الى فسبادن يجرب حظه مرة أخرى فى القمار ، ولكنه لا يفوز بغير الخسار ، واضطر أن يقترض بعض المال من تورجنيف·وتصل باولين من باريس ، ولكن مواردها كانت قد نفدت هى أيضا · ويرفض صاحب الفندق الألمانى أن يقدم الى دوستويفسكى أى طعام ، فيظل دوستويفسكى أياما يتبلغ بالشاى وحده· ففى هذه الفترة من البؤس والجوع انما تصور دوستويفسكى فكرة روايته « الجريمة والعقاب » ، وتخيل شخصية الطالب الفقير الذى يقرر أن يقتل مرابية عجوزا فى سبيل أن يسعد أسرته · ويعرض دوستويفسكى على ميشيل كاتكوف ، وهو محرر من دعاة السلافية ، أن يبيعه روايته هذه متى فرغ من كتابتها ، ويسأله أن يعطيه سلفة على ثمنها · ويتاح له أخيرا أن يعود الى سان بطرسبرج فى تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٥ ، بفضل معونة يسعفه بها صديقه القديم فرانجل·فما ان يصل الى سان بطرسبرج حتى تلاحقه الأعمال ويطارده الدائنون وتلازمه نوبات الصرعة من جديد · ومع ذلك يتقدم فى كتابة روايته ، وتظهر الرواية تباعا فى مجلة « الرسول الروسى » بموسكو ، من شهر كانون الثانى (يناير) الى شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦٦ ، فتحظى هذه الرواية الكبيرة الأولى من « الروايات المآسى » بنجاح كبير جدا ، وينال عليها أجرا مقداره أربعة آلاف روبل سبق انفاقها لأنه تقاضاها سلفا ·

وكان عليه فى أثناء ذلك أن يسلم ستيلوفسكى الرواية الجديدة الموعودة · ولكن أول تشرين الأول (أكتوبر) يوافى ولما يكتب منها دوستويفسكى سطرا واحدا · ويحدثه صديقه ميلوكوف عن مختزلين بدءوا يظهرون فى روسيا ، ثم يعثر له فى مدرسة أولخين على فتاة تجيد الاختزال اسمها آنا سنيتكينا ، فيرسلها اليه فى الرابع من تشرين الأول· انها فتاة متواضعة فى العشرين من عمرها ، أبوها تاجر روسى وأمها امرأة سويدية ، تمتاز بالتعقل والروية والاجتهاد والروح العملية ، وتختلف عن باولين الطائشة اختلاف النقيض عن نقيضه · أخذ دوستويفسكى يملى عليها روايته « المقامر » · فما انقضت خمسة وعشرون يوما الا وكانت الرواية قد تمت ، فيمضى دوستويفسكى فى أول تشرين الثانى (نوفمبر)

يحمل الى ستيلوفسكى الكتاب الموعود ، ولكن الناشر الماكر كان قد سافر ، ورفض مدير مكتبه أن يستلم المخطوطة • فأوحت آنا الى دوستويفسكى عندئذ بفكرة موفقة ، هى أن يذهب الى دائرة الشرطة فيودعها المخطوطة لقاء ايصال وفقا للأصول • وبذلك أحبطت حيلة الناشر المحتال ، وتنفس دوستويفسكى الصعداء •

آنا ، الزوجة الثانية

ورجا دوستويفسكى الفتاة أن تعود اليه للعمل فى الفصل الأخير من روايته « الجريمة والعقاب » • فلما وصلت اليه أخذ يقص عليها قصة رسام فى مثل سنه ، يعيش وحيدا مبدد الأحلام مشرد العواطف ، ثم يلتقى عرضا بفتاة ذكية حساسة يخفق لها قلبه ، وتنتعش بصحبتها روحه • وأضاف دوستويفسكى يقول لآنا : « تصورى أن هذا الرسام هو أنا ،

وضعى نفسك فى موضع الفتاة ، وتخيلى أننى صارحتك بحبى ، ورغبت اليك أن تقبلينى زوجا فماذا تقولين ؟ » .

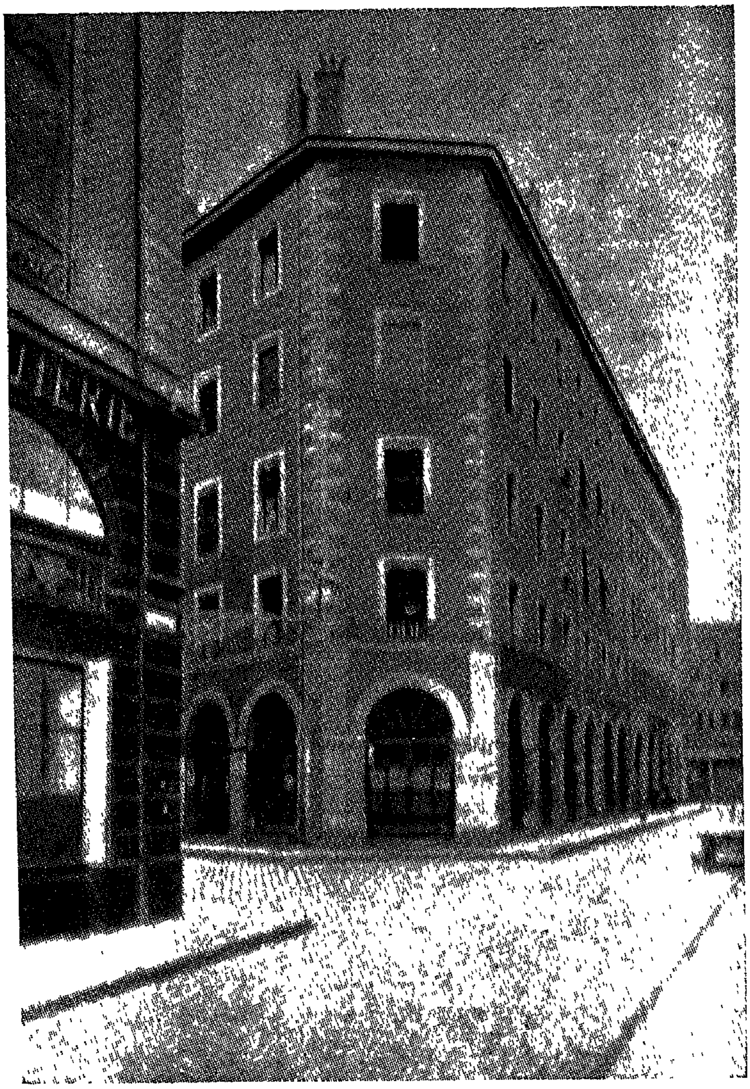

فى جنيف : هنا أقام دوستويفسكى سنة ١٨٦٨

فأجابت الفتاة بقولها : « أقول اننى أحبك واننى سأظل أحبك مدى الحياة » • ويتم الزواج بعد ثلاثة أشهر فعلا ، فيكون لدوستويفسكى فاتحة عهد جديد ترفرف عليه السعادة الزوجية ، بعد الانواء العاصفة والتقلبات المروعة التى تعرض لها •

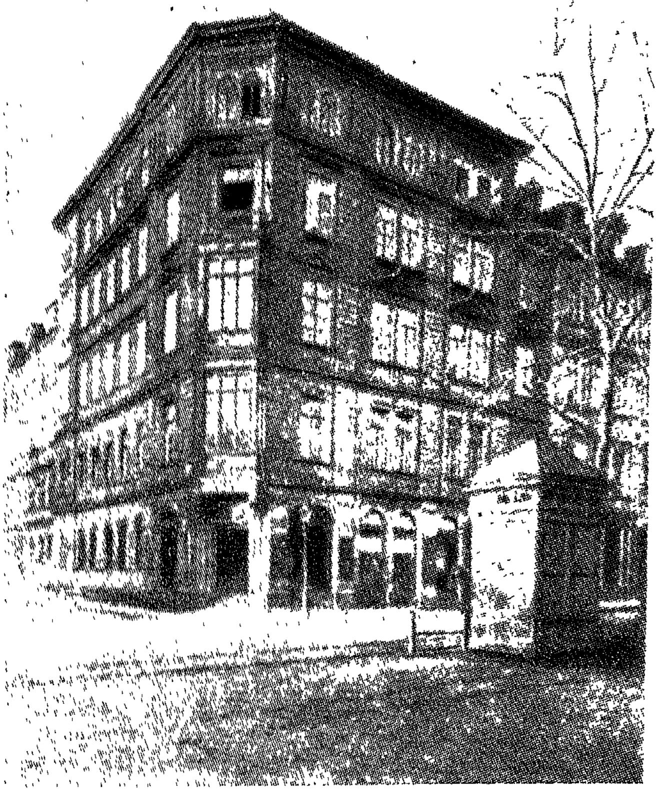

فى درسدن : هنا عكف على كتابة روايته « ألجن » سنة ١٨٧٠

ولا يبقى عليه الا أن يتغلب على مصاعب الحياة ، وعلى عداوة أسرته الكبيرة العدد ، ولا سيما عدواة ابن روجته الأولى بول ايسايف ، المعنى التافه الذى كان يعيش عالة عليه • ولئن حاولت زوجته الثانية ، المقتصدة ، المجتهدة ، الفاضلة ، أن تسوى المصاعب وأن تذللها ، فلقد

كانت تلك المصاعب أشد من أن يمكن تذليلها . وهاهم أولاء الدائنون يهـددون دوستويفسكى ، حتى ليخشى دوستويفسكى آن يودع السجن بسبب الديون ، فترهن آنا جهاز عرسها كله وأثاث منزلها كله ، ويسافر الزوجان الى الخارج فى شهر نيسان (ابريل) ١٨٦٧ ، فرارا من ملاحقة الدائنين .

وتدوم الرحلة أكثر من أربع سنين . لقد ذهب الزوجان أولا الى درسدن ثم الى فسبادن حيث يحاول دوستويفسكى أن يربح بالقمار على الروليت مع عمله فى كتابة روايته الجديدة « الاهبل » . لقد استبدت به حمى القمار فهو يجازف بكل شىء فيربح حينا ولكنه يخسر أكثر الأحيان ، فيعيش الزوجان من ذلك حياة مضطربة ، يبيعان معاطفهما ، ويرهنان حتى خاتمى خطبتهما ، ويلتمسان السلف بعد السلف من كاتكوف . ويقضى الزوجان بضعة أشهر من الشـتاء فى جنيف . وتعاود دوستويفسـكى حالات المزاج القاتم والكآبة الحزينـة ، ويقامر على الروليت فى ساكس ليبان ، فيبوء بمزيد من الخسار . وتولد له فى جنيف ابنته سونيا التى يخطفها الموت بعد بضعة أشهر ، فيحزن دوستويفسكى لموتها حزنا شديدا يهدم قلبه تهديما ، وبعد اقامة شهر فى فيفى يسافر الزوجان الى ايطاليا ، ويستقران فى فلورنسه ، فيقضيان فيها سـنة بكاملها . فتهدأ هنالك حياتهما بعض الهدوء ، ويفرغ دوستويفسكى منكتابة روايته « الأهبل » وتنشر الرواية بموسـكو سـنة ١٨٦٨ . وفى خريف ١٨٦٩ يعـود دوستويفسكى وزوجته الى درسدن حيث تولد لهما ابنة ثانية يسميانها ليوبا (المحبوبة) وهى التى ستسرد فى المستقبل قصة حياة أبيها الشهير سردا غير صحيح ولا دقيق .

ويمضى دوستويفسكى يعمل فى كتـابة روايته « الزوج الابدى » ، فسرعان ما ينجزها وينشرها ، ثم سرعان مايشرع فى كتابة رواية جديدة : « الجن » . لقد أوحى اليه بموضوع هذه الرواية أخو آنا الطالب بموسكو، الذى جاء يلحق بدوستويفسكى وزوجته فى درسدن أثناء عطلة الصيف، فقص عليهما قصـة مقتل رفيق له على يد المنظمـة السرية التى يتزعمها نتشاييف ، أحد دعاة النظرية العدمية . ويقضى دوستويفسكى سنة ١٨٧٠ كلها عاكفا على العمل فى كتابة روايته . ويجرب حظه مـرة أخرى فى الروليت ، لكنه وقد باء بالخسران من جديد ، يحلف ألا يقامر بعد ذلك أبدا ، ويبر هذه المرة بعهده ، ولا يحنث بيمينه ، ولا يقارب القمار قط .

المنزل الذى كتب فيه رواية « المراهق »

ولا تعود آسرة دوستويفسكى من درسدن الى بطرسبرج الا فى شهر تموز (يوليو) ١٨٧١ ، وهناك تمسك آنا بيديها ادارة مصالح زوجها ، فتحسن المساومة مع الدائنين ، وتهيىء طبعات مستقلة لروايتى «الاهبل» و « الجن » ، وتواصل العمل مع زوجها فى تاليف رواياته الجديدة : هو

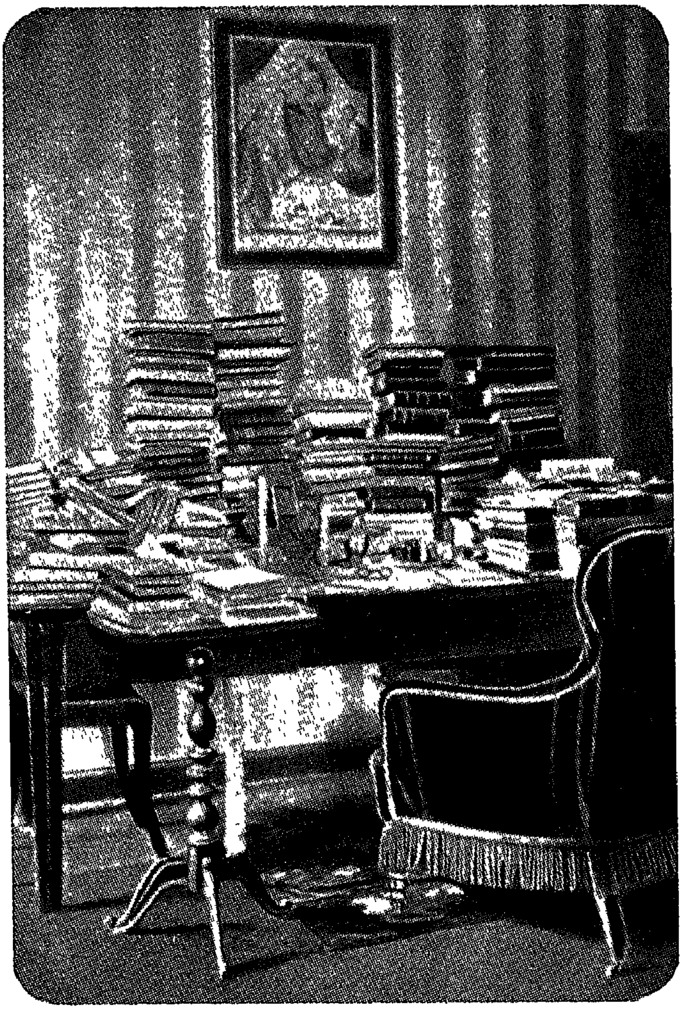

مكتب دوستويفسكى فى بطرسبرج ١٨٧١ - ١٨٨١

يملي وهى تكتب اختزالا · ويصبح دوستويفسكى محرر مجلة « المواطن » التى يصدرها الأمير مشترسكى الصحفى المحافظ وفى هذه المجلة انما فتح دوستويفسكى زاوية أسماها « يوميات كاتب » فنالت الزاوية نجاحا كبيرا ، من حيث هى حديث يقوم بين كاتب كبير وبين قرائه · وفى أثناء ذلك يعرض عليه صديقه القديم نكراسوف أن يؤلف رواية لمجلة « حوليات الوطن » فيكتب دوستويفسكى رواية « المراهق » التى تحكى قصة شاب استبدت به فكرة ثابتة وحاصره هوى قوى هو أن يغتنى نشدانا للقوة ، حتى اذا انقطع دوستويفسكى عن ادارة مجلة المواطن مضى الى مدينة صغيرة هادئة هى ستارايا روسا ، يقضى فيها سنتين كاملتين ، ولا يغيب عنها الى العاصمة الا نادرا · ولكنه يعود بعد ذلك الى العاصمة ليبدأ فى كانون الثانى (يناير) ١٨٦٧ اصدار مجلته هو « يوميات كاتب » ، وهى

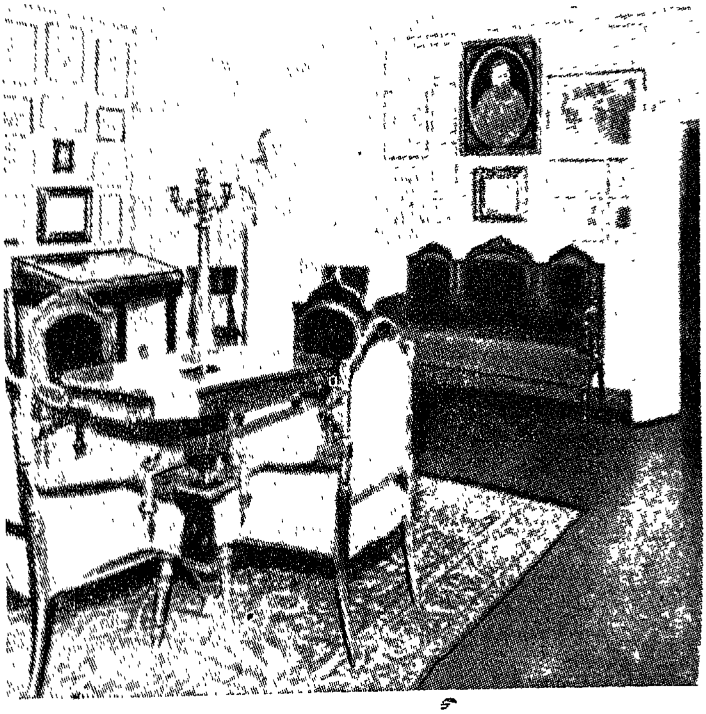

غرفة دوستويفسكى بستارايا روسا (متحف دوستويفسكى بموسكو)

يوميات شخصية بأوسع معانى الكلمة ، «عرض لكل ما انصب عليه اهتمامى شخصيا ، ولكل ما عنانى أكثر مما عداه » ، على حد تعبير دوستويفسكى • لقد حظيت « اليوميات » بنجاح لم يكن فى الحسبان ، فالكاتب يتلقى سيلا من الرسائل يحاول أن يجيب عليها • وهو يعنى فى هذه المجلة ببعض قضايا الاجرام (انه ما يزال يميل الى دراسة الجريمة ودوافعها) ، ولكنه يكتب فى هذه اليوميات أيضا مقالات سياسية حماسية كثيرة ، ينادى فيهـا بضرورة تدخل روسـيا من أجل تحرير سلافيى البلقان من ربقة الاحتلال التركى • وفى تلك المقالات انما يعبر دوستويفسكى عن آرائه الداعية الى السلافية ويعرب عن رأيه فى أن القسطنطينية يجب أن تنتمى الى روسيا عاصمة الارثوذكسية • وتشب الحرب أخيرا فى ١٧ نيسـان (ابريل) ١٨٧٧ ويقوم دوستويفسكى فى شهر تموز (يوليو) برحلة الى الأراضى التى كان يملكها دوروفوبى ، فيتحدث هنالك مع الفلاحين الذين

دوستويفسكى ١٨٧٩

هم فى سنه والذين يتذكرون طفولته ويتذكرون مقتل أبيه ، ويجرى مع هؤلاء الفلاحين أحاديث مدارها على الحرب ، فيسره أن يدرك أن الشعب مستعد لبذل التضحيات فى سبيل « القضية المقدسة » .

ويصاب صديقه القديم الشاعر نكراسوف بمرض خطير يودى بحياته فيلقى دوستويفسكى على قبره خطابا أليما ، يبكى فيه « القلب الجريح الى الأبد ، القلب الذى ظل جرحه ينبوع شعره كله ، ومصدر حبه لكل من يتألم من الاضطهاد والعـذاب » ... تلك كلمات يمـكن أن تصدق على دوستويفسكى نفسه .

وفى أثناء ذلك يشترى دوستويفسكى فى ستارايا روسا ، بمبلغ زهيد ، المنزل الصغير الذى سبق أن أقام فيه ، فيصبح هـذا الطريد الأبدى ، هذا المتشرد الأبدى ، هذا المستأجر الأبدى ، يصبح مالكا . فهو يملك لأسرته منزلا تحيط به حديقة .

وفى عشية عيد الميلاد سنة ١٨٧٧ يسجل دوستويفسكى فى دفتره هذه الأسـطر : (مفكرة .. للعمـر كله ١ ــ كتـابة « كانديد » روسى ، ٢ ــ كتابة كتاب عن يسوع المسيح . ٣ ــ كتاب مذكرات . ٤ ــ نظم قصيدة . كل ذلك عدا انجاز الرواية الأخيرة ، وطبع « اليوميات » وهذا يقتضى عشر سنوات من العمل فى أقل تقدير ، وعمرى الآن ٥٦ عاما) .

ولكن لم يكن قد بقى لدوستويفسـكى من عمره الا ثلاثة أعوام . كان دوستويفسـكى مصابا بمرض خطـير فى الرئة ، فهـو يذهب كل صيف الى مدينة امس طلبا للعلاج ، فلم يسـتطع أن يحقق من البرنامج الذى رسمه لنفسه الا كتابة روايته الكبيرة « الاخوة كارامازوف » التى تظل قمة انتاجه على كل حال .

وهذه نازلة جديدة تلم به : ان ابنه الثانى ألكسى الذى لمايكد يبلغ الثالثة من عمره يموت أثناء نوبة صرعة : من المستحيل ان يوصف حزن الأب المسكين على موت ابنه . وسوف يطلق دوستويفسكى اسم هـذا الابن على بطله الحلو الرقيق فى رواية الاخوة كارامازوف ... أليوشـا كارامازوف .

وفى تلك السنة يتعرف دوستويفسكى بالاستاذ الشاب فلاديمير سولوفيف الفيلسوف المثالى الذى يدعو الى المسيحية ويعلن أن المذهب

الوضعى الغربى فى أزمة • ويقوم الرجلان برحلة الى الدير الشـــهير فى أوبتينا ، قرب تولا ، فيدرس دوستويفسكى هنالك حياة الرهبان ويتبادل أحاديث طويلة مع الناسك أمبرواز ، نموذج البطل زوزيما فى رواية الاخوة كارامازوف •

ويقضى الـــكاتب سنة ١٨٧٩ كلهـــا فى انجاز رواية « الاخوة كارامازوف » التى تظهر فصولا فى مجلة كاتكوف « الرسول الروسى » •

ويشارك دوستويفسكى فى سهرات أدبية يقرأ أثناءها مقتطفات من أعماله ، فيعجب به الجمهور وما ينفك يصفق له•ويختلف الى الصالونات وينتخب عضوا مراسلا فى « الاكاديمية » ونائب رئيس « لجمعية اللطف

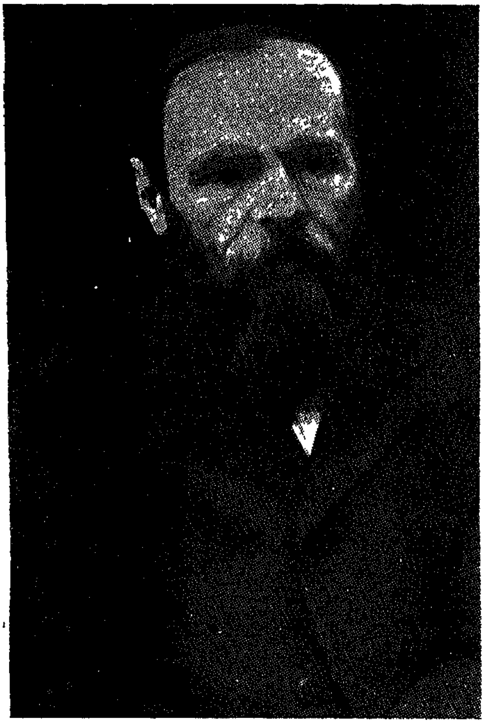

دوستويفسكى ١٨٨١

السلافيـــة » • وتنتدبه هـــذه الجمعية فى شـــهر أيار (مايو) ١٨٨٠ للمشاركة فى تدشين النصب التذكارى الذى شيد بموسكو تخليدا لذكرى الشاعر بوشكين • فتحقق له اقامته بموسكو نصرا مبينـــا : يحتفل به

ضريح دوستويفسكى ، بطرسبرج ، مقبرة دير الكسندر نفسكى

رجال الأدب احتفالا كبيرا ، ويلقى فى الثامن من حزيران (يونيه) بعد تورجنيف ، خطابه الشهير عن شاعره الاثير • كان خطابه خطابا رائعا تحدث فيه حديث أصحاب الرؤى ناشرا فى القاعة جوا مفعما بعطر الحماسة وروعة الخشوع ، وجلال النبوة • فى ذلك الخطاب تكلم دوستويفسكى على رسالة روسيا التى يجب أن تحقق مصالحة بين الغرب والشرق ، قائلا ان بوشكين يجسد الروح القومية الروسية ، لأنه أوتى قدرة خارقة على ادراك عبقرية الشعوب الأخرى ، وعلى فهمها ، فهذا « التجاوب » ظاهرة نبوة تتفق وخصائل الشعب الروسى كل الاتفاق •

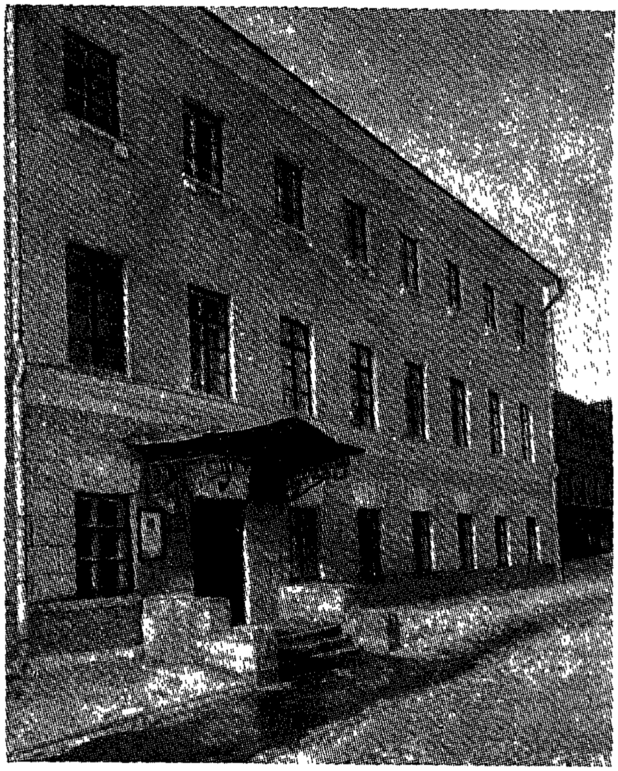

متحف منزل دوستويفيسكى بموسكو

ويشيد دوستويفسكى بالاصلاح الذى حققه بطرس الاكبر ، فيرى انه يلبى التيار العميق الذى يترقرق فى أعماق الروح القومية الظمأى الى صعيد الاخوة الانسانية ، والقانون المسيحى ٠٠ « نحن نسلم بأن بلادنا والعالم ، فلاداعى الى عداوة بين دعاة الغرب وانصار السلافية ، فما هذه العداوة الا سوء تفاهم يؤسف له ٠ ان روسيا مدعوة الى أن تنطق بالقول الفصل فى انسجام البشر انسجاما شاملا واتفاق جميع الشعوب على صعيد الاخوة الانسانية ، والقانون المسيحى ٠٠ « نحن نسلم بأن بلادنا فقيرة ، ولكن هذه البلاد هى التى زارها المسيح عبدا فباركها ، فكيف لا نستطيع أن نحقق قوله الفصل ؟ » ٠

لقد حاول دوستويفسكى فى هذا الخطاب الذى ينادى بالانسان الشامل والانسجام العام ، أن يوفق بين الآراء المتعارضة ، بين الصفوة المثقفة والشعوب ،بين روسيا وأوروبا ؛ وتلتهب القاعة التى يلقى فيها الكاتب خطابه ، وتصيح فيما يشبه الهذيان من فرط الحماسة ، وهذا تورجنيف يعانق دوستويفسكى والدموع تترقرق فى عينيه ، كأن معجزة أخوة تتحقق ٠

وهؤلاء فتيات يغمرنه بالأزهار ، ويقبلن يديه ، وهذا طالب يقع مغشيا عليه بين قدميه ٠ أحس دوستويفسكى انه فى حلم ٠ لقد سدد ديونه ، واشترى بيتا صغيرا يعيش فيه حياة مريحة ٠ تحيطه رعاية ٠ حنون حبيبة ٠٠ وآلاف المعجبين يقرءونه ويفهمونه ٠ لقد انتصر على قدره بالصبر وحده ٠ وهذا هو يكتب الى أحد أصدقائه قائلا له : « اسمح لى أن لا أودعك ٠ انت تعلم اننى أريد أن أعيش وأن اكتب عشرين سنة أيضا » ٠

ويعود دوستويفسكى الى ستارايا روسا يعكف على انجاز روايته « الاخوة كارامازوف » متحملا عناء كبيرا ، باذلا جهودا مضنية ٠

كان يحس أنه قوى معافى ، وكانت نفسه طافحة بالآمال ، وكان ذهنه فياضا بالمشاريع ٠ انه يضع القسم الثانى من «الاخوة كارامازوف»، القسم الذى يجب أن يظهر فيه أليوشا بعد عشرين عاما ٠ ولكن هاهى صحته تنهار فجأة ليلة السادس والعشرين من كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ : الدم يتدفق من فمه ويتجدد تدفقه من حين الى حين ، خلال

يومين • ويشعر دوستويفسكى أن منيته قد اقتربت ، فيتناول القربان المقدس ويستعد للقاء وجه الله •

وينطفىء دوستويفسكى فى ٢٨ كانون الثانى (يناير) ١٨٨١ ، بعد أن يبارك امرأته وأولاده •

ان روسيا كلها تحزن لموت الانسان الكبير الذى ظل مجهـولا مدة طويلة ، والذى تنكرت له الاقدار ذلك التنكر • ان نعشه يسير نحو اللحد تحت غابة كثيفة من الرايات • أمراء ورهبان وعمال وضباط ومتسولون، يحيطون بالنعش المهيب عابرين به المدينة • وامام القبر المفتوح يتناوب الكلامَ ، كتابٌ صالحت بينهم الفجيعة ، فاذا هم يتحدثون عن دوستويفسكى حديثهم عن شهيد • وينفض المشيعون • فتعود المقبرة التى يغطيها الثلج الى الصمت ، وتبــدأ فى تلك اللحظة حياة دوستويفسكى الجـــديدة ، لا بجسمه على الارض بل بمؤلفاته الخالدة ، فوق الزمان وفوق المكان ، فى قلوب الذين يقرءونه فيغوص بهم الى أعماق النفس ، بل الى اعمـاق الوجود •

س • د

تقديم

يضم هذا المجلد الأول من أعمال دوستويفسكى الأدبية ثلاث قصص كتبها فى السنين الثلاث الأولى من نشاطه الأدبى • ولعلها تتفاوت نوعا وقيمة ، وقد استقبلها النقاد استقبالا مختلفا على كل حال • ولكنها تجتمع أولا على وصف شخصيات قلقه ورسم وجوه معذبة لا يرجع ما تعانيه من قلق وعذاب الى طبيعتها وحدها ، وانما يرجع كذلك الى الظروف القاسية التى تحيط بها والى الظلم الاجتماعى الذى يثقل على صدورها • واذا كانت هذه الشخصيات لا تكاد من فرط انسحاقها أن تشكو أو تتذمر ، فان القارىء يشكو ويتذمر نيابة عنها ، بل يستحيل شكواه ويستحيل تذمره الى تمرد وثورة • وتجتمع هذه القصص ثانية على العمق فى النفاذ الى أغوار النفس ، وسبر تناقضاتها ، والتقاط أخفى خلجاتها كسائر آثار دوستويفسكى من جهة أخرى •

الفقراء

١٨٤٦

« المجد والشرف للشاعر الشاب الذى تحب آلهة وحيه سكان السقوف والأقبية وتقول عنهم لأصحاب القصور المذهبة : هؤلاء بشر أيضا ، هؤلاء اخوتكم » •

بهذه العبارة حيا بيلنسكى ، سنة ١٩٤٦ ، قصة «الفقراء • والحق أن حماسة الناقد الروسى الكبير فى محلها : لقد ظهرت عبقرية دوستويفسكى الخلاقة فى أول عمل من أعماله الأدبية ، وهو لما يزل فى السادسة والعشرين من عمره ، ولئن لم تتفتح هذه العبقرية عن كامل مكنوناتها بعد ، ولئن

لم تصل الى الآماد البعيدة التى ستصل اليها ، فقد كشفت منـذ أول عمل عن السمة التى ستظل تميزها : حبها وعطفها وحماستها للمغمورين المغلوبين على أمرهم ، لأولئك الذين سيسميهم دوستويفسكى فى عمـل مقبل من أعماله « المذلين » و « المهانين » .

ولئن تأثر دوستويفسكى فى كتابة هذه الرواية بقصة « المعطف » التى كتبها جوجـول والتى أثرت فى الأدب الروسى كله ، ولئن كان دوستويفسكى يقول هو نفسه : « لقد ولدنا جميعا من معطف جوجول » ، فما أعظم الفرق بين القصتين ! ان دوستويفسكى فى قصته هذه يتمرد على روح الهجاء التى تتجلى فى قصة جوجول . ان آكاكى آكاكيفتش ، بطل « المعطف » انسان يبعث فى نفسك الضحك الى جانب الشـفقة . لقد كان مثله الأعلى كله أن يحصل على معطف . حتى اذا ضاع المعطف هوى الى اليـأس فالموت . ولا كذلك المثـل الأعلى الذى يحـرك ماكار ديفوشكين : انه الحب والرحمة والايثار والتفانى . ان ماكار يضحى بنفسه فى سبيل الفتاة المسكينة التى لا يكاد يراها ، ولا يجرؤ أن يزورها مخافة النمائم ، وما ينفك يرسـل اليها هداياه الصـغيرة بالحرمان يتحمله تلو الحرمان . وقد أقرأ دوسـتويفسكى بطله « معطف » جوجول ، فأجـرى لسانه بتعبير عن استيائه من هذه القصة الساخرة التى لا تراعى مشاعر الفقراء الخبيئة ، بل تعريها أمام أبصار الناس . ثم أقرأه قصة بوشكين « ناظر المحطة » ، فأجرى لسانه بتعبير عن الاعجاب بها ، والرضى عنها . ان الحب العميق الذى يحمله « ناظر المحطة » فيرين لابنته الوحيدة ، يشبه العواطف الأبوية الرقيقة التى يحملها ديفوشكين للفتاة البائسة فارنكا . وان المصير الحزين الذى ينتهى اليه ناظر المحطة بعد أن خطف ابنته ضابط متكبر غنى فلم يرها أبوها بعد ذلك ، تشبه مصير ديفوشكين الذى سيبقى وحيدا فى هذا العالم ، بعد أن ارتضت فارنكا أن تتزوج السيد بيكوف الرجل الثرى الذى سبق أن أغواها ، ثم تزوجهـا ومضى بهـا الى أملاكه البعيدة .وتنتهى قصة دوستويفسكى بصرخة أليمة حادة تعلن أنه ستحيل أن تكون هـذه الرسالة هى الأخيرة « مستحيل تكون هـذه الرسالة هى الأخيرة ! » ولكن القارىء يتنبأ بأن تلك الرسالة هى آخر رسالة ، وأن ديفوشكين الذى بقى وحيدا سيندفع الى الادمان على السكر ، وسيموت حزنا وألما ، مثل « ناظر المحطة » بطل بوشكين . ولكن قصة دوستويفسكى أغنى كثيرا من قصتى صـاحبيه جوجول وبوشـكين . ان هذه القصـة

المتواضعة التى تحدثنا عن حب بين شخصين تستحيل الى لوحـة تصور الظلم الاجتماعى فى أقسى أشكاله .

البطلان كلاهما مضطهدان معذبان مذلان مهانان ، يوقع فيهما الأشرار أنواع الظلم ، ويتحملان من الفقر ما لا يطاق . ان الفقر الذى يعـانيه ماكار ديفوشكين يكشف له عن كل الفقر الذى يحيط به ، وقد هم الرجل أن يشكو ويتذمر ، وأن يتمرد ويثور منعجبا فى سذاجة من العذاب الذى يقاسيه الخيرون فى هـذا العالم . واذا كان ، لبسـاطته ، يتراجع عن الشكوى والتذمر ، ويرتد عن التمرد والثورة ، مسلما بالواقع ، مذعنا لمشيئة القـدر ، فان فيه شيئـا من « المتمردين » الذين سيصفهم لنا دوستويفسكى فى رواياته المقبلة .

ان الوجوه التى نراها فى هذا العمل الأول من أعمال دوستويفسكى سنقع عليها فى أعماله الأخرى ، انها وجوه « الفقراء » نشاركهم عذابهم ونحيا حياتهم . ولكننا فى هذه القصة مانزال بعيدين عن الأغوار العميقة التى سينفذ اليها دوستويفسكى ، وما زلنا بعيدين عن الأعماق الميتافيزيقية التى ستنزل اليها رواياته المآسى .

المثل

١٨٤٦

نشرت رواية « المثل » بعد صدور « الفقراء » بشهر واحد . فلم يستقبلها النقاد والكتاب والقراء بمثل ما استقبلوا به قصة « الفقراء » من حماسة . فبعضهم يشكو من اطناباتها واسهاباتها ، وبعضهم لا يرى فيها الا تقليدا واضحا لجوجول . ولكن الناقد الروسى الشهير بيلنسكى حرص على ابراز دلالتها الاجتماعية ، فعقد مقالا قال فيه عن بطلها جوليادكين : « انه واحد من أولئك الناس الحساسين الذين نجد أمثالهم فى الطبقـات المتوسطة والدنيا ، فهو سريع التأذى ، شديد الطموح ، يتراءى له دائما أنه مستهدف ببعض الكلمات وبعض النظرات وبعض الحركات، وأنه يحاصر وتدبر له المكائد ... » . حتى لقد قال بيلنسكى انه يرى فى هذه القصة « من الموهبة الخالقة ومن عمق الفكر ما لم ير مثله فى قصة الفقراء » . وختم بيلنسكى مقاله بنبوءات تتناول دوستويفسكى فقال : « سـوف

تظهر أثنـاء حياته مواهب كثيرة تعارضه ، ولكن هـذه المواهب كلها سيطويها النسيان ، أما موهبته فتظل فى ذروة المجد » ٠

صدق بيلنسكى ٠٠ لسوف يطوى النسيان مواهب كثيرة ٠ أما موهبة دوستويفسكى فستظل فى ذروة المجد ٠ ولكن بيلنسكى كان ينظر الى كل أثر من آثار الأدب من زاوية ضيقة خاصـة ، هى زاوية الأدب الاجتماعى الجديد الذى ينادى به ويدعو اليه ٠ ولم يكن مهيئا اذن لأن يرى كل ما فى رواية « المثل » من عمق نفسى ٠ فلئن كان جوليـادكين ضحية ظلم اجتماعى من بعض النواحى ، وبمعنى من المعانى ، فان هـذا ليس كل جوليادكين ٠٠ واذا كانت رواية « المثل » تفضح هذا الظلم الاجتماعى ، فان هذا ليس كل رواية « المثل » ٠٠٠ ان جوليادكين انسان « تنفصم » شخصيته على حد تعبير علماء النفس الحديثين ٠٠٠ انه يزدوج ٠٠٠ فمن رآه من خارج سماه مجنونا وكفى ٠٠ وقد يضحك اضافة الى هذا ٠ وما كذلك يفعل دوستويفسكى ٠٠٠ فانه يراه من داخل ، أو قل انه يعيش معه تجربته النفسية ، وهو لذلك لا يكاد يضحك عليه ، ولايكاد يحمل القارىء على الضحك عليه ٠ بالعكس ، إنه يبرز جانب المأساة من حياة انسان يتعذب ، لا عن ظلم اجتماعى فحسب ، بل عن مرض نفسى قد يتصل بالظلم الاجتماعى ، وقد لا يتصل به كثيرا ٠ فمن لم يكن قادرا بحد أدنى من تجربة شخصية على أن يرى ما يراه دوستويفسكى فى بطله من داخل ، فلن يستطيع أن يعرف كل العمق النفسى فى تصوير شخصية هذا البطل بالعين البصيرة والريشة البارعة ٠

ولذلك رأينا بيلنسكى يعود الى الكلام عن كتاب « المثل » فى مقالة يكتبها بعد سنة ، فاذا هو فى هذه المرة ، مع اظهار اعجابه بموهبة المؤلف، يأخذ على الكتاب « طابعه الخيالى غير الواقعى » ، ويعيب فيه غمـوض حبكته ، وطول اسهاباته وتكراراته ، وينصح دوستويفسكى باختصار هذه الرواية عند اعدادها للنشر فى طبعة جديدة ٠

وقد شعر دوستويفسـكى بمرارة شديدة من سوء تقدير النقـاد لكتابه ، وعبر عن هذه المرارة فى بعض رسائله ٠ ومع ذلك رأيناه ، عنـد عودته من سيبيريا ، وشروعه فى اعداد طبعة جديدة لمؤلفات شبابه ، يتأثر برأ النقاد والقراء فى كتابه ، فيأخذ فعلا فى اعادة كتابة «المثل» ، ولكن وقته لم يتسع لهذا العمل ٠ وفى عام ١٨٦٥ نشر طبعة جديدة للكتاب لا تختلف

عن الطبعة الأولى الا فى أمور يسيرة فهو لا يزيد عن أن ينقح هنا عبارة ، ويختصر هناك فقرة ، ويحذف هنالك رسالة ، غير أن نيته كانت منصرفة، كما تدل على ذلك مسودات يرجع عهدها الى ١٨٦١ ـ ١٨٦٤ ، الى احداث تغييرات كبيرة فى هذه الرواية ، وتدل هذه المسودات على أنه كان يريد أن يجعل من بطله جوليادكين الأول واحدا من أنصار النزعة الاشتراكية ينتمى الى فوربيه وينضم الى حلفة بتراشفسكى ويطمع فى قيادة ثورة ، وأن يجعل من «المثل» ، من جوليادكين الثانى جاسوسا يشى بالثوريين ويفضح أمرهم .

على أن دوستويفسكى يظل شاعرا بما تحمله قصته من نفاذ وعمق متأثرا مع ذلك برأى النقاد والقراء فيها ، فها هو ذا يكتب فى « يوميات كاتب » سنة ١٨٧٧ قائلا : « اننى لم أوفق فى هذه القصة كل التوفيق ولكن فكرتها كانت واضحة وضوحا كافيا ، وما أحسب أننى أضفت الى الأدب فكرة أكبر منها خطرا وأعلى شأنا ، ولكننى لم أوفق فى صياغة الشكل » .

قلب ضعيف

١٨٤٨

وهذا بطل آخر من صغار الموظفين ، شاب يفيض مزايا وخيرا ومحبة، راض عن مصيره ، رغم أن راتبه لا يزيد على خمسة وعشرين روبلا فى الشهر . ان رئيسه ، جوليان ماستاكوفتش يستغله ، عاهدا اليه بأعمال اضافية لا يدفع له أجرها خلال أربعة أشهر . ولكن فاسيا ينهض بالعبء فى جد واجتهاد وحماسة ، حتى اذا كافأه رئيسه بخمسين روبلا فاض قلب الفتى شعورا بالشكر والامتنان . والفتى سعيد ، لأن له صديقا عزيزا عليه هو أركاد ، ولأنه خطب فتاة يحبها حب العبادة ، ولأنه ينعم بالحظوة لدى رئيسه . ولكن «قلبه الضعيف» ينوء بحمل كل هذه السعادة . لقد أهمل انجاز العمل الذى عهد به اليه رئيسه ، لأنه قضى أوقات فراغه كلها عند خطيبته فها هو ذا يشعر من ذلك بأنه آثم فى حق رئيسه ، وهاهو ذا الجنون يستولى عليه شيئا بعد شىء مهربا من العمل الذى أصبح لا يطيق انجازه ، ومهربا من الحب الذى يرى أنه لا يستحقه ، ومهربا من الشعور بالاثم الذى يمضه ويرهقه أشد الارهاق . وما أروع المشهد الذى يصوره

دوستويفسكى حين يرينا الفتى المسكين وقد استولى عليه جنونه ، فهو بجرى ريشته سريعة على الورق بغير حبر ، ويقلب الأوراق واحدة بعد أخرى بيضاء لم يخط عليها سطرا ... ظانا أنه يعجل قيامه بالعمل رجاة انجازه فى الموعد المضروب لتقديمه الى رئيسه . انه مشهد مؤثر يكوى النفس حزنا .

لقد ضخم الفتى المسكين خطيئة تقصيره تضخيما شديدا ، فأحس فى اطار النظام القاسى الذى كان يسود عهد نيقولا الأول ، أنه يرتكب جريمة التمرد وعدم الخضوع للرؤساء ، وتوقع أن ينزل فيه العقاب الذى ينزل فى المجرمين السياسيين ، وهو ادخال المجرم فى الجيش جنديا بسيطا لسنوات طويلة . ترى الا يمكن أن يقال ان دوستويفسكى ، حين صور هذا الفتى الحالم الذى انتهى الى الجنون ، كان يعبر عن مخاوفه من الوقوع فى هوة الجنون ، وعن احساسه بأنه سيعاقب هو أيضا بالنفى والجندية لسنين ؟

س . د

الفقراء

١٨٤٦

« الفقراء » (Béonie Lioudi) ،
كتبت سنة ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ ، ونشرت
فى شهر كانون الثانى «يناير» سنة
١٨٤٦ ، فى «مجموعة سان بطرسبرج»
التى كان يصدرها نكراسوف .

يا لهؤلاء الكتاب القصاصين ! انهم بدلا من أن يقصوا علينا شيئا نافعا ممتعا ، مريحا ، يهتكون جميع أسرار الحيـاة على هذه الارض ويزيحـون الحجب عن جميـع مبـائس الوجود ! ... لو كان الامر لى لنهيتهم عن الكتابة ! فكروا فى النتائج التى يؤدى اليها هذا ! ان المرء يقرأ ما يكتبون ، فاذا هو ، على غـير ارادة منـه ، يأخـذ يتأمل ..... واذا بجميـع أنواع الافكار العجيبة المسـتحيلة تغزو رأسه . حقا لو كان الامر لى لنهيتهم عن الكتابة ، أو لمنعتهم من نشر ما يكتبون .

الامير ف. ف. أودويفسكى

٨ نيسان (ابريل)

عزيزتى فرفارا ألكسييفنا ، الصديقة الغالية !

كنت أمس سعيدا ، سعيدا سعادة كبرى ، كنت أفيض سعادة ؛ مرة فى حياتك على الأقل ، أيتها العنيدة الصغيرة ، رضيت أن تلبى طلبى. لقد استيقظت مساء أمس فى الساعة الثامنة تقريبا (وأنت تعلمين يا ماتوشكا ، اننى أحب أن أغفو ساعة أو ساعتين عند عودتى من عملى) ، فأشعلت شمعة ، وهيأت ورقا ، وبريت قلما ، ثم اذا أنا أنهض رأسى مصادفة ، فيأخذ قلبى يخفق فى صدرى سريعا سريعا . لقد أدركت اذن ماكنتُ أتمناه ، ما كان يتمناه قلبى البائس! لقد لاحظتُ حين أنهضت رأسى أنك شددت طرفا من ستارة نافذتك فثبته بأصيص الأزهار ، تماما كما أوحيت اليك بذلك ايحاء غير مباشر فى المرة الماضية . حتى لقد خيل الى أننى ألمح فى تلك اللحظة وجهك الأخاذ من وراء النافذة ، وكأنك كنت تنظرين الىّ من غرفتك ، كأنك كنت تفكرين فىّ . وما كان أشد أسفى ، ياملاكى الصغير ، حين لم أستطع أن أميز قسمات وجهك الحلو العذب تمييزا واضحا ! لقد كنتُ فى زمن من الأزمان أملك بصرا قويا أنا أيضا ، ياماتوشكا . ولكنها الشيخوخة يا صديقتى اللطيفة ... انه ليحزن قلب المرء أن يدلف الى الشيخوخة . اننى فى هذه اللحظة مثلا لا أرى رؤية واضحة . ولكن يكفى أن أعمل قليلا فى المساء ، يكفى أن أكتب بضعة أسطر ، حتى تصبح عيناى فى صباح الغداة حمراوين ، وحتى تسيل منهما الدموع ، فأكاد أستحى أن أظهر للناس . ولكننى يا ملاكى قد رأيت ابتسامتك ، ابتسامتك الصغيرة الفاتنة ، رأيتها فى خيالى ، فكانت كالضوء فى نفسى ، وشعرت بذلك الانفعال نفسه الذى شعرت به يوم قبلتك يافارنكا ، هل تذكرين ذلك ياملاكى العزيز ؟ حتى لقد خيل الى – هل تصدقين يا عزيزتى ؟ – انك

تهددينى بأصبعك من وراء النافذة . أهذا صحيح أيتها الحمقاء الصغيرة ؟ يجب عليك حتما أن تقصى علىّ هذا كله مفصلا فى رسالتك القادمة .

ولكن قولى : ما رأيك فى اختراعنا هذا بشأن ستارة النافذة ، ألم تكن فكرة لطيفة فى الواقع ؟ لسوف أعرف ، حين أعمل أو حين أضطجع ، وحين أستيقظ أيضا ، لسوف أعرف فورا أنك تفكرين فىّ ، وأنك لم تنسينى ، وأنك أنت أيضا جيدة الصحة مشرقة المزاج . فاذا أسدلت الستارة عرفتُ أن هذا يعنى أنك تقولين : « وداعا يا ماكار ألكسييفتش ، فقد آن أوان النوم » . حتى اذا عدتِ فرفعت الستاره فهمتُ أنك تقولين : « نعمت صباحا يا ماكار ألكسييفتش ، هل نمت نوما طيبا ؟ » أو فهمت أنك تسألين : « كيف حالك اليوم يا ماكار ألكسييفتش ؟ أما أنا فانى بحمد الله فى صحة حسنة ، وكل شىء يجرى عندى على ما أحب » . هل رأيتِ كيف أحسنتُ تخيل هذا الاختراع ؟ لا حاجة بنا الى التكاتب من أجل التخاطب ، أليس كذلك ؟ وكانت تلك فكرتى ، فكرتى أنا . فاعترفى اننى حاذق فى مثل هذه الأمور ، ألا ترين هذا الرأى يا فرفارا ألكسييفنا ؟

يجب أن أقول لك يا عزيزتى فرفارا ألكسييفنا أننى قضيت ليلة رائعة ، على خلاف ما كنت أتوقع ، فملأنى ذلك غبطة وبهجة . ان المرء لا ينام نوما طيبا فى الليلة الأولى من اقامته بمسكن جديد . فهو لا يشعر بالارتياح ، اذ لا بد أن يكون أمر من الأمور على غير ما يجب أن يكون ! ولكننى نهضت من فراشى فى الصباح جم النشاط شديد الفرح أشبه بصقر . انها لمتعة حقا ! وما كان أجمل الصباح فى هذا اليوم ، ياماتوشكا ، لقد فتحت النافذة فى مسكننا : فكانت الشمس تسطع ، وكانت الطيور تغرد ، وكان الهواء مفعما بأشذاء الربيع . الطبيعة تعود الى الحياة ، فاذا كل شىء يفعل

ما تفعله الطبيعة ، ويجرى على ما يريده الربيع . حتى لقد أخذت أحلم أحلاما جميلة لذيذة ؟ وكانت أحلامى تنصرف اليك يا فارنكا ، فأشبهك بطائر صغير من طيور السماء خُلق فرحةً للبشر وجمالا للعالم . وحلمت عندئذ ، يافارنكا ، أننا معشر الذين نعيش فى هموم الحياة على الأرض ونضطرب فى أعاصيرها ، يجب علينا أن نحسد طيور السماء ـ وكانت سائر أحلامى من هذا القبيل ، ومن هذا النوع ؟ أعنى اننى ظللت فى أحلام اليقظة هذه ، أعقد مقارنات عجيبة وأنشىء تشبيهات خارقة . ان عندى ، يا فارنكا ، كتابا يقول هذه الأشياء نفسها ، ويستعمل ألفاظا كهذه الألفاظ. واذا كدت أكتب اليك فى هذه اللحظة ، فلأن أحلامنا قد تبلغ هذا المدى من التنوع ياماتوشكا . نحن فى الربيع ، والخواطر التى تواتينى ممتعة جدا ، وتتدفق حياة وتفيض قوة ، وتحمل الىَّ معانى رقيقة مفعمة بالحنان. كل شىء يبدو لى ورديا . لذلك أكتب اليك هذا كله . والأصح أننى قرأت هذا كله فى كتابى الذى يعبر مؤلفه عن هذه العواطف نفسها شعرا فيهتف قائلا :

ألا ليتنى طير ألا ليتنى صقر

الخ ....

هناك أفكار أخرى كثيرة فى هذا الكتاب . ولكن ما فائدة نقلها اليك الآن ؟ الأحرى أن تقولى أنت أين ذهبت فى هذا الصباح يا فرفارا ألكسيفنا . لم أكن قد تركت منزلى الى عملى حين خرجت أنت من غرفتك كطائر صغير من طيور الربيع ، واجتزت فناء المنزل وقد بدا فى وجهك ذلك الفرح كله . ما كان أشد سعادتى حين تأملتك فى تلك اللحظة ! آه يافارنكا ، لاتبكى ولاتنتحبى . ان الدموع عاجزة عن دفع الشقاء . أنا أعرف ذلك بالتجربة ياماتوشكا . لقد هدأت حياتك الآن كثيرا، وتحسنت

صحتك بعض التحسن • بالمناسبة ، كيف حال صاحبتك فيدورا ؟ يا لها من امرأة طيبه شهمة ! •• اكتبي لى يافارنكا : كيف تعيشين معها الآن ، وهل انت راضية عن كل شيء • ان فيدورا شرسة بعض الشراسة ، أنا اعرف ذلك ، ولكن لا تعبئى ولا تحفلى يا فارنكا ، واغفرى لها ، لانها طيبة جدا •

سبق أن حدثتك عن تيريز هذه التى تخدمنا هنا ، والتى تملك هى أيضا قلبا طيبا ، وتستحق الثقة • كنت شديد القلق بشأن رسائلنا ، لا أعرف كيف أوصلها اليك • فاذا بالرب يرسل الينا تيريز هذه من أجل سعادتنا• امرأة ممتازة ، رقيقة الحاشية ، دمثة الطبع ، وليست بثرثارة أبدا • ولكن صاحبة بيتنا لا يعرف قلبها الرحمة ولا الشفقة فى الواقع • فهى ترهقها بالعمل وتعاملها أسوأ مما تعامل خرقه بالية •

ليتك تعرفين هذا المسكن المضحك الذى وقعت عليه يا فرفارا ألكسييفنا ! يا له من مسكن ! تعلمين أننى قد عشت حتى الآن حياةشديدة العزلة كثيرة الهدوء • كان كل شيء عندى صامتا صمتا يبلغ من الاطباق أن لو طارت ذبابة لسمع صوت طيرانها • أما هنا فالصخب جهنمى : صراخ لا ينتهى •• اننى لم أصف المنزل حتى الآن • هناك ، أولا ، دهليز طويل ، شديد العتمه والظلمة ، كثير الوساخه والقذارة ؟ فعلى اليمين جدار عار كل العرى ، وعلى الشمال غرف تتابع تتابع الحجرات فى فندق • هذه هى الغرف المؤجرة ، ورب غرفه يسكنها شخصان أو ثلاثة أشخاص • أما الترتيب فما ينبغى أن يخطر على بال • نحن هنا فى سفينة نوح • ولكن يجب الاعتراف بأن الأشخاص الذين يقيمون فى هذه الغرف لطاف ظرفاء ، وهم جميعا على جانب من الثقافه ومن العلم • أحدهم موظف (مستخدم فى ادارة أدبية) يملك ثقافة واسعة الى أقصى حدود السعة ، فهو مثلا يتكلم عن هوميروس وعن برامبيئوس

وعن تير من الكتاب أيضا ، لانه يعرف كل شيء • رجل ذكي جدا • وهناك ضابطان لا يزيدان على أن يعلبا بالورق طول الوقت • ثم هنـاك ملازم بحار ، وانجليزي يعطي دروسا • اسمعي : سأحاول ، من أجل أن أسليك وأسرى عنك ، أن أصفهم لك وصـفا لاذعا في رسـالتي المقبلة ، أي انني سأصفهم لك على حقيقتهم تفصيلا • اما ربة المنزل فهي عجوز قصيرة جدا ، وسخة ، تظل تتبختر طول النهـار بالبابوج وتوب المنزل ، لا تعمل سيئا عير تفريع نيريز من الصباح الى المسـاء • وانا أسكن في المطبخ ، أعني ••• لا ••• اليك كيف يجب شرح الأمر : هناك غرفة الى جانب المطبـخ (جدير بالذكر أن عنـدنا مطبخا نظيفـا جـدا ، مضـيئا ومريحا) غرفة صغيرة ، ركن صـغير متواضع •• أو قولي على وجه أدق ان المطبخ قاعة واسعة ذات ثلاث نوافذ وضعوا حاجزا على طول جدارها فأصبح هناك غرفة جديدة ، غرفة اضافية ان صح التعبير• هي غرفة واسعة جدا ، مريحه جدا ، لها نافذة ، ولها كل ما يجب ؛ كل شيء فيها جـيد : ذلك هو ركني • ما ينبغي يا ماتوشكا أن يبـدو لك هذا غريبا ، ولا أن تجدي فيه شيئا غامضا أو شيئا من سر • لماذا أسـكن في المطبخ؟ صحيح انني أسكن الآن فيهذه الحجرة ، أقصد وراء الحاجز، ولكن لا ضير في هذا • انني أعيش في هذه الحجرة منعزلا ، بعيدا عن الآخرين ، أحيا حياة هادئة • وقد وضعت في الركن سريرا ومنضـدة وخزانة وكرسيين ، وعلقت أيقونة • صحيح أن من الممكن العثور على مساكن تفضل هذا المسكن ، وربما كان هنالك مساكن تفضله كثـيرا • ولكن الراحة هي الأمر الهـام قبل كل شيء • ومن أجـل الراحة انما جئت الى هنا ، اياك أن تتخيـلي انني جئت لسبب آخـر من الأسباب • ونافذتك الصغيرة تقع أمام نافذتي تماما ، وفي الجهة الأخرى فناء العمارة، وهو فناء ضـيق جدا أراك فيه حين تمرين ، فهكذا تصبح الحيـاة أكثر

بهجه عند هذا البائس الشقى ، انا . ثم ان الاجــر ابخس كلفة . ان أجر أحقر غرفة هنا يبلغ مع ثمن الطعام خمسة وثلاثين روبلا ورقا . وذلك مبلغ باهظ بالنسبة الى . أما ركنى فاننى أدفع أجره سبعة روبلات، فاذا أضفت الى ذلك خمسة روبلات فضة ثمن الطعام ، بلغ المجموع أربعــه وعشرين روبلا ، ونصف روبل ، ولقد كنت أنفق قبل ذلك ثلاثين روبلا مع حرمان نفسى من أشياء كثيرة . كان يندر أن أشرب شيئا من شاى . أما الآن فقد أصبحت أملك ما أشترى به شايا وسكرا . اذا لم أشرب الشاى هنا شعرت بحرج كبير ، يا عزيزتى . ذلك أن جميع المستأجرين أناس ذوو يسار ، فيخجلنى أن لاأشرب الشاى وأنا بينهم . فبسببهم اذن انما أشرب شيئاً من الشاى يا فارنكا ، حفاظا على المظهر ، ولولا ذلك مافعلت، لأننى لاأحرص على الشاى نفسه حرصا شديدا . لست من شاربيه المولعين به . هناك عدا هذا بعض النفقات النثرية ، لابد من بعض النفقات النثرية، لا بد من بعض النفقات رغم كل شيء ... وثمة نفقات أخرى لا منــاص منها لحذاء أنتعله ومعطف أتدثر به . فماذا يبقى بعد ذلك ؟ هذا راتبى كله قد طار سريعا . لست أشكو ولا أتذمر . فأنا سعيد ، وراتبى كاف. ثم اننى أتقاضى بعض المكافآت من حين الى حين . والآن ، وداعا ياملاكى العزيز . لقد اشتريت لك أصيص عصيفرة ، وغرنوقاً ليس باهظ الثمن. أتراك تحبين زهرة البليحـــاء أيضـــا ؟ يوجد بليحاء فى مخزن أصص الأزهار . فاكتبى الى اذا أردت أن أشترى لك منهــا . واذكرى لى فى رسالتك كل شيء تفصيلا . بالمناسبة ، أحب أن أرجوك أن لاتقلقى على ، فتظنى الظنون ياماتوشكا، لاتحملى سكناى فى حجرة كهذه على غير محمله لا .. لا .. اننى، لم أفعل ذلك الا نشدانا للراحة . الراحة وحدها هى التى أغرتنى . ذلك أننى أدخر بعض المال ياماتوشكا : اعرفى هذا . اننى أملك الآن بعض المال على سبيل الاحتياط . لا تخطئى فى التقدير فتظنى

انني مسكين بائس يمكن أن تقلبه بعوضة بلطمة من جناحها • لا ياماتوشكا، لست بالرجل التافه الذى لا قيمة له ••• ان لى ارادة تليق برجل صلب العزيمة رابط الجأش هادىء النفس • وداعا يا ملاكى الصغير • كتبت لك هذه المرة صفحتين كاملتين ، وقد آن أن أمضى الى عملى • أقبل أناملك الرقيقة الجميلة العزيزة ، وأظل ياماتوشكا ، خادمك الذليل الأمين :

ماكار دييفوشكين

حاشية : أتوسل اليك خاصة يا ملاكى الطيب أن تردى على رسائلى ماضـــية فى سرد التفاصـــيل الى أبعد حد ممكن • وأبعث اليك مع هذه الرسالة برطل من المربب هنيئا مريئا ، لا تقلقى على ، ناشدتك الله ، ولا تغضبى • والآن وداعا يا ماتوشكا •

٨ نيسان (ابريل)

عزيزى السيد ماكار ألكسييفتش

هل تعلم أننا قد ننتهى الى التخاصم والتشاجر ؟ أقسم لك يا عزيزى الطيب ماكار ألكسييفتش ، انه يشق على نفسى أن أقبـــل هداياك • أنا أعرف كم تكلفك هذه الهدايا ، وأعلم مدى التضحيات التى تقدمهـا فى سبيلى حارما نفسك من أشياء لا غنى عنها • سبق أن قلت لك مرارا اننى فى غير حاجة الى شىء ، فى غير حاجة الى شىء البتة ، واننى غير قادرة على أن أرد اليك احسانا باحسان ، وأن أقابل جميلك المنهمر علىّ انهمار المطر بجميل مثله • ما عسانى صانعة بجميع أصص الزهر هذه ؟ هبنى ارتضيت العصيفرات الصغيرة ، فلماذا الغرنوق أيضا ؟ أيكفى أن تفلت منى كلمة

واحدة ، كما حدث في أمر هذه الزهرة ، حتى تسارع الى شراء ما جاء ذكره على لسانى سهوا وغفلة ؟ لا شك انها كلفتك نفقة باهظة • ولكن ما اروع هذه الازهار بشكلها المتصالب ولونها الاحمر • ومن أين حصلت على هذا الغرنوق الاخاذ الفتان ؟ لقد وضعت الاصيص وسط النافذة في أبرز مكان، ووضعت على أرض الغرفة مقعدا سأصف عليه أزهارا أخرى: انتظر أن أصبح غنية أنا أيضا • ان فيدورا فى ذروة السعادة• لكأن غرفتنا أصبحت جنة حقا •• كل شيء فيها مضيء نظيف • ولكن لماذا بعثت الى بالمربب ايضا ؟ ولقد أدركت منذ قرات الاسطر الاولى من رسالتك أن هناك اشياء لا يجرى على مايرام • انك تتكلم عن الربيع والاشذاءوالطيور التى تغرد • لم يبق الا أن ينظم أشعارا ، هذا ما قلته لنفسى وأنا أقرأ رسالتك • اسمع ياماكار ألكسيفتش : اما عن العواطف الرقيقه والاحلام الورديه فهى متوفرة فى رسالتك ، وأما عن ستارة نافذتى فانني لم يخطر ببالى قط أن أشدها ، ولا شك أنها علقت مصادفة حين كنت أزحزح اصيص الازهار • أقول هذا من باب ذكر الواقع •

آه يا ماكار ألكسيفتش ، مهما تقل من كلام ، ومهما تكن طريقتك فى اجراء حسابات مواردك من أجل أن تبرهن لى زورا على انك تستعملها فى قضاء حاجاتك أنت ، فلن تصل الى اخفاء الحقيقة عنى • انه لواضح كل الوضوح انك تحرم نفسك من الاشياء الضرورية فى سبيلى • لماذا تقيم فى مسكن كهذا المسكن مثلا ؟ انك لا تترك فى هذا المنزل هادئا مرتاحا ، بل تزعج فى كل لحظة •

لا شك فى أنك متضايق ، ولا شك فى أنك لا تتمتع بشيء من أسباب الراحة • أنت تحب العزلة ، وها أنت ذا فى خان يعج بالناس • كان فى وسعك أن تعيش فى ظروف أفضل كثيرا من هذه الظروف ، بالقياس الى راتبك • ان فيدورا تؤكد أن مسكنك السابق أفضل من

مسكنك هذا كثيرا ، وأن الثانى لا يقارن بالاول على أية حال • هل يمكنك حقا أن تكون قد قضيت حياتك كلها على هذه الصورة ، فى العزلة والحرمان ، بلا فرح يشرق فى قلبك ، بلا كلمة رقيقة من صديق ، دائما بين غرباء ، فى غرفه مؤثثة ؟ لشد ما أرثى لحالك يا صديقى الطيب، هلا راعيت صحتك على الأقل يا ماكار ألكسييفتش ! تقول ان بصرك يضعف : عليك اذن أن تتجنب الكتابة على ضوء الشموع • وفيم الكتابة أصلا ؟ لا شك أن رؤساءك قد أصبحوا يعرفونك ويعرفون حماستك لعملك ونشاطك فى أداء واجبك •

أضرع اليك مرة أخرى : لا تنفق فى سبيلى كل هذا الذى تنفقه• أنا أعرف أنك تحبنى كثيرا ، ولكنك لست غنيا ••• لقد استيقظت أنا أيضا مشرقة المزاج فى هذا الصباح • فكنت أشعر بأننى قوية الجسم سعيدة النفس • وحين استيقظت كانت فيدورا قد بدأت تعمل منذ مدة طويلة • وقد جاءت بشغل لى أنا أيضا ، فخرجت أشترى حريرا ، ثم شرعت أعمل على الفور • ولبثت الصباح كله أشعر بالغبطة والبهجة • ولكن ها هى ذى الخواطر السود الحزينة تعود فتستبد برأسى وتهصر قلبى •

ما عسى يقع لى يا رب ؟ ما عسى أن يكون مصيرى ؟ انه لأمر قاس على نفسى أن أجدنى حائرة هذه الحيرة ، قلقة هذا القلق ، لا أرى أمامى مستقبلا ، ولا أستطيع أن أتخيل ، ولو من بعيد ، ما قد يحدث لى بعد • أما النظر الى خلف ، فلا شجاعة لى عليه • ما من شىء فى هذا الماضى الا آلام مبرحة وعذاب شديد • ان قلبى ليتمزق تمزقا متى تذكرت • ان عينى لا تملك من الدموع ما يكفى للبكاء الى آخر أيام حياتى مما نالنى به الأشرار من أذى ، وما ألحقوه بى من ضر •

المساء يهبط . يجب أن أستأنف شغلي . كنت أود لو أقول لك أشياء أخرى كثيرة . ولكن وقتي لا يتسع ، لأن على أن أسلم الشغل في تاريخ محدد ، فلا بد من الاسراع فيه . صحيح أن الرسائل شيء رائع ، وانها تحسن الى وتسرى عنى . ولكن لماذا لا تجيء الى بنفسك زائرا ؟ لماذا لا تجيء يا ماكار ألكسييفتش ؟ ان مسكنك قريب جدا الآن ، وانه ليتفق لك أن تملك لحظات من فراغ . فأرجوك أن تجيء . لقد رأيت صاحبتك تيريز . أعتقد أنها مريضة جدا . أشفقت عليها ورق قلبي لها فأعطيتها عشرين كوبكا . ها ... نعم ... نسيت : يجب قطعا أن تكتب الىّ واصفا لى حياتك ذاكرا كل ما تستطيع ذكره من تفاصيل . من هم الناس الذين يحيطون بك ؟ هل أنت على وفاق معهم ؟ أحب أن أعرف شيئا عن كل هذا . سوف أرفع زاوية الستارة عامدة متعمدة في هذا اليوم . ثم انى أرجوك ألا تتأخر في النوم . أمس رأيت ضوءا في غرفتك حتى منتصف الليل . وداعا الآن . ان كل شيء يبدو لى اليوم حزينا عابسا داعيا الى الشجن باعثا على اليأس . وداعا .

المخلصة لك
فرفارا دوبروزيولوفا

٨ نيسان (ابريل)

سيدتي العزيزة فرفارا ألكسييفنا

حق ما قلته يا ماتوشكا ، يا صديقتى العزيزة، حق ما قلته وا أسفاه: لقد كان يوما مشئوما أضيف الى أيام حياتي الشقية ومصيري البائس . نعم ... لقد سخرت منى سخرا جميلا يا فرفارا ألكسييفنا ، سخرت منى ، أنا العجوز المسكين . هي غلطتي على كل حال ، وانى لأستحق أن

ألام . ما حاجتى ، وأنا فى هذه السن وليس على راسى من الشعر الا خصله ، ما حاجتى الى الاندفاع فى غراميات واشكالات ... يجب ان نعرف يا ماتوشكا أن الانسان كائن غريب عجيب فى بعض الساعات ، غريب جدا ، عجيب جدا . رباه رباه ، أى شيطان يدفع الانسان الى الكلام أحيانا ؟ وما جدوى هذا الكلام ؟ لا يخرج من هذا الكلام شىء ، لا يخرج منه شىء البتة ، ولا يؤدى الا الى مواقف سخيفة ، حمانا الله منها ووقانا شرها . لا ياماتوشكا ، لست غاضبا ، ولكننى أشعر بغضاضة حين اتذكر ما كتبته لك ، وأحس بالخجل من اندفاعى فى التعبير على ذلك النحو الغبى بذلك الأسلوب المصور . لقد مضيت الى عملى فى هذا الصباح ممتلئا بحماسه خاصة . كنت قد عنيت بزينتى وهندامى ، وكان كل شىء فى نفسى مشرقا . كانت نفسى فيما يشبه العيد بهجة وحبورا ، دون ما داعى الى ذلك . كنت فرحا . وأخرجت أضابيرى بهمة ونشاط . فماذا أعقب ذلك كله ؟ لا شىء . ألقيت نظرة حولى ، فرأيت كل شىء فى هذا المكتب كالحا حزينا على عهدى به . بقع الحبر نفسها ، الأدراج نفسها ، القراطيس نفسها . وأنا أيضا ما تغيرت ، ما زلت كما كنت ، فمالى وما للشعر اذن ؟ من أين طلع لى هذا الكلام ؟ ألأن الشمس كانت أكثر دفئا ، ولأن السماء كانت أسطع ضياء ؟ أيكون هـذا هو السبب ؟ وكيف أمكننى أن أتكلم عن الأشذاء والهواء المعطر ، والله يعلم كم كان فى فناء المنزل من قاذورات ، تحت نوافذ شقتنا تماما . لقد توهمت اذن أننى أتنشق تلك العطور من جنون أصابنى فى تلك اللحظة . أوهام ، انه ليتفق للمرء أن يخطىء تقدير ما يشعر به هو نفسه ، وأن يسترسل فى ترهات سخيفة . والذنب فى ذلك كله انما هو ذنب هذا الطيش فى قلبنا المندفع . وعدت الى منزلى ، بل قولى : جررت نفسى جرا حتى بلغت منزلى . كان فى رأسى صداع شديد أصابنى فجأة من غير سبب .

هي القصة نفسها (لاشك أن هواء باردا لفح ظهري) • كنت قد ابتهجت بالربيع ، فلم أرتد ملابس دافئة • ألا ما أغباني ، ولكنك قد أخطأت تقدير حقيقة عواطفي قليلا ، يا صديقتي العزيزة ، فالحق أن اندفاع قلبي كان له اتجاه آخر غير ما تصورت انت له من اتجاه • ان عاطفة أبوية هي التي كانت تهزني ، يا فرفارا ألكسييفنا ، عاطفة أبوية محضة ، ولا شيء غير ذلك • انني الآن بمثابة أب لك أيتها اليتيمة البائسة ! أكلمك هنا بصراحة كاملة ومودة خالصة ، كما يفعل انسان يمت اليك بقربي وثيقه • ثم انني أمت اليك ببعض القربى : هي قربى بعيدة جدا ، أعلم ذلك ، قربى تشبه الغليه السابعة للشاي ، على ما يقول المثل الروسي • لكنني قريبك مع ذلك ، وأنا أعد نفسي في هذه الساعة قريبك وحاميك الأقرب ، ما دمت لم تعرفي الا الخيانة والغدر لدى من كان يجب أن يقدموا لك العون والحماية فيما أنت فيه من شقاء • أما عن الأشعار فيجب أن أقول لك يا ماتوشكا انه من غير الحشمة في مثل سني أن ينظم المرء شعرا •• ما الشعر الا هذر ولغو • وفي أيامنا هذه يجلد الصبيان في المدرسة اذا هم تعاطوه •• ذلك •• فيما يتعلق بهذه النقطة يا ماتوشكا •

ولماذا تحدثينني يا فرفارا ألكسييفنا عن راحة مسكني وهدوء حياتي وعن أشياء أخرى من هذا القبيل ؟ لست بالانسان الكثير المطالب ياماتوشكا ، ولم تكن ظروف حياتي في ماضيات أيامي خيرا منها الآن•ففيم تكون لي مطامع ومطامح وقد بلغت هذه السن ؟ انني أطعم اذا جعت ، وأملك ما أشتري به كساء وحذاء • فماذا يريد أمثالنا فوق ذلك ؟ اننا لم نولد أبناء كونت • لم يكن أبي من طبقة النبلاء ، ولقد عاش مع أسرته كلها حياة أفقر من حياتي ، لأنه لم يكن يكسب ما أكسب • لست بالولد الذي أفسده الدلال • ومع ذلك ، ومن أجل أن أذكر لك الحقيقة كاملة ،

أعترف أن كل شيء في مسكنى القديم كان خيرا من كل شيء فى مسكنى الآن ، ولا وجه للمقارنة بين الاثنين . كنت أشعر هناك بحرية لا أشعر بمثلها هنا . صحيح أن مسكنى الحالى ليس سيئا هو أيضا ، وربما كان يوجد من البهجة هنا ما لم يكن يوجد منها هناك ، ان ها هنا سيئا من التنوع فى أقل تقدير . فلست أتذمر اذن من المسكن الجديد ، ولكنى أشعر بشيء من الأسف والحسرة على القديم . اننا ، معشر الشيوخ او الدين طعنوا فى السن قليلا ، نتعلق بالأشياء القديمة تعلقنا بأصدقاء قريبين كل القرب . لقد كانت الشقة الأولى ضيقة ، كما تعلمين ، وكانت جدرانها ـ ما فائدة الكلام على هذا ؟ ـ شبيهة بسائر الجدران .. ليس هذا ما أعنيه .. ولكن ذكرى الماضى تملأ نفسى حنينا وتبعث فى قلبى حزنا وكآبة .. ألا ما أغرب هذا الأمر : ان قلبى منقبض ، ومع ذلك تبدو لى هذه الذكريات ممتعة . حتى ما كان يسوؤنى أيامئذ من عيوب تلك الحياة الماضية بل وما كان يحنقنى ويثير غيظى من تلك العيوب فى بعض الأحيان، يبدو فى الذكرى مبرأ من جوانبه المظلمة وينبجس فى خيالى صورة مغرية جذابة . لقد عشنا هناك حياة هادئة ساكنة يا فارنكا ، أنا وصاحبة الدار ، تلك العجوز الشهمة الطيبة التى توفيت . هأنذا أعود فأشعر بالحزن حين أتذكر تلك العجوز . كانت امرأة ذات نخوة ، ولم تكن تتقاضى منى أجرا باهظا . كانت لا تنى تحيك أغطية بابر طويلة ، وتضمها بعضها الى بعض قطعة قطعة . كان ذلك شغلها الوحيد . وقد اشتركنا فى نفقات التدفئة ، فكان فى وسعنا أن نعمل على منضدة واحدة . وكانت حفيدتها ماشا تعيش الى جانبها : لقد عرفتها طفلة ، ويجب أن تكون الآن فى الثانية عشرة من عمرها . كانت صبية « عفريتة » لا تنقطع لحظة عن المرح ، وكانت تسلينا كثيرا . هكذا كنا نعيش نحن الثلاثة . وماأكثر ما كنا نتحلق حول المائدة المدورة فى ليالى الشتاء الطويلة نشرب الشاى

ثم تستأنف العمل . وكان يتفق للعجوز أن تتوقف عن الحياكة أحيانا ، فتاخذ تقص على « العفريتة » بعض الحكايات لتضمن بقاءها هادئة ساكنه. ما كان أجمل الحكايات التي تعرفها ! ان رجلا ناضجا عاقلا يستطيع أن يصغى اليها بلذة لاتقل عن لذة الطفل . نعم ... كان يتفق لى أن أشعل غليونى وأن أصيخ بسمعى الى هذه الأقاصيص حتى لينسينى ذلك عملى . أما الصغيرة ، عفريتتها اللطيفة ، فتصبح ساهمة شاردة اللب ، وقد أسندت حدها المتورد على ذراعها الدقيقة ، وفتحت فمها الصغير الجميل ، حتى اذا أخافتها القصه قليلا شدت جسمها الى جسم العجوز شدا قويا . ما كان أعظم متعتنا بالنظر اليهــا ! وكنا من فرط استغراقنا فى بعض الأحيان لا نلاحظ أن الشمعة توشك أن تضمحل ، ولا نسمع هبات الريح فى فناء الدار ولا اعصار الثلوج . كانت حياتنا ممتعة هنالك ، نحن الثــلاثه ، يا فارنكا . قضــينا معا قرابة عشرين عاما . ولكن هــأنذا أثرثر خارج الموضوع .. لعل هذه الأمور لاتهمك . ثم ان هذه الذكريات تثيرأشجانى وتجعلنى حزين النفس ، لا سيما فى هذه اللحظة ، ساعة الغسق .. ان تيريز تذهب وتجيء ، والصداع يحطم رأسى ، وفى ظهرى آلام أيضا . يضاف الى ذلك أن الخواطر التى تغزو فكرى غريبــة شاذة ، وكأنهــا مريضه هى أيضا . أنا اليوم حــزين يا فارنكا .. فى رسالتك نقطــة تدهشنى يا صديقتى العزيزة . كيف تستطيعين أن تطلبى منى أن أجيئك زائرا ؟ ما عسى يقول الناس ، يا ملاكى الصغير ؟ هل فكرت فى هــذا ؟ سيكون علىّ أن أجتاز الفناء من أجل أن آتى اليك ، فيلاحظ جيراننا ذلك، ويأخذون يطرحون الاسئلة تلو الاسئلة ، فيؤدى هذا الى ثرثرات ثم الى نمائم واشاعات ، لأنهم سيسيئون تأويل العلاقات التى بيننا.. لا ، لا ياملاكى الصغيرة ، الأفضل أن أراك غدا فى الكنيسة عند الصــلاة فى الغروب . ذلك أقرب الى العقل والحــكمة ، وأبعـــد عن المخاطر لنا كلينا ... لا

تؤاخذيني، ياماتوشكا ، على هذه الرسالة المضطربة المشوشة . لقد أدركت حين أعدت قراءتها انني خبطت فيها خبط عشواء . ما أنا ، يا فارنكا ، الا رجل عجوز بلا ثقافة ! لم يتح لي أن أحصل في صغري قسطا كافيا من العلم ، وما في مثل سني يستطيع المرء أن يثقف نفسه : ففي هذه السن لا تدخل الأشياء رأس الانسان بسهولة . أنا أعلم يا ماتوشكا أنني غير حاذق في فن الكتابة ، ولست أجهل ، دون أن ينبهني أحد الى ذلك ساخرا مستهزئا ، أنني لا أزيد على أن أراكم السخافات فوق السخافات حين أنقطع لكتابة عبارات أرفع قليلا ... رأيتك اليوم في النافذة ، رأيت كنت أسدلت الستارة . وداعا وداعا . أسأل الله أن يكلأك برعايته ، وداعا يا فرفارا ألكسيفنا .

صديقك المخلص
ماكار ديفوشكين

حاشية : لست أهجو أحدا يا صديقتي العزيزة . أنا رجل عجوز يا ماتوشكا ، يا فرفارا ألكسيفنا ... وهل لعجوز أن يتسلى بأن يكون شريرا بغير داع ولا سبب ! ثم انني لو فعلت لسخر الناس مني ، على حد قول المثل الروسي القديم « من حفر حفرة لغيره وقع فيها .. » .

عزيزي السيد ماكار ألكسييفتش

كيف لا تستحي يا ماكار ألكسييفتش ، يا صديقي الطيب ، يا من تحسن الي وتنعم علي ، كيف لا تستحي أن تغضب هذا الغضب كله وأن تستاء هذا الاستياء كله دون ما سبب ؟ هل صحيح أنني جرحت شعورك ؟ واأسفاه ، انه ليتفق لي أن أكون طائشة قصيرة النظر ، قليلة التروي ، ولكن لم يخطر ببالي أبدا أنك ستحمل أقوالي محمل الغمز والسخر .

ثق اننى لن أسمح لنفسى يوما بان أمزح فى امر سنك وطبعك • ان مرد هذا كله الى خفتى وطيشى ، ولا سيما الى الضجر الرهيب الذى أشعر به ، الى السأمة المضنيه التى تاخذ بخناقى ••• وانت تعلم الى اين يمكن ان يدفع بالمرء ضجره وسامه • وكنت قد قدرت ، من جهتى ، انك انت ايضا كنت تمزح فى رسالتك • ولكننى حزنت حزنا شديدا بعد ذلك ، حين أدركت أنك استأت منى • لا يا صديقى الطيب ، يا من تحسن الى وتنعم على ، انك تخطىء اذا ظننتنى عديمه الاحساس عاقه قليلة الوفاء • اننى فى اعمـــاق قلبى أعرف كيف أقدر كل ما فعلته من أجلى ، حـين حميتنى من الاشرار ، حين نجيتنى من اضطهادهم ومن بغضهم وكرههم • لسوف أظل أدعو لك الله ما حييت ، فاذا وصل دعائى الى السماء واستجاب الله له ، عشت سعيدا •

أشعر اليوم بأننى مريضة جدا • ان بى حمى تتخللها قشعريرات • فيدورا قلقة علىّ أشد القلق • تخطىء اذا تحرجت من زيارتنا • هذا أمر لا شأن لأحد من الناس به • أنت صديق لنا وكفى ••• وداعا يا ماكار ألكسيفتش • ليس عندى ما أقوله الآن غير هذا ، ولا أستطيع الآن أن أكتب أكثر مما كتبت ، لأننى مريضة متعبة جدا • أرجوك مرة أخرى أن لا تؤاخذنى ، وأن تثق كل الثقة بالاحترام الذى ستشرف بالشعور به نحوك دائما خادمتك الوفية المخلصة :

فرفارا دبروزيولوفا

١٢ نيسان (ابريل).

ماذا جرى لك يا ماتوشكا ؟ انك تسببين لى قلقا لا يهدأ ولا ينقطع ، اننى أضرع اليك فى كل رســالة من رسائلى أن تعتنى بنفسك ، وأن

تتدثرى بملابس دافئة وآلا تخرجى فى غير أيام الصحو وأن تكونى محاذرة فى كل أمر من الأمور ، ولكنك لاتريدين أن تطيعينى يا ملاكى الطيب ، حقا انك لطفلة يا حمامتي الصغيرة • ان جسمك ضعيف واهن ، انك أشبه بعصافة قش ، أعلم ذلك ، يكفى أن تهب عليك نسمه هـواء حتى تمـرضى • لذلك يجب أن تدارى نفسـك ، وأن تراعى صحتك ، وأن لا تتعرضى للخطر ، وأن لا توقعى أصـدقاءك فى الحـزن والشجن والالم • تقولين لى يا ماتوشكا انك ترغبين فى معرفة مجرى حياتي معرفة دقيقة صحيحة ، وفى معرفة كل ما يحيط بي • انه ليسعدنى أن أسارع الى تلبيه رغبتك يا صديقتى العزيزة • وسأبدأ بالبداية ، اذ لا بد من شيء من الترتيب • هذا مدخل المنزل أولا : انه ملائم جدا ، والسلالم لا مأخذ عليها ، ولا سيما السلم الخاص بالسادة ، فهو نيّر واسع عريض ، لا يقع بصرك فيه الا على معدن وخشب من شجر الاكاجو • أما سلم الخـدمة فمن الخير ألا أقول عنـه شيئا : انه لولبى ، وهو الى ذلك رطب قذر ، ودرجاته مهشمة نصف تهشيم • يضاف الى هذا أن جدرانه تبـلغ من انطلائها بالدهن أن اليـد تلتصق بها اذا هى اسـتندت عليها • وعلى كل فسحة من فسحاته بقايا أثاث قديم ، فالحقائب والكراسى والخزائن مبعثرة فوضى ، والخرق البالية منثورة هنا وهناك ، وزجاج النوافذ محطم ، وفى الأركان صناديق ملأى أوساخا ونفايات وقشور بيض وأحشاء سـمك • رائحة كريهة • الخلاصة : شيء ليس بالجميل جدا •

وقد سبق أن وصفت لك وضع الغرفة • لا مأخذ على الغرفة • انها مريحة جدا والحق يقال • ولكن المرء يشعر فيها بشيء من الاختناق • كيف أصف لك ذلك ؟ ليس معنى هذا ان الرائحة كريهة • غير أن المرء يحس بشيء من عفونة ، بشيء من نتن حاد • فيضيق ذرعا بهذا الاحساس فى أول الأمر • ولكن هذا الاحساس ما يلبث أن يزول بعد بضع دقائق

من المكوث في المنزل ، دون أن يشعر المرء بزواله • ذلك أن الرائحة التي أحدثك عنها سرعان ما تنفذ الى الشخص نفسه • فاذا رائحته كلها هي هذه الرائحة نفسها ، فملابسه ، ويداه تصبح لها هذه الرائحة ذاتها، فلا يلاحظها بعد ذلك لأنه يألفها • البلابل تموت في منزلنا واحدا بعد آخر • اشترى الضابط البحار بلبلا خامسا منذ قليل • ولكن هذه الطيور لا تستطيع أن تعيش في هواء منزلنا • في الصباح تمتلىء الدار بالدخان طبعا ، وذلك حين يقلى اللحم أو يطبخ السمك • ثم ان أرض المنزل مبلله في مواضع كثيرة ، بالماء تارة ، وبالمرق تارة أخرى • أما في المساء فمنزلنا جنة حقا • وهناك حبل في المطبخ يعلق عليه غسيل عتيق • ولما كانت غرفتي غير بعيدة عن المطبخ ، او مجاورة للمطبخ ، فان رائحه هذا الغسيل تضايقني أحيانا • ولكن ذلك كله لا قيمة له • فان امرء يعتاده بمضى الزمن شيئا فشيئا •

ومنذ الساعات الأولى من الصباح يقوم المنزل ويقعد يافارنكاه الناس ينهضون ويسيرون ويحدثون ضجة كبيرة • جميع الذين يجب أن يذهبوا الى العمل يسرعون • والاخرون يستيقظون ايضا • وهم يشربون الشاى جميعا في هذه اللحظة • وأباريق الشاى (السماور) تملك صاحبة البيت أكثرها ، ولما كان عددها قليلا ، فنحن نحتسى الشاى واحدا بعد آخر • فاذا تقدم أحدهم بفنجانه قبل أن يجيء دوره تلقى لطمات تلو لطمات • وهذا ما حدث لى في اليوم الأول ، لأنني لم أراع هذا النظام فيما يظهر ••• ولكن فيم الكلام على هذا الآن ؟ لقد تعرفت على جميع جيراني ، عقدت حديثا في أول الأمر مع الضابط البحار • انه انسان صريح جدا حكى لى قصة حياته ، حدثني عن أبيه ، عن أمه ، عن أخته التى تزوجت قاضيا من تولا ، ووصف لى مدينة كرونشتاد . وعد بمساعدتي وحمايتي في كل أمر ، ودعاني الى تناول الشاى في غرفته • ذهبت اليه • انهد

الغرفة التي اتخذت مقرا للعب بالورق في منزلنا . قدموا الىَّ شيئا من الشاى ، وأرادوا أن يدفعوني الى مشاركتهم في اللعب دفعا . لا أدرى هل كانوا يسخرون مني آنذاك . ولقد ظلوا يلعبون طوال الليل بغير توقف . كان اللعب في أوج اشتداده حين دخلت الغرفة : فما رأيت في أول الأمر الا الطباشير وورق اللعب ، لأن الغرفة كانت ملأى بدخان السجائر ، حتى لقد أحسست من ذلك بألم في عيني . وحين رفضت أن أشاركهم اللعب وصفوني بأنني أتفلسف ، ثم لم يخاطبني أحد منهم بعد ذلك بكلمة واحدة ، والحق أن ذلك لم يسوءني . لن أذهب اليهم في المستقبل . هؤلاء أناس مقامرون لا يخطر ببالهم شيء غير القمار ، ولا يفكرون في شيء غير هذا اللعب الذى يقوم على المصادفة . وفي غرفة الموظف في الادارة الأدبية تنعقد اجتماعات في المساء أيضا ، ولكن كل شيء هنالك طيب محتشم برىء يفيض رهافة وذوقا وسموا .

يجب أن أذكر مع ذلك عابرا يا فارنكا ، أن صاحبة البيت امرأة شريرة بل ساحرة شمطاء . لقد رأيت تيريز . ان منظرها يثير الرحمة ويبعث على الشفقة حقا : انها من فرط هزالها تشبه أن تكون دجاجة مصدورة نتف ريشها . وفي البيت خادمان فقط : تيريز ، وفالدوني خادم صاحبة البيت . وربما كان له اسم آخر ، لكنني لا أعرفه ، لأنه ينادى بهذا الاسم دائما . جميع من في المنزل ينادونه بهذا الاسم . انه أحمر اللون ، عجيب الجسم ، معقوف القامة ، أفطس الأنف ، شرس الطبع ، فظ الخلق ، لا ينى يتشاتم مع تيريز ، حتى ليصل الأمر بهما الى حد التماسك بالأيدى . بوجه عام ، لا أستطيع أن أقول ان حياتي هنا ممتعة من جميع النواحي ... أما عن الليل ، فلا يتفق لى أبدا أن أستطيع النوم فورا في هدوء وراحة . لا يخلو المنزل لحظة من ضجة تقوم هنا أو هناك ، فتارة يأتي الصخب من غرفة المقامرين ، وتارة ينبعث من أمور

اخرى تجرى هنا ويستحى المرء ان يرويها • لقد تعودت بعض العود- الان ، ولكن يدهشنى حقا ان يستطيع اناس لهم اولاد ان يعيشوا فى هذا المكان الذى يشبه مدينة سودوم • ان هناك أسرة بكاملها من البؤساء قد استأجرت غرفة من صاحبة الدار • غير أن غرفتهم لا تقع الى جانب الغرف الأخرى • فهى فى آخر الدهليز ، فى ركن يشبه أن يكون منعزلا • انهم أناس هادئون كل الهدوء ، لا يسمع لهم صوت قط • يعيشون جميعا فى غرفة واحدة شطروها بحاجز شطرين • يبدو أن الآب موظف بلا عمل ، صرف من الخدمة لسبب أجهله • اسمه جورشكوف • انه قصير القامة ، أشيب الشعر ، يرتدى ملابس تبلغ من القدارة والبلى ان منظرها يؤلم النفس • ملابسه خلقة بالية أكثر من ملابسى ، ان هيئته الرثة تبعث على الشفقة ، وتدل على انه مريض (يتفق لى أن أصادفه فى الدهليز) • ركبتاه تصطكان ، ويداه ترتعشان ، ورأسه يرتجف ، كأن به مرضا خاصا • الله أعلم • وهو خجول شديد الخجل ، يخشى لقاء الناس ، ويمشى محاذرا لا يجب أن يلمحه أحد • أنا أيضا خجول ، ولكن هذا الرجل أشد خجلا منى • تتألف أسرته من امرأة وثلاثه أولاد • أكبرهم صبى هو صورة أبيه ، لا يفل عنه نحولا وهزالا • أما المرأة فيبدو أنها كانت فى الماضى على جانب من جمال ما يزال يلمح الى الآن ، ولكنها رثة الباب رثاثة تثير الشفقة • وقد قيل لى انهم اقترضوا مالا من صاحبة البيت ، وهى قاسية عليهم غير لطيفه فى معاملتهم • وسمعت أيضا أن جورشكوف يعانى من مصاعب هى سبب بطالته • الأمر أمر دعوى أو ملاحقة قضائية ، بل هو أمر تحقيق ادارى فيما يبدو • غرفتهم هادئة دائما ، تبلغ من الهدوء أن المرء لا يخطر بباله أن يكون فيها سكان • حتى الأطفال لا يحدثون صخبا ، فما يسمعهم أحد يصرخون أو يركضون ، وتلك علامة سيئة • لقد اتفق أن مررت

أمام بابهم ذات مساء . كان ذلك فى لحظة هدأ فيها المنزل على غير عادته. فسمعت تأوهات كأنها نشيج مخنوق ، ثم سمعت همسات ، فنشيجا من جديد . كان هناك أحد يبكى ولكن بصوت خافت مزق قلبى أسى وشفقة وقبض صدرى شجى وحزنا ، ثم لم تفارق صورة هؤلاء البؤساء خيالى لحظة طول الليل ، ولم أستطع أن أنام الا بعد لأى .

الوداع يا صديقتى الغالية . يا صغيرتى فارنكا . لقد وصفت لك حياتى كما استطعت . اننى لم أزد على أن أفكر فيك طوال النهار . قلبى يتحطم يا عزيزتى الغالية حين استعرض الوضع الذى انت فيه . انك تفتقرين حتى الى معطف تتدثرين به ، أنا أعرف ذلك يا حياتى . آه من ربيع بطرسبرج هذا ! .. آه من هذه الرياح وهذه الأمطار التى يخالطها ثلج ! ... تلك لعنه يا فارنكا . هذا جو لا يطاق . وقانا الله شر هذا المناخ الردىء . لا تؤاخذينى يا روحى ، يا صغيرتى ، اذا رأيت رسالتى مضطربة هذا الاضطراب . ان أسلوبى ركيك يا فارنكا ، ركيك جدا . ألا ليتنى أجيد الكتابة بعض الاجادة . اننى أقول ما أقول عفو الخاطر... لا هم لى من ذلك الا أن أسليك قليلا ... ولو كنت قد تعلمت فى صغرى اذن لاختلف الحال . ولكن أين كان فى وسعى أن أتعلم ؟ ... كنت أفقر من أن أستطيع الدراسة .

صديقك المخلص الوفى ، صديقك الى الأبد

ماكار ديفوشكين

٢٥ نيسان (ابريل)

عزيزى السيد ماكار الكسييفتش !

التقيت اليـوم بابنه عمي ساشا ، يا للهـول ! انها تدلف الى الذبول والهـلاك هى أيضا ؟ ولقد علمت كذلك من جهـات مختلفـة ان أنا فيودوروفنا ما تزال تسأل عنى وتستطلع أخبارى • ترى ألن تكف هذه المرأة عن تعذيبى واضطهادى ؟ هى تدعى أنهـا مستعدة أن تصـفح عنى وتغفر لى ، أن تنسى الماضى ، وأن تأتى تزورنى بنفسها • وهى تؤكد أنك لا تمت الىّ بأية قرابة ، وانها أقرب الىّ منـك ، وانك لا تملك حـق التدخل فى علاقاتنا العائلية ، وان من العار علىّ بل من المشـين لى أن أعيش على برّك واحسانك بقبولى معونتك المادية ••• انها تصفنى بأننى نسيت خيراتها علىّ ، ونسيت الخبز الذى طعمته فى بيتها ، وتقول انهـا أنقذتنا أنا وأمى يوم كنا نوشك أن نموت جـوعا ، وانها آوتنا وأطعمتنـا وأرهقت نفسها فى سبيلنا طوال عامين ونصف عام ، وانها فوق ذلك كله قد أعفتنا من سداد المال الذى ندين لها به • انها لا تراعى حتى حرمة أمى ! آه لو اسـتطاعت أمى المسـكينة أن تعـلم بكل ما صنعوه بى ••• وتدعى آنا فيدوروفنا أيضا اننى لم أعرف كيف أحافظ على سعادتى ، وان حماقتى هى السبب فى ذلك ، وانها أرادت أن تسعدنى ، ولكنها غير مذنبه فى ماحدث بعد ذلك ، لأننى لم أعـرف وربما لم أشـأ أن أحمى شرفى وأدافع عنه • من المذنب اذن يارب ؟ انها تؤكد أن بيكوف على حق تماما ، وأن الرجل لا يتزوج أول امرأة تعرض له • ولكن فيم أنقل اليك هذا الكلام ؟ انه ليشـق على نفس المرء أن يسـمع مثل هـذه الأقوال الظالمة يا ماكار ألكسييفتش • لا أدرى ماذا ينتـابنى الآن ، ان جسـمى كله يرتعش ، واننى أبكى وأنتحب • أنفقت ساعتين فى كتابة هذه الرسالة

لك • كنت أحسب ان هـذه المرأة سـتعترف على الأقل بمـا ارتكبته من أخطاء في حقي ، فانظر كيف تتصرف الآن ! ناشدتك الله لا تقلق ولا تعذب نفسك يا صديقي ، يا صديقي المخلص الوحيد • ان فيدورا تبالغ دائما : فما أنا بمريضة • كل ما في الأمر ان بردا أصابني أمس فسبب لي زكاما فيما كنت ذاهبة الى فولكوفو لحضور صلاة الموتى التي أقيمت احتفالا بذكرى أبي • لماذا لم تجيء معي ؟ ألم أتوسل اليك أن تجيء ؟ أماه ، أماه المسـكينة ، ليتك تسـتطيعين أن تخرجي من قبرك فتعـرفي وترى ما صنعوه بي •••

ف•د

٢٠ أيار (مايو)

حمامتي ، عزيزتي الصغيرة فارنكا !

أبعث اليك بقليل من العنب يا يمامتي • يقال ان أكل العنب مفيد أثناء النقاهة ، ثم ان الطبيب ينصح به ارواء للظمأ ، فكليـه ارواء للظمأ وحده ؛ ولقد اشتهيت منذ أيام قليلا من الخبز الصغير الأبيض • فهـأنذا أرسل اليك منه أيضا يا ماتوشكا • هل تشتهين الطعام يا حياتي ؟ هـذا هو الأمر الهام • على كل حال لقد انتهى المرض والحمد لله ، انقضى ، وستزول جميع آلامنا زوالا تاما • فلنشكر لله نعماءه ، أما عن الكتب فقد استحال عليَّ أن أحصّل شيئا منها حتى الآن • يقال ان في منزلنا كتابا رائعا كتب بأسلوب جميل • يزعمون انه كتاب شائق جدا • لم يتح لي أن أقرأه • ولكنهم يمدحونه كثيرا هنا • وقد وعدوني به • ولكن هـل ستقرئينه ؟ انني أعرفك يا ملاكي ، وأعرف انك صعبة في هذا المجال ، فليس يسهل الوصول الى ارضاء ذوقك دائمـا • لا شك انك تتشددين

شعرا وآهات وغزلا ... فليكن لك ما تريدين ... سأحصل لك على قصائد ، سأجد ما أنت فى حاجة اليه . لقد رأيت فى أحد الأماكن دفترا مليئا قصائد شعر . حياتى ممتعة جدا . لا تقلقى على يا ماتوشكا ، أرجوك. ان ما روته لك عنى فيدورا ليس الا هذرا . قولى لها انها كذبت ، قولى هذا الكلام حتما لهـذه النمامة ... لم يخطـر ببالى أبدا أن أبيع ردائى الجـديد ، وعـلام أبيعـه ؟ فكرى فى الأمر ، ماحاجتى الى بيعـه ؟ اننى سأتقاضى مكافأة قدرها أربعون روبلا فيما يقال . فعلام أبيع ردائى والحالة هذه ؟ لا تقلقى يا ماتوشـكا . فيدورا انسانة متشـائمة ، تحمل كل شيء محمل الفاجعة والمأساة . لسوف نعيش سعداء يا يمامتى . شريطة أن تبلى من مرضك . ناشدتك الله الا أبللت ... لا تحزنى رجلا عجوزا . من ذا الذى زعم لك أننى قد هزلت ونحلت ؟ باطل هذا الكلام ، باطل ، ان صحتى جيدة جدا ، حتى لقد سمنت ، وبلغت من السمنة ما يجعلنى أخجل من نفسى . اننى أطعم متى جعت ، وأنا مسرور مبتهج ، وعندى وفرة من كل شيء . المهم أن تبلى من مرضك يا ملاكى الصغير ! الوداع الآن ! أغمر بالقبل أناملك الصغيرة وأبقى الى الأبد :

صديقك الوفى ، صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

حاشية : ما هذا الذى كتبته لى يا حياتى ؟ ذلك طيش يا عزيزتى ؟ كيف تراك تفكرين فى الأمر ؟ كيف يمكننى أن أكثر زياراتى ياماتوشكا الى الحد الذى تتصورينه ؟ قد أستطيع زيارتك ليلا بحيث لا يرانى أحد. ولكن أين الليل فى هذا الفصل ؟ ثم اننى لم أكد أترك سريرك ، ياملاكى الطيب ، طوال مدة مرضك ، ولا سيما أثناء الغيبوبة التى كنت فيها . اننى

لا أدرى كيف استطعت أن أرتب أمورى بحيث وصلت الى ذلك. ولكننى آثرت أن أقطع زياراتى بعدئذ . لقد بدأ الناس يستطلعون ويلقون الأسئلة ، حتى لقد أخذت الألسنة تلوك بعض الاشاعات هنا . اننى أعتمد على تيريز ، فهى امرأة كتوم لا تفشى الأسرار . ولكننى أحتكم اليك أنت يا ماتوشكا ، ما عسى يحدث اذا عرفوا كل شىء عن علاقاتنا ؟ ماعساهم يظنون وما عساهم يقولون ؟ عليك بالصبر اذن يا ماتوشكا ، وتجملى بالشجاعة ، وانتظرى حتى تبلى من مرضك ، وبعد ذلك نرتب أمورنا بحيث نلتقى فى مكان خارج المنزل .

١ حزيران (يونيه).

عزيزى الغالى جدا ماكار الكسييفتش !

لرغبتى الشديدة فى أن أفعل شيئا يسرك ، جزاء ما تحملت فى سبيلى من عناء كثير ، وما عانيت من هم شديد ، وجزاء ما محضتنى من عاطفة صادقه ، فقد قررت أخيرا فى لحظة من فراغ أن أنبش دروج خزائنى لأعثر فيها على هذا الدفتر الذى أرسله اليك الآن ، والذى سجلت فيه بعض ذكرياتى . لقد بدأت كتابة هذه الذكريات فى عهد كان مايزال سعيدا من حياتى . لطالما سألتنى عن حياتى الماضية وعن أمى وعن بوكروفسكى ، وعن اقامتى فى منزل آنا فيدوروفنا ، وعما لقيت أخيرا من شقاء ، وقد بلغت من شدة شوقك الى قراءة هذا الدفتر الذى لايعرف الا الله كيف خطر ببالى ان أروى فيه قصة بعض ساعات حياتى ، انك

واجد فى قراءته ريا لظمئك ما فى ذلك ريب ؛ لذلك أبعث به اليك •
أما أنا فقد شعرت بحزن شديد حين أعدت قراءته • يخيل الى أن سنى قد تضاعفت مرتين منذ كتبت آخر سطر من سطوره الى الآن • ان المشاعر التى يتحدث عنها هذا الدفتر قد سجلت فى فترات مختلفة • وداعا ياماكار ألكسيفتش • اننى أشعر بسأم شديد وضجر رهيب ، وكثيرا ما أظل مسهدة طوال الليل لا يعرف جفنى سبيلا الى النـــوم • ألا انها لنقاهة حزينة شجية •

ب. د

١

لقد أتممت الرابعة عشرة من عمري حين مات ابي • كانت طفولتي أسعد فترات حياتي • لقد بدأت طفولتي في مكان بعيد عن هنا ، بعيد عن هذه المدينة • بدأت في مقاطعة نائية من الريف • كان أبي ناظرا على أملاك الأمير ب ، في حكومة ت • كنا نعيش في قرية من تلك القرى التي يملكها الأمير ، وكانت حياتنا في تلك القرية تجرى على هون هادئة سعيدة ••• كنت عندئذ صبية جمة النشاط كثيرة الحركة ، أقضي وقتي راكضة بين الحقول ، مطوّفة في الغابات والآجام ، أو متنزهه في الحديقة • ولم يكن أحديهتم بي أو يلتفت اليّ •• فأبي دائم الانصراف الى أعماله وأمي تستغرق عنايتها بالمنزل وقتها كله • ما كانوا يعلمونني شيئاً ، بل كانوا يدعونني وشأني حرة طليقة ، وكنت سعيدة بذلك كل السعادة • وكان يتفق لي في بعض الأحيان أن أهرب من البيت في ساعة مبكرة من الصباح فأمضي الى الغدير أو الى الغابة ، أو أذهب أرى الأعلاف ، أو أجرى الى الحصادين أختلط بهم وأشاركهم عملهم ، غير عابئة بالشمس التي تحرقني غير خائفة أن أضل طريقي اذا ابتعدت عن القرية ، أو أن

تخدشنى أشواك العوسج وأن تمزق ثوبى • ولهذا كانوا يؤنبوننى ويقرعوننى حين أعود الى البيت ، فلقد كنت لا أبالى ذلك ولا أحفل به •

يخيل الى أننى لو أتيح لى أن أبقى فى الريف طول حياتى وأن أعيش فى ذلك المكان عمرى كله لكنت سعيدة كل السعادة • ولكننى اضطررت أن أترك تلك المراتع الجميلة العزيزة على نفسى وأنا ما أزال طفلة • كنت فى الثانية عشرة من عمرى حين سافرنا الى بطرسبرج • ما أشد الحزن الذى أشعر به الآن حين أتذكر استعداداتنا الشاقه الاليمة للسفر ! ما أكثر ما ذرفت من دموع حين ودعت كل ما كان حبيبا الى قلبى ! أذكر اننى ارتميت على عنق أبى أضرع اليه والدموع تترقرق فى عينى ، أن يدعنى فى القرية بعض الوقت • فغضب منى أبى ، وأخذت أمى تبكى ، وقالت لى ان سفرنا أمر لا بد منه ، فأعمالنا توجبه وتقضيه ، فلا مناص من السفر • لقد مات الأمير العجوز ب ، ففسخ ورثته العقد الذى كان مبرما بينه وبين أبى • وكنا نملك شيئا من مال عهد به أبى الى بعض الأفراد فى سان بطرسبرج • ولما كان يأمل أن يحسن وضعه ، فقد رأى أن من اللازم أن يسافر الى تلك المدينة بنفسه • ذلك كله قد علمته من أمى • واستقر بنا المقام على الشاطىء الأيمن ، ولبثنا مقيمين هنالك الى أن مات أبى •

لشد ما لقيت من عناء حتى أتلاءم مع حياتنا الجديدة • وصلنا الى سان بطرسبرج فى أوج الخريف • كان الجو فى القرية يوم غادرناها رائعا ، فالهواء رائق ، والمناخ دافىء ، والشمس مضيئه • وكانت أعمال الحصاد تشارف على النهاية • فبيادر القمح تتجمع أكواما كبيرة ، وأسراب الطيور تحوم حولها مزقزقة • كان كل شىء يبدو مرحا فرحا ينبض سعادة • حتى اذا وصلنا سان بطرسبرج استقبلتنا الأمطار وصقيع الخريف والضباب والوحل وهذا الجمهور من الناس الذين لا نعرفهم يجرون فى

الشوارع عابسين مقطبين مزورين مستائين ، واستقررنا كيفما اتفق ... ما زلت أذكر كيف كنا فى الأيام الأولى نذهب ونجيء بغير توقف ولا انقطاع اذ كان علينا أن نهيىء مسكننا الجديد .

كان أبى فى خارج البيت دائما ، وكانت أمى لا تملك من وقتها دقيقة واحدة ، ونسيت أنا نسيانا تاما . ماأشد الحزن الذى اعترانى حين نهضت من نومى بعد الليلة الأولى التى قضيناها فى منزلنا الجديد ! ان نوافذ المنزل تطل على سياج أصفر اللون ، والشارع قذر دائما ، لا يمر به الا قليل من الناس ، وهم يرتدون جميعا ثيابا دافئة ، ويظهر فى وجوههم أنهم مقرورون .

وفى منزلنا يرين الضجر وتسود الكآبة من الصباح الى المساء . لم يكن لنا أصدقاء أو أقرباء . أما آنا فيدوروفنا فكان أبى تشاجر معها (كان يدين لها بمبلغ من المال) ، وكثيرا ما كان يجيئنا زوار لأعمال . فكان هؤلاء الزوار يحملون الى المنزل شجارا وصياحا وزعيقا . وكان أبى بعد كل حديث من الأحاديث التى تجرى بينه وبينهم يصبح مكفهر الوجه سريع الغضب ، ولا ينى يسير من أول الغرفة الى آخرها ذاهبا آيبا ساعات طوالا ، وقد قطب حاجبيه ، وصمت صمتا مطبقا لا يتجه الى أحد بكلمة . وكانت أمى لا تجرؤ أن تخاطبه فى مثل تلك اللحظات ، فهى تلزم الصمت ولا تنبس بحرف . وكنت أنا أجلس فى ركن مع كتاب من الكتب ، لا أتحرك مخافة أن ألفت الانتباه اذا أنا تحركت .

وبعد وصولنا سان بطرسبرج بثلاثة أشهر أدخلت مدرسة داخلية فما أشد ما شعرت به من حزن فى أول الأمر بين غرباء ! كان كل شيء يبدو لى هنالك باردا معاديا . فالمربيات لا يزدن على أن يصحن طول الوقت ، والبنات لا ينقطعن عن الاستهزاء بى والسخر منى ، وأنا بين هؤلاء وأولئك فى تلك الآونة متوحشة شديدة التوحش . انهن قساة عتاة،

يندفعن الى التوبيخ والتقريع لأتفه الأمور وأيسر الأسباب . وكل شيء يجرى هنالك على نظام دقيق ومواعيد ثابتة جامدة . والطعام مشترك والأساتذة مملون مضجرون . شعرت فى الأشهر الأولى بأننى مصعوقة كأننى أسحق سحقا . أصبحت لا أستطيع أن أنام . وكان يتفق لى أن أظل أبكى طوال الليل ... وكانت الليالى تنقضى طويلة كئيبة باردة . مازلت أرانى فى بعض الأماسى ، ساعة تحضّر التلميذات دروسهن للغد، جالسةً أمام دروسى لا أجرؤ أن أتحرك ، وقد انصرف ذهنى الى غير ذلك ، ورحت أفكر فى منزلى ، فى أبى ، فى امى ، فى مرضعتى العجوز، فى الحكايات الجميلة التى كانت تقصها على ... آه ما أشد الحزن الذى كان ينتابنى فى تلك اللحظات ! ان أيسر أمر من الأمور التى لها صلة بحياتى فى المنزل كان يبدو لى جميلا أخاذا حين أتذكره فجأة . كنت أحلم قائلة لنفسى : ما اجمل الحياة فى منزلنا الان ! ما أجمل أن أكون الآن مع أهلى فى الحجرة الصغيرة أمام السماور ! ما أجمل ان أقبل امى قبلات حارة وأن أشد جسمى اليها شدا قويا ! هكذا كنت أحلم ثم أطفق أبكى من الحنين بكاء صامتا ، فأخنق النشيج لا أدع له أن ينطلق من صدرى . ولم أكن أستطيع أن أحفظ دروسى .. « لن أستطيع الاجابة غدا اذا ألقى علىّ الاستاذ سؤالا » وكنت أظل أحلم طول الليل بالاستاذ، و « المدام » والبنات ، وأكرر دروسى وأنا نائمة ، حتى اذا جاء الغد ودخلت الصف رأيتنى لا أعرف شيئا ولا حفظت شيئا . فكنت أعاقب بالركوع والحرمان من الطعام . وصرت فتاة حزينه أشد الحزن ، برمة بالحياة أشد البرم . كانت التلميذات فى أول الامر يهزأن بى ويسخرن منى ، ويماحكننى ، ويتسلين ببث الاضطراب فى نفسى حين أتلو دروسى، ويقرصننى حين نصطف لنذهب الى الغداء أو العشاء ، ويشكيننى الى الناظرة بغير ذنب اقترفته وبغير داع الى ذلك . وفى مقابل هذا ، ما كان

أروع الجنة التى أحس أننى أدخلها حين كانت تجىء الى مرضعتى فى مساء يوم السبت لتقودنى الى المنزل ! كنت أكاد أختنق وأنا أضمها الى صدرى فرحا ... يا لها من عجوز رائعة ! ... كانت تلبسنى ثيابى ، وتدثرنى بما يقينى البرد ، ثم تتحمل عناء كبيرا من أجل ان تستطيع مجاراة خطواتى فى الشارع بينما أنا أثرثر بغير توقف قاصة عليها جميع تفاصيل حياتى . وكنت أصل معها الى البيت فرحة مرحه سعيدة ، فأقبل أهلى مندفعة أشد الاندفاع كأننى لم أرهم منذ عشر سنين . ويأخذ الجميع يتكلمون ويسألون ويحكون . وآخذ أحييهم واحدا واحدا ، وأضحك مقهقهة ، وأركض هنا وهناك ، وأقفز وأتواثب فى كل ركن من أركان الغرفه . وكان أبى يسألنى فى أمور هامة ، ويكلمنى عما أحرز من تقدم فى اللغة الفرنسية ، وعن كتاب قواعد اللغة الفرنسية (من تأليف لومون). فكنا نشعر فى مثل تلك الأمسيات بكثير من الفرح والبهجة . ما زلت حتى اليوم أغتبط حين أستحضر هذه الذكريات . كنت أبذل قصارى جهدى من أجل أن أنجح فى دراستى ارضاء لأبى . كنت أرى انه ينفق فى سبيلى آخر ما يملك من دريهمات ، مع أن حالته المالية كانت تتدهور وتتعقد . وكان هو يزداد عبوسا وتجهما يوما بعد يوم ، ويزداد سرعة الى الاهتياج والغضب والحنق ، حتى فسد طبعه وساء مزاجه تماما . كانت ديونه تتكاثر تكاثرا رهيبا . ان أمى تخشى فى بعض الأيام أن تبكى مخافة أن تزيده اهتياجا ، بل انها تمتنع حتى عن الكلام ، وسرعان ما أصبحت تبدو مريضة ، فهى تهزل هزالا واضحا ، وهى تسعل سعالا سيئا لايخطىء المرء تفسيره . فكنت فى تلك الفترة حين أجىء من المدرسة الداخلية زائرة أهلى، لا أرى الا وجوها حزينة : أمى تبكى فى رفق وهدوء ، وأبى يثور ويغضب . وأصبحت هذه الزيارات لا تشتمل الا على ملامات وتقريعات . فأبى يصرح بأننى لا أحمل اليه أى فرح أو أى عزاء ، ويقول

انهما ، هو وأمي ، يحرمان نفسيهما من كل شيء في سبيل تعليمي ، ثم أنا لا أتعلم الـكلام باللغة الفرنسية ! الخلاصة ان أبي أصبح يلقي على ظهرنا ، انا وأمي ، تبعة كل ما يلقى من ضروب الاخفاق ، وكل ما يعاني من صنوف الشقاء • كيف كان يستطيع أن يعذب أمي هذا التعذيب كله ؟ كان قلبي يتمزق تمزقا حين أنظر اليها في بعض الأحيان ! لقد خسف خداها وغارت عيناها وأصبح لون وجههـا ينم عن مرض السـل • ولكن غضب أبي كان ينصب عليّ أنا خاصة : يبدأ في أول الأمر من أجل أمور تافهة ، ثم لا يزال يشتد ويشتد الى أن يبلغ أقصى حدود الغيظ والحنق • حتى لقد كنت في بعض الأيام لا أفهم ما الذي يحققه هذا الحنق كله • ما أعجب ما كان يسمعني من كلام في مثل تلك المناسبات ! كان يقول ان تعلمي اللغة الفرنسية لا يسير سيرا حسنا ، وانني غبية بلهاء ، وان مديرة مدرستنا الداخليـة ليس في رأسها دماغ وانهـا لا تعني بتربيـة أخـلاقنا وتهذيب نفوسنا ، وانه ــ أي أبي ــ يبحث عن عمل فلا يجد عملا ، وان كتاب قواعد النحو (من تأليف لومون) لا يصلح ، وان كتاب زابولسكي يفضله كثيرا ، وان الأسرة تنفق المال في سبيل تعليمي سدى ، وانني ابنة ليس لها احساس حتما ، فقلبي قد قُدّ من صخر ••• والحق انني كنت أبذل قصارى ما أملك من جهد في تعلم دروسي ، ولكن هذا لا يمنع أبي من أن يعدني مسئولة عن جميع أنواع الشقاء التي تحيق بالأسرة ، وان يراني مذنبة آثمة في كل شيء • ليس معنى هذا ان أبي لم يكن يحبني • فلقد كان يحيا من أجلي ومن أجل أمي ، ولكن طبعه أصبح على هذه الحال واأسفاه ! كانت الهمـوم والأحـزان وضروب الاخفـاق تأكل نفس أبي وتهدمها تهـديما رهيبا • أصبح كثير الشك ، شـديد الوسواس ، سريع الغضب • وكانت تمر به في كثير من الأحيان حالات هي الى اليأس أقرب • وأخذ يهمل صحته ، وأصابه برد في أحد الأيام ، فسقط مريضا على حين

فجأة • ولم يطل مرضه ، فما هى الا أيام حتى خطفه الموت بغتة على غير توقع ، فصعقنا ذلك صعقا ، ولبثنا أياما لا نفيق من ذهول هذه الضربة التى نالتنا بها القدر • وما ان انطفأت روح أبى ، حتى تكاثر الدائنـون كأنهم يخرجـون من تحت الارض ، واخـذوا يتوافدون على منزلنـا أفواجا ، فاضطررنا ان ندع لهم كل ما كنا نملك ، اضطررنا أن نبيع الدارالصغيرة التى اشتراها ابى على الضفة اليمنى بعد اقامتنا فى بطرسبرج بستة اشهر • لا أدرى كيف استطعنا ان ندبر أمورنا فيما عدا ذلك ، ولكننا اصبحنا بلا مسكن ، بلا مأوى ، بلا ما يقيم الأود • وكان المرض ما ينفك يضنى أمى • وكان يستحيل علينا أن نغذيها بما يقوى جســمها ويحميها من الموت • كنا لا نملك ما يطعمنا من جوع •• كنا أمام هاوية •• وكنت أنا قد بلغت الرابعة عشرة منذ قليل • وفى تلك البرهة انما جاءت الينا آنا فيدوروفنا فقالت : انها تملك أطيانا وأنها تمت الينا ببعض القــربى • وكانت أمى تقول ان بيننا وبين آنا فيدوروفنا قربى ، ولكنها قربى بعيدة• لم تكن آنا فيدوروفنا قد زارتنا يوما أثناء حياة أبى • وهى تزورنا الآن مؤكدة ، والدموع فى عينيها ، أن مصيرنا يهمها كثيرا بل يقض مضجعها• وراحت تبكى منتحبة على ما أصابنا من خسران ، وعلى ما آل اليه حالنا من شقاء ، مضيفة الى ذلك أن أبى كان سبب ذلك كله ، فقد أراد أن يعيش فى مستوى لا يناسب موارده ، وكان كثير الطموح مسرفا فى الاعتمـاد على قواه الخاصة • وأعربت عن رغبتها فى أن تعرفنا مزيدا من المعرفة ، واقترحت أن ننسى الجروح القديمة • فلما قالت لها أمى انها لم تشــعر نحوها بشىء من العداوة فى يوم من الأيام ، مسحت آنا فيدوروفنا عينيها بمنديلها ، ثم قادت أمى الى الكنيسة فأمرت بصلاة على روح أبى المسكين (كذلك قالت) وتصالحت مع أمى على هذه الصورة من الفخامة والأبهة •

وبعد انواع من المواعظ والارشاد ، وبعد سلسلة طويلة من ابداء

الآراء واسداء النصائح ، صورت لنا آنا فيدوروفنا الوضع اليائس الذى نحن فيه بألوان حية وتهاويل صارخة ، مبرهنة على أننا مهجورون عاجزون، لا أمل لنا فى الخروج من المأزق ، ثم دعتنا الى أن نلجأ الى دارها على حد تعبيرها ، فشكرت لها أمى ذلك ،ولكنها ترددت طويلا . ومع ذلك أدركت أمى انه ليس هنالك حل آخر ، وان ليس هنالك مخرج غير هذا المخرج. فأعلنت لآنا فيدوروفنا اننا نقبل دعوتها شاكرين ممتنين . ما زلت أذكر صباح تركنا منزلنا الى حى فاسيليف ، كأن ذلك حدث بالامس . كان صباحا من أصباح الخريف مضيئاً جافا صافيا .

كانت أمى تبكى ، وكنت انا أشعر بحزن رهيب واحس أن قلبى يوشك أن يتمزق فى قلبى ، واحس بكآبة ثقيلة تجثم على صدرى ، كآبة توشك أن تكون نبوءة لا تفسير لها ولا تعليل .. لقد كانت فترة أليمة ..

....

....

٢

فى الأوقات الأولى، أيام لم نكن قد ألفنا بعد أنا وأمى مسكننا الجديد، كنا نحس عند آنا فيدوروفنا بكثير من الضيق والغم . كانت آنا فيدوروفنا تعيش فى منزل تملكه بالحى السادس ، وهو مبنى يتألف كله من خمس غرف ، تحتل آنا فيدوروفنا منها ثلاثة هى وساشا ابنة عمى الصبية اليتيمة التى ليس لها أب ولا أم ، والتى كانت آنا فيدوروفنا قد ضمتها اليها ؛ ونحتل نحن الغرفة الرابعة . أما الغرفة الأخيرة ، المجاورة لغرفتنا ، فكان يسكنها طالب فقير اسمه بوكروفسكى ، استأجرها من آنا فيدوروفنا . كانت مضيفتنا تعيش حياة عريضة ، وكانت تبدو أغنى كثيرا مما كنا نظن قبل ذلك . ولكن مصدر مواردها ظل لغزا بالنسبة الينا ، كسائر مشاغلها التى لا نعلم عنها شيئا من جهة أخرى . انها فى حركة دائمة لا تنقطع ، يبدو أن لها مشاغل مستمرة ، فهى تخرج من المنزل أو تركب العربة مرات فى اليوم . أما ماذا كان نشاطها، وبماذا كانت تهتم أو بمن كانت تهتم ، فذلك أمر لم أستطع أن أعرفه . وكانت علاقاتها كثيرة متنوعة . ففى كل لحظة من اللحظات يجيئها ناس ، لا يعلم الا الله من هم ، يجيئونها لأعمال ولا يمكثون الا لحظات .

كانت أمي تفودني الى غرفتنا متى رن جرس باب المدخل • وكان موقف أمي هذا يسوء انا فيدوروفنا ، فهي لا تنفك تكرر أننا مسرفون في التكبر ، وأننا أكثر زهوا وصلفا مما يسمح به وضعنا وتبيحه أحوالنا، وهي ما تنفك تضيف الى ذلك قولها « وليت هنالك ما يدعو الى التكبر والعجرفة » ، وتسترسل في حذلقات لا أول لها ولا آخر • لم أكن أفهم يومئذ معنى هذه الملامات التي تاخذ علينا الكبرياء والغطرسة • ولكنني أفهم ذلك اليوم أو أحزر السبب الذي جعل أمي تتردد ذلك التردد كله قبل أن ترضى السكنى عند انا فيدوروفنا •

كانت آنا فيدوروفنا امرأة سيئة • كانت تسومنا سوء العذاب بغير انقطاع • تلطفت معنا أول الأمر ، ولكن طبعها لم يلبث أن ظهر على حقيقته سافرا ، منذ لاحظت أننا لا نملك أن ندافع عن أنفسنا اطلاقا ، وأننا لا نعرف أين نذهب • وزاد تلطفها معي فيما بعد ، فكان تلطفا مزعجا ، مفرطا ، يذهب في المبالغة الى حد التملق • ولكنني في الاشهر الاولى تعذبت مثلما تعذبت أمي ، اذ كانت آنا فيدوروفنا لا تكف عن تقريعنا لحظة من اللحظات ، وتذكرنا باحسانها الينا وتعطفها علينا في كل مناسبة من المناسبات • وكانت تقدمنا الى الغرباء على اننا من ذوى قرباها الفقراء : أرملة وابنتها ، لا سند لهما في هذه الحياة ، ضمتهما اليها من باب الشفقة الانسانية والبر المسيحي • فاذا جلسنا الى المائدة راقبت كل لقمة نأكلها ، حتى اذا لم نأكل كانت لها معنا قصة أخرى ، فهي تأخذ تسفهنا عندئذ مدعية اننا نحتقر ما يؤكل في بيتها عادة ، قائلة : « انها لا تستطيع أن تطعمنا غير ما تملك ، وانها تتمنى لو تقدر أن تأكل هي نفسها خيرا مما تأكل » ، ولا يفوتها عندئذ أن تتهجم على أبي فتقول انه كان يحسب نفسه أعلى قدرا من الناس ، وانه لذلك انتهى الى ما انتهى اليه من سوء ، وانه ترك امرأته وابنته بلا موارد ، فلولا أن أسعفنا الحظ فتداركتنا قريبة

كريمة سخيه ذات روح مسيحية رحيمة شفوق اذن لنفقنا جوعا في أحد الشوارع ، والله أعلم . كنا نصغى الى كلامها لابمرارة فحسب ، بل باشمئزاز أشد من المرارة . وكانت أمى لا تكف عن بكاء . وكانت صحتها تزداد سوءا يوما بعد يوم . كان واضحا انها تذوب وتفنى ، وكان علينا مع ذلك أن نعمل من الصباح الى المساء . فلقد سعينا الى أن نوصى بخياطة بعض الثياب من خارج المنزل ، وكان هذا يسوء آنا فيدوروفنا كثيرا ، فما تنفك تردد أن بيتها ليس صالون أزياء . ولكن كان لا بد لنا من كسب ما يكسونا ، وكان لا بد لنا من ادخار بضعة قروش لما قد يقع من طوارىء ليست فى الحسبان . لقد صممنا تصميما جازما على أن نملك بعض المال لأنفسنا . فكنا ندخر شيئا كلما استطعنا الى ذلك سبيلا ، أملا فى أن يتيح لنا ذلك أن نترك هذه الدار ونمضى نستقر في مكان ما ، فكانت قوى أمى تنهك من هذا العمل ، فهي تزداد هزالا ونحولا فى كل يوم : كان المرض يقضم حياتها كالسوس ، ويسير بها نحو القبر خطوة بعد خطوة . كنت أرى ذلك وكنت أحس ذلك ، فما كان أشد ألمى وعذابى ! كان ذلك كله يجرى على مرأى منى ، والأيام تتلاحق متشابهة رتيبة حزينه ، ونحن نعيش في عزلة تامه ، كأننا انفصلنا عن المدينة ، فلسنا منها . وهدأت آنا فيدوروفنا بعض الهدوء ، اذ شعرت بكمال قدرتها وتمام قونها شعورا مليئا . ولم يكن ليدور فى بال أحد أن يعارضها على كل حال . وكان الدهليز يفصل غرفتنا عن الغرف التى تسكنها ، وكان جارنا هو الطالب بوكروفسكى كما أسلفت . كان بوكروفسكى يعطى ساشا دروسا فى الفرنسية والالمانية والتاريخ والجغرافيا ، كان يدرّسها جميع العلوم على حد تعبير آنا فيدوروفنا ، لقاء سكناه وطعامه فى الدار بالمجان . وكانت ساشا على جانب عظيم من الذكاء ، رغم انها كثيرة الحركة سديدة الخبث والمكر ... كانت أيامئذ في الثالثة عشرة من عمرها . قالت آنا فيدوروفنا

لامى ذات يوم ان من المستحسن اَن أنتفع أنا بهذه الدروس ، لأن القسط الذى نلته من التعليم فى المدرسة الداخلية لا يكفى • فقبلت أمى ذلك راضية فرحة، فدرست مع بوكروفسكى وساشا سنة كاملة•ان بوكروفسكى شاب فقير شديد الفقر ، لم تتح له صحته أن يتابع دراسته متابعة منتظمة مطردة ، واذا كان لا يزال يسمى طالبا فمن قبيل العادة •

انه يعيش حياة متواضعة منزوية صامتة ، حتى أننا لم نسمع صوته يخرج من غرفته يوما • وكان يبدو غـريبا : فهو يمشى مشـية رفلاء ، ويحيى تحية خرقاء ، وانه خجول شديد الخجل ، فاذا تكلم تكلم على نحو عجيب يلفت النظر ويثير الدهشة • كنت فى أول الأمر لا أملك الا أن أضـحك حين أنظـر اليه • وكانت ساشا تكيـد له وتمكر به وتدبر له « المقالب » ، ولا سيما أثناء الدروس • وكان هو الى ذلك سريع التأذى شديد الاهتياج ، ما يلبث أن يغضب وأن يزعل ، خارجا عن طوره لأتفه الأسباب ، صارخا ماضيا يشكونا الى أهلنا من حين الى حين ، عائدا الى غرفته يحبس نفسه فيهـا قبل أن ينتهى الدرس • وكان ينفق وقتـه فى غرفته قارئا كتبا • فقد كان يملك عدداً كبيرا من الكتب ، بل كان يملك كتبا غالية الثمن نادرة • ان الدروس القليلة التى يعطيها لبعض التـلاميذ فى المدينة تدر عليه شيئا من مال ، فما ان ينقاض أجره حتى يسارع الى شراء كتب •

واستطعت مع الزمن أن أعرفه على حقيقته • ان له قلبا من ذهب • انه فتى جدير بأعظم الاحترام • انه خير رجل أتيح لى أن ألقاه فى هذه الحياة • وكانت أمى تقدره كثيرا ، وقد أصبح بعد ذلك خير صديق لى بعد أمى طبعا •

أنا أيضا ، رغم اننى أصبحت فتاة كبيرة ، كنت فى أول الأمر أتسلى مع ساشا باغاظته • كان ينفق لنا أن نقضى ، أنا وابنة عمى ، ساعات برمتها

نكد ذهننا فى تخيل طريقة نستطيع بها ان نتأكده مزيدا من المتأكدة وان تخرجه عن طوره • انه يصبح مضحكا جدا حين ينفجر غاضبا ، فكان ذلك يسلينا كثيرا (انى لأشعر اليوم بالعار وانا اعترف بذلك) • وفى ذات يوم مضينا بأمازيحنا السخيفة الى حيث راينا الدموع تترقرق فى عينيه ، وسمعناه يقول مدمدما «أطفالشريرون» • فلما سمعته يقول هذه الكلمات شعرت فجاة بخجل شديد ، واحسست بالعار ، وانقبض صدرى ، واهتزت نفسى شفقة عليه • أذكر أن وجهى تخضب يومئذ بحمرة قانية حتى الأذنين ، وتوسلت اليه شبه باكية أنا أيضا أن يهدىء روعه وأن لا يؤاخذنا على أمازيحنا السخيفة • ولكنه طوى الكتاب فجأة قبل أن ينتهى الدرس ومضى يعتكف فى غرفته • ظللت نهارى كله معذبة من تأنيب الضمير وألم الندامة ، لا أطيق أن أتصور أننا ، نحن الطفلتين ، قد دفعناه بقسوتنا الى البكاء دفعا • اذن لقد كنا ننتظر أن نرى هذه الدموع ••• اذن لقد كنا نتمنى أن نرى هذه الدموع ••• اذن لقد اشتهينا أن نراه باكيا ••• واستطعنا أخيرا أن نفقده صبره ••• لقد حملناه بالقوة ، هو التعس البائس ، على أن يزداد شعورا بحظه الشقى وقدره الظالم • لم أستطع سبيلا الى النوم ليلتى كلها ، من فرط الأسف وشدة الحزن وعذاب الضمير • يقال ان تأنيب الضمير يخفف عن النفس ••• ألا ان هذا لخطأ تماما ••• ولقد خالط حزنى شىء من الشعور بأن كبريائى قد جرحت ••• لقد أغاظنى أنه عدنى طفلة • وكنت يومئذ فى الخامسة عشرة من عمرى •

يجب أن أقول الآن بضع كلمات عن هذا الانسان الذى كان بين من لقيتهم فى حياتى من الرجال أغربهم وأدعاهم الى العجب وأبعثهم على الشفقة • ولئن كنت أتكلم عنه هنا ، فى هذا الموضع بعينه من مذكراتى ،

فلأننى لم ألق اليه بالا الى ذلك الحين • غير أن كل ما يتصل ببوكروفسكى، أخذ يعنينى بين عشية وضحاها •

كنا نلمح فى بيتنا أحيانا عجوزا قصيرا رث الثياب قذر المنظر أشيب الشعر هزيل الجسم أخرق الحركات ، عجيبا الى حد يعجز عن وصفه الكلام ، يوحى الى من يراه من أول نظرة انه خجل من شىء ما أو انه مرتبك بنفسه ضيق الذرع بشخصه ، فكأنه يجعد جسمه ويلويه عامدا حتى لا يراه أحد • وهو الى ذلك يقوم باشارات وحركات من تلك الاشارات والحركات التى يقدّر من يراها أن صاحبها أصبح لا يملك عقله كاملا • كان هذا العجوز العجيب يصل أحيانا الى منزلنا ، فيتلبث فى الدهليز أمام الباب الزجاجى دون أن يجرؤ على الدخول • حتى اذا مر أحد منا قرب ذلك المكان ـ أنا أو ساشا أو خادم يعرف العجوز انه لا يكرهه ـ حيا صامتا بحركة من رأسه ، وقام باشارات شتى من يده ، ثم لم يدخل الا اذا نودى بغمزة تعنى أن ليس فى الدار غرباء وأن فى وسعه أن يدخل : فكان العجوز القصير يشق الباب عندئذ فى رفق ، وقد تهلل وجهه وانفرج فمه بابتسامة سعيدة وأخذ يفرك يديه احديهما بالأخرى غبطة ورضى ، ثم يتجه الى غرفة بوكروفسكى رأسا • انه أبوه• لقد عرفت بعد ذلك تفاصيل قصة هذا العجوز الفقير • لقد خدم فى الماضى فى مكان ما : ولكنه لشدة غبائه وتفاهه شخصيته قد ظل الى النهاية فى وظيفة وضيعة • حتى اذا ماتت زوجته الأولى (والدة الطالب بوكروفسكى) خطر بباله أن يتزوج مرة أخرى ، فتزوج فتاة من طبقة صغار البورجوازيين • فما دخلت المرأة الجديدة منزله حتى انقلب المنزل رأسا على عقب ، فهى لا تترك أحدا وشأنه ، ولا تدع لأحد أن يعيش هادئا ، وهى مستبدة متسلطة تهيمن على كل شىء وتحب أن يكون لها القول الفصل وأن تسيطر على جميع الناس • وكان الطالب بوكروفسكى فى

السنة العاشرة من عمره آنذاك ، فكرهته زوجة أبيه كرها شديدا ، وسامته سوء العذاب ، ولكن الحظ واتاه ، فان رجلا من كبار الملاكين اسمه بيكوف كان قد عرف أباه فى الماضى ورعاه وحماه ، فتكفل بالاهتمام بالصبى وأدخله احدى المدارس الداخلية • وقد اهتم الرجل بالصبى لأنه كان يعرف المرحومة أمه التى كانت تتمتع فى أيام صباها بنعم آنا فيدوروفنا وحسنانها، وآنا فيدوروفنا هى التى قدمتها زوجة للموظف بوكروفسكى• وقد وهب السيد بيكوف ، وهو صديق حميم لآنا فيدوروفنا ، وهب للخطيبة بائنة قدرها خمسة آلاف روبل ، شهامة منه وكرما • ولا يعلم أحد أين ذهب هذا المال • لقد عرفت هذه التفاصيل من آنا فيدوروفنا • أما الطالب بوكروفسكى فكان لا يحب كثيرا أن يتحدث عن أسرته • يقال ان أمه كانت على جانب عظيم من الجمال • وانه ليدهشنى انها ارتضت زواجا مشئوما كهذا الزواج برجل تافه كل التفاهة ••• وقد ماتت المرأة وهى فى ريعان الشباب ، بعد زواجها ببضع سنين ؛ وانتقل الفتى بوكروفسكى من المدرسة الداخلية الى المدرسة التانوية ثم دخل الجامعة • وظل السيد بيكوف الذى كان يتردد كثيرا على سان بطرسبرج ، ظل يحميه ويرعاه • ولكن بوكروفسكى اضطر الى الانقطاع عن الدراسة بسبب اعتلال صحته • وعندئذ عرفه السيد بيكوف بآنا فيدوروفنا ، وأوصاها به كثيرا فى كثير من الحرارة ، فآوته فى منزلها ساكنا طاعما لقاء اعطائه ساشا دروسا فى جميع الفروع اللازمة •

أما العجوز بوكروفسكى فان الحزن الذى كان يسببه له خبث زوجته التانية قد دفعه الى أرذل الرذائل دفعا ، فما تكاد تراه الآن الا سكران • كانت زوجته تضربه ضربا مبرحا ، وتجبره على أن يبيت فى المطبخ ، وبلغت من التسلط عليه انه انتهى الى قبول الضرب المبرح بغير احتجاج ، والى احتمال أنواع الأذى بغير تذمر أو شكوى • انه فى الواقع أقل

شيخوخة مما يبدو . ولكن ميوله السيئه قادته الى حافة الجنون . وكانت العاطفه الرفيقة الوحيدة التى بقيت له هى ما يشعر به نحو ابنه من حب ليس له حدود . ويقال ان الفتى بوكروفسكى يشبه امه كما تشبه قطرة من الماء قطرة من الماء . فلعل ذكرى الزوجة الاولى التى أحسنت معامله زوجها وكانت معه فى غايه الطيبـه ، هى التى ولدت فى نفس العجـوز المتدهور هذا الحب الكبير نحو ابنه . كان العجوز ممتلىء الفم بذكر ابنه، لا يدور لسانه بكلام الا عنـه . وكان يزوره مرتين فى الاسـبوع ، على نظام مطرد بغير انقطاع . انه لا يجرؤ أن يجىء أكثر من مرتين ، لأن الفتى كان يكره حضور أبيه . لا شك أن عدم احترامه أباه هو أكبر عيب فيه . ولكن يجب الاعتراف بأن العجوز كان يصبح فى بعض الأحيان ثقيلا لا يطاق ولا يحتمل . فهو أولا شديد الفضول ، وهو ثانيا ما ينفك يعوق ابنه عن العمل بالحديث فيما هب ودب من نافل القول وهاذر الكلام، وهو ما ينفك يلقى عليه الأسئله تلو الأسئلة سخيفة تافهة غبية ، وهو بعد هذا وذاك يجيئه سكران فى كثير من الأحيان . وقد حاول ابنه ان يحمله على الاقلاع عن هذه العيوب ، عن هذه الثرثرة التى لا تنتهى ، عن هذا الفضـول الذى لا يعرف شيئا من القصد ... فاسـتطاع أن يبلغ هـذه النتيجة ، وهى أن يصغى أبوه الى كلامه فاغر الفم كأنه يستمع الى كلام عراف من العـرافين ، ثم لا يجـرؤ أن ينبس بعـد ذلك بكلمـة دون استئذان .

كان العجـوز المسـكين لا يكل ولا يمل من الاعجاب بابنه العزيز باتنكا . (هكذا كان يسمى ابنه) ، ولا يتعب من الشعور بالنشوة والوجد حين يراه . كان اذا جاء يزوره يبدو كالخجلان أو كالمهموم ، ربما لأنه غير واثق من أن ابنه سيحسن استقباله . وكان فى العادة يتردد كثيراً قبل أن يدخل ، فاذا وُجدتُ مصادفةً هنالك ، طفق يسألنى ، خلال خمسه

عشرة دقيقه ، أو عشرين فى بعض الاحيان ، عن ابنه : ماذا يعمل؟ كيف صحته ؟ ما حالته النفسية ؟ أهو بسبيل القيام بعمل هام من الاعمال ؟ ما الذى يشغله فى هذه اللحظة على وجه الدقة ؟ أهو يكتب شيئا ؟ أم هو منصرف الى تفكير عميق ؟ حتى اذا طمأنته وشجعته بما فيه الكفاية ، قرر أخيرا أن يدخل ، فشق باب غرفة ابنه فى رفق وحذر ، ومد رأسه أولا، فاذا لاحظ أن ابنه ليس غاضبا ، وانه يومئ اليه أن يدخل ، نفذ الى الغرفة بخطى لا يُسمع لها صوت ، فنضا عنه معطفه البائس وخلع قبعته المجعدة دائما ، المثقبة فى مواضع عدة ، المنزوعة الأجنحة تقريبا ، وعلق ذلك كله بكلاب ، محاولا فى كل حركاته أن لا يحدث الا أقل ضجة ، فانه يخشى أن يلفت النظر أو يثير الانتباه . ثم يجلس محاذرا على كرسى، ويثبت بعد ذلك بصره على ابنه لا يحوله عنه لحظة من اللحظات ، متابعا كل حركة من حركاته ليدرك الحالة النفسية التى يكون فيها عزيزه باتنكا. فاذا لاحظ لدى ابنه أيسر علامة تدل على أنه معكر المزاج شجى البال ، نهض عن كرسيه على الفور ، قائلا انه انما جاء عابرا : « لقد قمت بجولة طويلة لقضاء عمل من الاعمال يا باتنكا ، فلما مررت أمام منزلك ، دخلت عليك لأستريح لحظة » ، ثم تناول معطفه وقبعته فى مذلة دون أن ينبس بكلمة وفتح الباب فى هدوء وصمت كما فتحه حين دخل ، وانصرف وهو يتكلف الابتسام كظماً للحزن الذى يفيض به قلبه ، واخفاءً لهذا الحزن عن ابنه .

ولا كذلك حين يحسن الابن وفادة أبيه ، فان العجوز يشعر عندئذ بفرح لا يوصف . فالسعادة تتلألأ فى عينيه ، وتترقرق فى اشاراته وحركاته . حتى اذا خاطبه ابنه بكلمة عرضا نهض عن كرسيه وأجابه بصوت رقيق ذليل خاضع متملق متزلف يشيع فيه احترام يشبه أن يكون احتراما دينيا ، وحاول جهده أن يستعمل ألفاظا « منتقاة » تخرج من فمه

باعه على الضحك في الواقع • ذن العجوز لا يجيد التعبير عن ذات نفسه ، فاذا هو ينتهي الى ان يدمدم ويجمجم مرتبكا اشد الارتباك ، واذا هو يخفي يديه ، ويصغر جسمه ، ويظل دقائق طويلة يهمهم بكلمات غير متميزة كأنه يريد أن يصلح جوابه الاخرق • اما اذا اتفق مصادفة أن جاء جوابه مناسبا رأيته يتجرأ ويتجاسر ، فيعدل صديرته ويقوّم ربطه عنقه ويصلح رداءه ويبدو أنه يسترد في هذه اللحظات شعوره بكرامته • كان يستعيد عندئذ ثقته بنفسه ، ويبلغ من الجسارة في بعض الأحيان أن ينهض عن كرسيه بلا ضوضاء فيدنو من رف الكتب ويسنل منه كتابا ، أيّ كتاب ، حتى لقد يأخذ يقرأ في الكتاب فقرة من الفقرات على غير هدى أيا كان الموضوع • يفعل ذلك كله متظاهرا بالهدوء مصطنعا عدم الاكتراث كأن من الطبيعي ومن المسموح له به في أي وقت أن يتصرف في كتب ابنه ، وكأن لطف باتنكا في معاملته أمر لا يدعو الى الدهشة ولا يبعث على الاستغراب • ولكنني لاحظت ، في ذات يوم ، الذعر الذي استولى على الشقي المسكين حين رجاه بوكروفسكي أن لا يمس كتبه • لقد غاب يومئذ عن رشده ، وأسرع يعيد الكتاب الى مكانه مضطربا ، فاذا هو يخطيء فيضعه مقلوبا ، فما كان منه الا أن سحبه ثانية ثم أعاده الى مكانه ، لكنه في هذه المرة جعل ظهر الكتاب الى الحائط • وكان يبتسم ويحمر ولا يدري كيف يكفر عن جريمته •

استطاع بوكروفسكي بنصائحه أن يصرف أباه عن ميوله السيئة شيئا بعد شيء • فاذا اتفق أن رآه ثلاث مرات متتالية معتدلا دس في يده خمسة وعشرين كوبكا أو نصف روبل عند انصرافه ، أو اشترى له حذاءين أو ربطة عنق أو صديرة • ليتك ترى الأب عندئذ كيف كان يختال بحليه اختيال الديك • وكان يدخل علينا في بعض الاحيان حاملا الينا ، أنا وساشا ، بعض الفطائر أو بعض التفاح ، متحدثا عن عزيزه

باتنكا حدينا لا ينتهى • وكان فى هذه المناسبات يضرع الينا أن ننتبه الى دروس ابنه ، أن نصغى اليها ونتنفع بها ، مؤكدا أن باتنكا ابن طيب ، ابن فذ ، وانه الى ذلك ابن عالم • وكان حين ينطق بهذه الكلمات الاخيرة يغمز بعينه اليسرى غمزا يبلغ من الوضوح ، وينلوى بجسمه تلويا يبلغ من الغرابه اننا نعجز عندئذ عن كبح جماح نفسينا، فاذا نحن ننفجر مقهقهتين أمام أنفه • وكانت أمى الطيبة تحبه كثيرا • ولكن العجوز كان يكره آنا فيدوروفنا كرها شديدا، مع محافظته فى حضورها على المذلة والخضوع والصمت وطأطأة الرأس • ولم ألبث أن انقطعت عن تلقى الدروس من من بوكروفسكى • فلقد كان ينظر الىّ « نظرته الى طفلة ، الى صبية طائشة ، ويساوى فى المعاملة بينى وبين ساشا، فكان ذلك يؤلمنى كثيرا ، لأننى كنت أحاول أن أمحو من نفسه آثار سلوكى الماضى، فلايلاحظ هو هذه الجهود ، فكنت اغتاظ من هذا غيظا ما ينفك يزداد بعد يوم ، وصرت لا أكادأخاطبه بكلمة واحدة فى غير أوقات الدروس ،ولا أملك من الشجاعة ما يمكننى من مخاطبته ، فاذا رأيته أحمر وجهى واضطربت ، ثم مضيت أختبىء فى ركن من الاركان لأبكى ألما وحسرة •

لا أدرى كيف كان سينتهى هذا كله لولا أن ظرفا عجيبا ساعد فى التقريب بيننا • ففى ذات مساء ، بينما كانت أمى عند آنا فيدوروفنا ، دخلت غرفة بوكروفسكى على رؤوس الأصابع • كنت أعلم أنه خرج ، فخطر ببالى ، لا أدرى حقا لماذا ، أن ألقى نظرة على غرفته • لم أكن قد دخلت هذه الغرفة يوما قط ، رغم أننا جيران منذ أكثر من عام • أخذ قلبى يخفق هذه المرة فى صدرى خفقانا يبلغ من القوة اننى أحسست انه سينفجر• ألقيت على ما حولى نظرات مستطلعة شرهة • ان أثاث الغرفة فقير والفوضى تشيع فى كل ركن من أركانها : هذه أوراق مبعثرة على المنضدة وعلى الكراسى ، ولا تقع العين فى كل موضع الا على كتب وقراطيس • راودتنى

فكرة غـريبة بينما كان يعترينى فى الوقت نفســه شـعور مرير بالحسرة والاسف : بدا لى انه لن يستطيع ان يرضى بصداقتى وبما يحمله له قلبى من حب ، فهو رجل واسع العلم كثير الاطلاع جم الثقافه ، أما أنا ففتاة بلهاء لا أعرف شيئا ، ولا قرات كتابا • ألقيت عندئذ نظرة شوق الى هذه الرفوف الطويلة التى تحمل الكتب حتى لتكاد تتداعى من ثقل ماتحمل • وتوزعتنى مشاعر شتى ، فانا فى آن واحد نهب الحـزن وخيبـه الامل والشوق الى أن أعمل شيئاً • وتمنيت فجأة أن أقرأ جميع كتبه ، أن أقرأ كتبه كلها الى آخرها ، وأن أفعل ذلك بأقصى سرعة ممكنة • وما لبثت أن عزمت أمرى • لعلنى تخيلت فى تلك اللحظه اننى اذا علمت كل ما كان يعلم ، فسأصبح أجدر بصداقته واخلق بمودته • فأسرعت الى أول رف ، وبدون أن أفكر أو أن اختار ، تناولت أول كتاب وقع عليه بصرى ، وهو كتاب قديم أغبر ، فحملته الى غرفتى وأنا احمر وأصفر وأرتجف انفعالا وخوفا ، حملته كما يحمل السارق غنيمته ، وأنا أنوى أن أقرأه طوال الليل على ضوء السراج الصغير بعد أن تنام أمى •

ولكن ما كان أشد خيبة أملى حين وصلت الى غرفتى ففتحت الكتاب مسرعة فلم أجد فيه الا نصا لاتينيا مبسوطا على أوراق كادت تتلف وكاد العث يقضم نصفها • لم أدع للوقت أن يضيع سدى ، فأسرعت أعود الى غرفة بوكروفسكي • فما كدت أتهيأ الى اعادة الكتاب الى موضعه من الرف حتى سمعت ضـجة فى الدهليز وسمعت وقـع أقدام تقترب • فأسرعت ما أمكنني الاسراع أحاول أن أدس الـكتاب فى مكانه ، ولـكن الكتاب الخبيث كان قد بلغ من شدة ترصصه بالكتب الاخرى أن هذه الكتب قد تمددت تمدد النابض حين سللته من بينها فهى الآن تحتل المكان كله غير عابئة بزميلها الغائب ، فلم أقو على دسه فيها من جديد ، ولكننى حاولت أن أدفع الكتب بكل ما أوتيت من قوة ، فاذا بالمسمار الصدىء الذى كان

يمسك الرف والذى لعله كان لا ينتظر الا مثل هذه اللحظة حتى يسقط، اذا بهذا المسمار ينكسر فجأة ، واذا بالرف يهوى على أحد طرفيه ، واذا بالكتب تتدحرج على أرض الغرفة محدثة ضجة كبيرة • وانفتح الباب فى هذه اللحظة ودخل بوكروفسكى الغرفة •

يحسن أن أذكر هنا أنه كان لا يطيق ان يمس احد أشياءه • وويل لمن يسمح لنفسه بأن يضع يده على كتاب من كتبه • تصوروا اذن ماشعرت به من دعر حين رأيت هذه الكتب المختلفة الحجوم والاشكال والأبعاد (فبعضها دقيق وبعضها سميك ، بعضها صغير وبعضها كبير) حين رأيتها تهوى عن الرف ، وتتدحرج على ارض الغرفة ، وتأخذ ترقص تحت المنضدة وتحت الكراسى وفى الحجرة كلها • أردت أن أهرب ، ولكن اوان الهروب كان قد فات • قلت لنفسى : « انتهى كل شىء ، انتهى كل سىء ، لقد ضعت ، ضعت تماما • اننى آتسلى بارتكاب حماقات كطفلة فى العاسره من عمرها • ما أنا الا طفلة بلهاء ، ما أنا الا غبية كبيرة »

غضب بوكروفسكى غضبا رهيبا وصاح يقول : « ما كان ينقصنى الا هذا ، ألا تستحين أن تسلكى هذا المسلك ؟ متى تراك تعقلين ؟ » وأخذ يحاول أن يلم الكتب • فملت على الارض أساعده • فصاح مرة أخرى يقول : « لا داعى ، لا داعى ••• خير لك ألا تدخلى مكانا ما دعيت اليه » •

لكنه ، وقد رق قليلا لموقفى الذليل ، تابع يقول بلهجة أقل غضبا ، بلهجة هى لهجة الناصح التى اعتاد أن يستعملها أثناء الدروس ، مستفيدا من الحق الذى يخوله اياه أنه كان أستاذى منذ وقت قصير ، تابع يقول : « متى تعقلين اذن ؟ هلا فكرت فيما تصنعين ؟ ما أنت الآن بطفلة ، ما أنت الآن بالبنية الصغيرة ، لقد بلغت من العمر خمسة عشر عاما » •

وكأنما أراد أن يتحقق من أننى شبيت عن الطوق فما أنا الآن بطفلة ، فألقى علىّ نظرة ، فاذا هو يحمر احمرارا شديدا حتى الأذنين. لم أفهم ما حدث له . كنت واقفة أمامه أحدق اليه بعينين واسعتين مدهوشتين . ونهض فاقترب منى زائغ النظرة شارد اللب ، واضطرب اضطرابا شديدا ، ودمدم ببضع كلمات كأنه يعتذر لى عن شىء ما ، ربما عن أنه لم يكن قد لاحظ الى ذلك الحين اننى أصبحت فتاة كبيرة . فهمت على الفور . ثم لم أعرف ماذا جرى لى فى تلك اللحظه . لقد اضطربت وفقدت سيطرتى على نفسى واصطبغ وجهى بحمرة أشد من الحمرة التى اصطبغ بها وجه بوكروفسكى ، فغطيت وجهى بيدى وأسرعت أهرب من الغرفة راكضة .

كنت لا أعرف ماذا أعمل ، ولا أين أختبىء من شدة شعورى بالخجل والعار . أيجدنى فى غرفته ؟ ان هذا وحده يبدو لى الآن امرا لا يغتفر . لبثت ثلاثة أيام لا أستطيع حتى أن أنظر اليه . أصبحت أحمر خجلا حتى لأكاد أبكى متى لمحته . ان زوبعة من الخواطر الرهيبة تدور فى رأسى ، وتخالطها أفكار مضحكة . من هذه الافكار العجيبة التى راودتنى أن أذهب اليه لأشرح له كل شىء ، وأعترف له بكل شىء ، ان أقول له الحقيقة صريحة ، أن أقنعه بأننى لم أتصرف تصرف طفلة صغيرة حمقاء ، وأن الامر الذى دعانى الى فعلى وحضنى عليه ينطوى على نية طيبة حسنة. وقد قررت أن أذهب اليه فعلا ، لولا أن خانتنى شجاعتى فى آخر لحظة من حسن الحظ ، ولله الحمد . اننى أتصور الآن كيف كان يمكن أن يكون موقفى لو ذهبت ، وأية سخافات وترهات كان يمكن أن ينطلق بها لسانى متدفقا . ما زلت حتى هذه الساعة أشعر بخجل شديد وعار كبير حين أتذكر تلك اللحظات .

بعد ذلك ببضعة أيام ، مرضت أمي مرضا خطيرا • فلزمت فراسها يومين ، وانتابتها فى الليلة الثالثة حمى شديدة يصحبها هذيان • كنت قد قضيت الى جانبها ليلة بكاملها لم يغمض لى خــلالها جفن ، فأنا جالسة قربها أحيطها بالعناية والرعاية ، وأسقيها ماء وأجرعها أدويتها فى مواقيتها المحددة • فلما جاءت الليلة التالية شعرت بانهيار فى قواى • فالنعـاس يستبد بى فى بعض اللحظات فيضطرب أمام بصرى كل شيء ، ويدور رأسى ، وأحس اننى أوشك أن أسقط اعياء من لحظة الى أخرى ، وكانت تأوهات أمي توقظنى فى كل مرة ، فأنتفض مذعورة ، وأفتح عينى خلال ثوان قليلة ، ثم ما ألبث أن أرتد الى الوسن • لا أدرى ولا أذكر هـل غفوت بضع ثوان • ولكننى أذكر أن قد وافانى حلم رهيب ، أذكر أن رؤيا مفزعة انبجست فى دماغى المرهق الذى استولى عليه النعاس وكان يقاومه • فتحت عينى جزعة هلعة • كانت الغرفة غارقة فى الظلام • ان لهب السراج الصغير يحتضر ، فكانت أشعة من الضياء تنزلق على الجدران، فتارة تتسع فتغمر الغرفة ، وتارة تضعف حتى لتزول زوالا تاما •

شعرت بخوف مباغت ، واستبد بى ذعر لا أعرف كيف أفسره أو أعلله • كان خيالى مضطربا أشد الاضطراب من ذلك الحلم الرهيب ، وكان قلبى منقبضا أشد الانقباض من فرط الجزع ••• نهضت منتفضة ، وانطلقت من صدرى صرخة وأنا فريسة احساس باختناق مذعور وخوف غامض رهيب • وانى لكذلك اذا بالباب يفتح ، فيدخل بوكروفسكى الى غرفتنا •

كل ما أذكره انه كان يسندنى من ذراعى حين ثبت الى شـعورى ، وانه أجلسنى فى رفق واحترام وحذر على مقعد، ومد الىَّ كأسا من الماء وأخذ يمطرنى بوابل من الأسئلة • لاأدرى بماذا أجبته • ولكننى أذكر انه قال لى وهو يمسك بيدى: « انت مريضة •• أنت أيضا مريضه جدا •

ان بك حمى • انك تهدمين صحتك تهديما ، ولا تدارين نفسك • هدئى روعك الآن واضطجعى ، ونامى وسأوقظك بعد ساعتين » • ثم أضاف دون أن يدع لى فرصة الاعتراض بكلمة واحدة ، أضاف يقول : « اهدئى ••• تمددى ، استريحى قليلا » • كان التعب قد حرمنى كل قدرة على المقاومة ، فأطبقت أجفانى • استلقيت على المقعد نصف استلقاء وأنا أنوى أن لا أسهد الا نصف ساعة • ولكننى نمت حتى الصباح ولم يوقظنى بوكروفسكى الا حين آن أوان تجريع أمى الدواء •

استرحت أثناء النهار فى اليوم التالى ، وفيما كنت أتهيأ للسهر على أمى فى الليل جالسة قربها ، عازمة فى هذه المرة على أن لا أغفو البتة ، اذا بباب غرفتنا يقرع • انها الساعة الحادية عشرة • فتحت الباب فاذا أنا أمام بوكروفسكى •

قال : « قدرت أنك ستشعرين بالسأم ساهرة وحدك هنا • فجئتك بهذا الكتاب تقرئينه عسى أن يساعدك على تزجيه الوقت » • تناولت منه الكتاب • لا أذكر ماذا كان عنوانه • بل أشك فى أن أكون قد فتحته ، رغم اننى ظللت ساهرة طول الليل • ان اضطرابا نفسيا غريبا كان لايتيح لى أن أنام • كنت لا أقوى على البقاء فى مكان واحد • فكثيرا ما أترك مقعدى وأطفق أسير فى الغرفة • ان نوعا من فرح عميق ملأ نفسى وأغرق وجودى كله • تأثرت أشد التأثر من النفاتة بوكروفسكى هذه • شعرت بالفخر من اهتمامه بى هذا الاهتمام ، ومن تحمله هذا العناء فى سبيلى • لبثت الليل كله لا أزيد على أن أتأمل وأحلم • ولم يعد بوكروفسكى • وكنت أقدّر على كل حال انه لن يعود هذه المرة ، وكنت أحاول أن أتصور ما لعله سيحدث فى المساء القادم •

وفى مساء الغد ، بعد أن رقد كل من فى البيت ، فتح بوكروفسكى

باب غرفته فوقف على العتبة يبادلني الحديث • لم أحفظ شيئا من الكلام الذي تبادلناه في تلك المرة • كل ما أتذكره أن الخجل قد شلني وانني كنت مضطربة ، وانني كنت في الوقت نفسه غير راضية عن نفسي ، حتى لقد كنت أنتظر انتهاء هذا الحديث بصبر فارغ ، رغم انني تمنيته من أعماق قلبي ، ورغم انني كنت أحلم به منذ الصباح ، وأهيىء له الاسئلة والاجوبة سلفا ••• كان ذلك المساء بداية الصداقة التي انعقدت بيننا • فاصبحنا ، طوال مرض أمي ، نجتمع في كل ليله عدة ساعات • استطعت ان انتصر على خجلي شيئا بعـــد شيء ، رغم ان كل حـــديث بيني وبين بوكروفسكي كان يخلف امرا من الامور يثير عدم رضاي عن نفسي • على انني كنت ألاحظ بفرح خفي وارتياح مبعثه حب الذات ، انه اصبح يهمل من أجلي كتبه المقيتة • وفي ذات يوم وقع الحديث ، من قبيـــل المزاح ، على حادثه الرف الذي هوى والكتب التي تدهورت على الارض • كانت لحظة غريبة ، أظهرت فيها صراحة مفرطة ، وصدقا بالغا • ان حميا عجيبة وحماسة ســـديدة قد دفعتاني الى أن أقـــول له الحقيقة كلها ••• اعترفت له بكل شيء : اعترفت له بأنني أردت أن أثقف نفسي ، أن أملأ فكري ••• وانه كان يحنقني أشد الحنق أن أعد صبية صغيرة ، وأن أعامل كما تعامل طفلة ••• أعود فأقول انني كنت في حالة نفسية غريبة ••• كان قلبي يضعف ، وكانت الدموع ترقرق في عيني ••• لم أخف عنه سيئا •• بحت له بكل شيء ، بكل شيء ••• بالصداقة التي أشعر بها نحوه ، برغبتي في أن أحبه ، في أن أحيا على صلة به ، في أن أكون له عزاء وسلوى ، في أن أشجعه وأشد أزره • فكان ينظر الي نظرة غريبة، وقد ذهل عن نفسه ، واضطرب وجهه ، وعقل لسانه فما يقول كلمة • وأحسست فجأة بمرارة عميقة وحزن كبير • خيل الي انه لايفهمني وانه ربما كان يسخر مني ويهزأ بي • فطفقت أبكي ، وانفجرت أنشج كما

تنشج طفلة ، عاجزةً عن كبح جماح نفسى مزيدا من الكبح . واعترتنى تشنجات كأنها تشنجات نوبة عصبية . فامسك بوكروفسكى بيدى واغرقهما قبلا ، وضمنى الى صدره ، وقال لى كلاما عذبا بصوت مواس رفيق . كان هو نفسه متأثرا أشد التأثر . لا أذكر ماذا قال لى . ولكننى أعرف أننى كنت أبكى وأضحك على التوالى ، وأن وجهى قد تخضب بحمرة قانية ، واننى شعرت من شدة فرحى باننى لا استطيع ان انبس بكلمة واحدة . وكنت أشعر مع ذلك ، ورغم انفعالى ، بأن بوكروفسكى لايزال يحس بشىء من الحيرة والحرج والضيق . انه لم يفق من دهشته التى اثارها فيه اندفاعى وآثارتها فيه حماستى حين أدرك عندى ما ادركه من هذه الصداقة المفاجئه التى تبلغ هذا المبلغ من العنف والجموح والقوة . لعل سيئا من التعجب قد سيطر عليه فى أول الامر . لكن تردده زال بعد ذلك ، فاذا هو يرد على صداقتى بمثلها بساطة وصراحه وانطلاقا ، واذا هو يستجيب لكلماتى العاطفية وتعلقى وحفاونى ، فيقابلنى بعاطفة كعاطفتى، ويعاملنى معاملة صديق مخلص وأخ حق . تفتح قلبى فى هـذا الجو الدافىء ، وشعرت ببهجه كبيرة وسعادة عظيمة ... لم أكتم عنه شيئا ، ولم أخف عنه شيئا ، وأصبح يلاحظ هو ذلك ، فيشتد تعلقه بى يوما بعد يوم .

لا أتذكر ، على وجه الدقة ، الأحاديث التى جرت بيننا ، لا أتذكر جميع ما قاله كل منا لصاحبه خلال ساعات كانت شاقة ممتعة فى آن واحد، ساعات طويلة قضيناها معا فى الليل على أضواء السراج المهتزة قرب أمى المسكينة المريضة ... هل هناك شىء لم نتحدث فيه ؟ كنت أقول له كل ما كان يخطر ببالى ، كل ما كان ينبجس عفـوا من قلبى ، كل ما كان يخرج من فمى دون أن أستطيع له دفعا ... وكنا قريبين من السعادة كل القرب فى تلك اللحظات ... آه ما كان أملأ ذلك الوقت بالحزن والسعادة

معا ! انني حتى هذه الساعة أشعر بالسعادة والحزن كليهما حين أتذكر ذلك الأوان • والذكريات حزينة دائما سواء أكانت ذكريات فرحة أم كانت ذكريات مرة • ذلك شأني أنا على كل حال • غير أن هذا الحزن عذب كذلك • ففي الساعات التي ينوء فيها القلب بعبء الشقاء ، حين تستبد كآبة ثقيلة بالنفس التي صارت من المحن في ظلام ، تأتي الذكريات فتنعش النفس وتحييها ، مثلها كمثل تلك القطرات من الندى التي تضعها رطوبة المساء على الأزهار بعد نهار خانق ، فتبعث الحياة في هذه الاوراق الحزينة التي كادت تصوحها أشعة الشمس المحرقة •

وأبلت أمي من مرضها ، ولكنني ظللت أسهر الليل كله قرب سريرها • كان بوكروفسكي يجيئني ببعض الكتب أحيانا كثيرة • فكنت في أول الامر أقرأ من أجل ألا أنام ، ثم صرت اقرأ بشيء من الاهتمام والشغف ، ثم أصبحت في النهاية أقرأ بنهم شديد وشراهة قصوى • ان عالما جديدا كنت أجهله قبل ذلك ولم يخطر لي ببال ينبجس الآن أمام بصري • ان القراءة تفجر في نفسي أفكارا ومشاعر تزدحم الآن في قلبي هادرة صاخبة • وكلما كان الجهد الذي يجب أن أبذله من أجل تمثل هذه الأفكار الجديدة أكبر ، وكلما كان الاضطراب الذي تبثه في نفسي أشد ، كان تقديري لهذا الاغتناء الروحي الذي يقلبني رأسا على عقب أشد • أمور كثيرة انبجست في قلبي وتراكمت فيه تترى • لقد قام في نفسي سديم غريب يتسلل الى أعماق كياني • لكن هذا العنف الروحي لم يستطع أن يخل بتوازني تماما • كنت فتاة حالمة ، وهذا ما أنقذني •

ولما شفيت أمي من مرضها ، انقطعت لقاءاتنا الليلية وأحاديثنا الطويلة التي كنا نتبادلها على خلوة • اننا لا نزال نستطيع أن نتبادل بعض الكلمات من حين الى حين ، وهي كلمات تافهة ليست بذات قيمة أو دلالة • ولكن

كان يحلو لى أن أهب لها قيمة خاصة وأن أحملها معانى مضمرة • كانت حياتى غنية ملأى ، وكنت أنا هانئة مطمئنة ، وكانت روحى تفيض سعادة عذبة هادئة • وانقضت على هذه الحال أسابيع ••

وفى ذات يوم جاء يزورنا العجوز بوكروفسكى ، فثرثر معنا مدة طويلة • كان يبدو أكثر ابتهاجا وأشد نشاطا وأغزر تدفقا فى الكلام مما عهدناه فيه • كان يفيض حياة ، ويضحك بغير توقف ، ويتندر على طريقته فى التندر • وكشف لنا أخيرا عن سبب حماسته ، فأنبأنا أن عيد ميــلاد باتنكا سيكون بعد أسبوع تماما ، وانه سيجىء يزور ابنه فى هذه المناسبة• وأسر الينا انه سيرتدى لهذا العيد صديرة جديدة ، وأن امرأته قد وعدته بأن تشترى له حذاءين جديدين • كان العجــوز يطفح ســعادة ، ويلقى الكلام على عواهنه طولا وعرضا •

عيد ميلاده ! أصبحت فكرة عيد الميلاد هذه لا تدع لى راحة فى نهار ولا فى ليل • قررت أن أجدد صداقتى مع بوكروفسكى بتقديم هدية له مهما كلف الامر • ووقع اختيارى على الكتب • كنت أعرف انه يتمنى الحصول على المجموعة الكاملة لمؤلفات بوشكين فى طبعتها الأخيرة ، فأردت أن أشــتريها له • اننى أملك ثلاثين روبلا لنفسى هى ثمرة أعمــالى فى الخياطة • لقد ادخرت هذا المبلغ لأشترى ثوبا جديدا• فما لبثت أن أرسلت الطاهية العجــوز ماترينا تسأل لى عن ثمن مجموعة مؤلفــات بوشــكين • ويلاه ! ان المجلدات الأحد عشر تكلف مع نفقات التجليد ستين روبلا فى أقل تقدير • فمن أين آتى بهذا المبلغ ؟ فكرت طويلا دون أن أهتدى الى حل • لا أحب أن أسأل أمى شيئا من المال ، ولو سألتها أن تعطينى ما أنا فى حاجة اليه لما منعته عنى حتما ، ولكن جميع من فى المنزل سيعلمون عندئذ بنبأ هذه الهدية ، وستعد الهدية عنــدئذ مكافأة لبوكــروفسكى على

الدروس التى أعطانيها سنه كامله • اننى أحب أن أنفرد بتقديم هدية له على غير علم من الآخرين • أما ما تحمله فى سبيلى من عناء ، فكنت أرغب فى أن أظل ممتنة شاكرة له اياه ما حييت ، دون أن أهب له أى مكافأة عليه عدا صداقتى • واكتشفت آخر الأمر وسيلة للخروج من المأزق •

كنت أعرف أن فى امكان المرء أن يحصل ، لدى بعض بائعى الكتب القديمة تحت فناطر جوستينى ، على كتب بنصف ثمنها بعد شيء من المساومة •• وقد يُعثر عندهم فى بعض الأحيان على كتب بحالة جيدة حتى لتكاد تكون جديدة • فقررت قرارا حازما آن أذهب الى هنالك فى أول فرصة • وما لبثت هذه الفرصة أن عرضت فى الغداة • هنالك أشياء كان يجب شراؤها للمنزل ، فأما أمى فكانت متعبة لا تقوى أن تخرج لشرائها ، وأما آنا فيدوروفنا فقد انتابتها يومئذ نوبة كسل من حسن حظى ، فعهـــد الى بالخروج لشراء الأشياء • فذهبت الى القناطر تصحبنى ماترينا •

وواتانى الحظ فسرعان ما وقعت على مؤلفات بوشكين مجلدة تجليدا جميلا جدا ، فاخذت اساوم البائع على ثمنها • حدد لها فى أول الامر ثمنا يفوق ما يدفعه المرء فى المكتبات ثمنا لكتب جديدة ، ثم توصلت بالمساومة، وفى غير قليل من العناء والحق يقال ، وبعد أن تظاهرت بالانصراف غير مرة ، أن أحمل البائع على انزال السعر ، بتخفيض بعد تخفيض، الى عشر روبلات فضة • ألا ما كان أشد فرحى بمناقشته ! وكانت ماترينا المسكينة تتساءل ماذا دهانى ولماذا خطر ببالى فجأة أن أشترى مثل هذا العدد الكبير من الكتب • غير اننى لا أملك ، وأسفاه ، الا ثلاثين روبلا ورقا ، والبائع يرفض أن يبيعنى الكتب بسعر أقل من السعر الذى نزل اليه آخر الأمر • فتوسلت اليه ، وألححت فى التوسل ، فاستطعت أخيرا أن أثنيه عن عزمه • غير أنه رفض أن يزيد التخفيض الجديد على روبلين ونصفا ، وحلف أنه

ما كان ليتنازل هذا التنازل كله لأحـد غيرى ، فهـو قد خفض السعر الى هذا الحد الأقصى مراعاة لى ، لأننى فتاة لطيفـة • لا يزال ينقصنى اذن روبلان ونصف روبل حتىأتم الصفقة • وأوشكت أن أبكى أسفا وحسرة. غير أن ظرفا لم يكن فى الحسبان لم يلبث أن أنقذنى من الورطة •

فغير بعيد منى ، على طرف منضدة أخرى مثقلة كتبا، لمحت العجوز بوكروفسكى وقد خف اليه واحتشد حوله أربعـة أو خمسـة من بائعى الكتب القديمة • كانوا قد حيروه بعروضهم المتناقضة ، فهو يبدو تائها كأنه فقد البقية الباقية من عقله • كان كل واحد من البائعين يطرى له بضاعته ، ولا يعلم الا الله ما الذى كانوا يعرضونه عليه ، وما الذى كان يمكن أن يشتريه • كان العجوز المسكين يبدو ضائعا فى وسطهم لا يعرف من يجيب ولا من يصدق • فاقتربت منه وسألته ماذا يفعـل هنا ، فما كان أشـد ابتهاجه برؤيتى ! •• لقد كان يحبنى حبا لا حدود له ، حبا لعله لا يقل عن حب ابنه باتنكا • قال لى شارحا : « أريد أن أشترى كتبا يا فرفارا الكسييفنا •• كتبا لابنى باتنكا • ان عيد ميلاده قريب ، وهو يعبد الكتب عبادة ، لذلك جئت أشترى له بعض الكتب •• » •

ان طريقه العجوز فى الكلام طريقة مضحكة فى العادة ، فكيف اذا أضفت اليها ما كان فيه من اضطراب حينـذاك ؟ كان أى كتـاب يقع عليه اختياره ، يطلب البائعون ثمنه روبلا فضه ، أو روبلين ، أو ثلاثه ، حتى أصبح لا يجرؤ أن يسأل عن أسعار الكتب الكبيرة بل يكتفى بأن يلقى عليها نظرات تنم عن الرغبـة فيها ، ويقلبهـا بين يديه قبل أن يردها الى موضعها ، ويدندن قائلا بصوت خافت : « لا ، لا ، هذه باهظـة الثمن ، لعلنى واجد شـيئا آخر هنـاك » ، ثم يأخـذ ينبش بين دفاتر الموسيقى والأضابير والتقاويم المكدسة أكواما تباع جملة •

قلت له :

ـ لماذا تفكر فى شراء مثل هذه الضبار ؟ انها ليست بذات قيمة •

فأجاب :

ـ لا ، لا ، لن أشترى منها • انظرى هناك• ثمة كتب صغيرة رائعة، كتب صغيرة لطيفة جدا •

قال هذه الكلمات الآخيرة بصوت يبلغ من البطء والحـزن والوهن اننى احسست أنه يوشك أن يبكى أسى لأن الكتب الجميلة باهظة الثمن • حتى لقد رأيت عبرة تنهمر من عينيه وتسيل على خديه الشاحبين وأنفـه الأحمر • فسألته كم معه من المال ، فأخرج المسكين جميـع النقود التى كان يملكها ملفوفة بورقة قذرة من أوراق الجرائد ، وقال : « هذا مامعى : خمسون كوبيكا ، ثم خمسة وعشرون كوبيـكا ، ثم ما يسـاوى عشرين كوبيكا من النقود النحاسية » •

فأسرعت أجره نحو بائع الكتب القديمة التى كنت أساومه على شراء مؤلفات بوشكين • وقلت له : « هذه الكتب الأحد عشر لا يساوى ثمنهـا مجتمعة الا اثنين وثلاثين روبلا ونصف روبل ورقا • معى أنا منها ثلاثون روبلا ، فاذا أضفت اليها أنت روبلين ونصفا اشتريناها كلها هدية مشتركة الى باتنكا » •

جن العجوز فرحا ، ووضع على المنضدة جميع النقود التى كانت معه ، فحمّله البائع مكتبتنا المشتركة • دس العجوز الطيب بعض الكتب فى جيوبه ، ووضع بعضها الآخر تحت ابطيه ، وحمل الباقى بيديه ، ومضى بها الى داره واعدا أن يجيئنا بها فى الغد سرا دون أن يراه أحد •

وجاء يزور ابنه فى اليوم التالى ، ولبث عنده قرابة ساعة على عادته ،

ثم دخل علينا وجلس قربى وقد لاحت فى وجهه امارات مضحكة تعنى أنه يكتم سرا ويخفى أمرا • كان يبتسم ويفرك يديه ، فرحا كل الفرح بأنه يحمل سرا ، ثم شرح لى أنه نقل الكتب الى منزلنا دون أن يراه أحد ، وأنه خبأها فى ركن من المطبخ بحراسة ماترينا • وانتقل الحديث بعد ذلك الى عيد الميلاد الذى ننتظره • فأطنب العجوز فى الكلام على الطريقة التى سنعمد اليها فى تقـديم الهدية لابنه ، فكان كلما ازداد توغلا فى هـذا الموضوع ظهر عليه أن قلبه منقل بأمر لا يستطيع أن يتكلم فيه ، ولا يجرؤ أن يتكلم فيه ، كأن شيئا من الخشية يصده عنه • فكنت أنتظر صامتة • لقد اختفى ذلك الفرح الخفى ، وذلك الرضى النفسى اللذان كنت أقرؤهما حتى ذلك الحين واضحين كل الوضوح فى حركات يديه وجعدات وجهه وغمزات عينه اليسرى ، وأصبح قلقه وحزنه يزدادان دقيقة بعد دقيقة ، ثم لم يستطع أن يكظم ما فى نفسه ، فبـدأ يقول خائفـا بصـوت متردد متلعثم :

ـ اسمعى يا فرفارا ألكسييفنا •• هل تعـرفين ماذا يا فـرفارا ألكسييفنا ؟ ••

انه مضطرب أشد الاضطراب •

ـ اليك الأمر : حين يجىء عيد ميلاده ، تأخـذين أنت عشر كتب فتقدمينها هدية منك اليه ، منك وحدك ، وآخـذ أنا الكتاب الحادى عشر فأقدمه هدية منى ، منى أنا وحدى • فبهذه الطريقة تقدمين أنت هدية اليه ويتاح لى أن أقدم أنا أيضا هدية •

هنا اضطرب العجوز وصمت • ونظرت اليه : انه ينتظر قرارى على خجل ولهفة وهم فى آن معا •

قلت له :

ـ ما الذى يحملك على العدول عن هـدية نشترك فى تقديمها معا يا زاكار بتروفتش ؟

ـ ذلك •• يا فرفارا ألكسيفنا •• ذلك •• اننى قدّرت •• اننى •• لاننى •••

وازداد اضطرابه ، فاحمر وجهه وتلعثم لسانه وجمد لا يتحرك •

وقال أخيرا يشرح رأيه :

ـ اسمى يا فرفارا الكسيفنا ••• انه يتفق لى احيانا ان اسـير فى طريق الضلال و ••• اريد ان اقول ان من واجبى ان انبئك باننى اسير دائما فى طريق الضلال ••• دائما ••• على وجه التقريب •• فما اكاد اكف عن السير فى هذا الطريق حتى اعاود السـير فيه ••• انا سجين عادات سيئة ••• أفعل ما ينبغى ألا أفعله ••• هل فهمت ما أريد أن اقول ؟ ••• يكون الجو باردا جدا فى بعض الايام ، وا كون انا مثقـلا بانواع الهموم والاحزان ، بل قولى ان الحزن يعترينى على حين فجاه ، فيكفى أن يقع لى سىء مزعج حتى أفقد قدرتى على ضبط نفسى ••• فاذا أنا أسير فى طريق الضلال ••• أشرب كأسا أو كأسين زيادة • ويستاء منى بتروشا عندئذ استياء شديدا ، ويغضب غضبا قويا يا فرفارا ألكسيفنا، ويأخذ يلومنى ويقرعنى ويعظنى وينصحنى بغير انقطاع ••• لذلك أريد أن أبرهن له الآن ، بهذه الهدية التى سـأهديها اليه ، اننى قد أصلحت ما فسد من أمرى ، واننى بدأت أسلك فى الحياة سلوكا حسنا • أريد أن أريه اننى وفرت بعض القروش لأشترى كتابا ، أريد أن أريه اننى ظللت أدخر زمنا طويلا حتى جمعت ما أشترى به كتـابا • ذلك أننى

لا أملك من المال الا ما يعطينيه بتروشا من حين الى حين ، وهو يعلم ذلك، فسيرى اذن ماذا أفعل بالدريهمات التي ينفحني بها ، وسيرى أنني فعلت ذلك من أجله .

شعرت نحو العجوز بشفقة كبيرة . ولم ألبث أن عزمت أمرى . وكان ما يزال ينظر الىّ قلقا . فقلت له :

ــ اسمع يا زاكار بتروفتش ، ستعطيه أنت الأحد عشر كتابا كلها .

ــ كيف هذا ؟ كل الكتب ؟ أعطيه الكتب كلها ؟

ــ نعم ، كلها .

ــ منى أنا ؟

ــ نعم منك أنت ؟

ــ أى هدية اليه منى أنا ؟

ــ نعم هدية اليه منك أنت ، منك أنت .

أحسب انني قلت ما قلت واضحا كل الوضوح ولكنه لم يفهم الا بعد زمن . فعاد يقول ساهما شارد اللب :

ــ طيب ! سيكون هذا شيئا عظيما ، عظيما حقا . ولكن أنت يا فرفارا ألكسييفنا ... ماذا تفعلين فى هذه الحالة ؟

ــ الأمر بسيط . لن أهدى اليه شيئا !

صاح العجوز كمن اعتراه ذعر على حين فجأة :

ــ كيف ؟ كيف ؟ لاتهدين شيئا الى باتنكا ؟ ألا تحبين اذن أن تقدمى اليه هدية ؟

كان العجوز مدهوشا أشد الدهشة ، حزينا أبلغ الحزن ، وأحسب انه كان مستعدا للتراجع عن اقتراحه أصلا من أجل أن أستطيع أنا أن أهدى الى ابنه شيئاً • يا لقلب هذا العجوز ما أطيبه ! فطمأنته قائلة انه يسعدنى أن أقدم الى ابنه هدية ولكننى لا أريد أن أحرمه من فرحته • قلت : « اذا سر ابنك بالهدية ، وسعدت أنت بذلك ، فسأكون أنا أيضا سعيدة ، لأننى سأشعر ، فى قرارة نفسى ، بأننى أهديت اليه هذه الكتب حقا » • اقتنع العجوز بكلامى أخيرا • ولبث فى منزلنا ساعتين أيضا ، لا يستقر فى مكان ، بل ينهض ويتحرك ويصخب ويلاعب ساشا لعب الأطفال ، ويقبلنى خفية أو يقرصنى فى ذراعى ويجعد وجهه مستهزئا بآنا فيدوروفنا خلسة دون أن تراه ، حتى طردته آنا فيدوروفنا آخر الأمر • الخلاصه أن العجوز جن جنونه حماسةً كما لم يقع له ذلك يوما من قبل •

وحل اليوم العظيم ، فجاء العجوز فى الساعة الحادية عشرة تماما ، بعد الصلاة رأسا ، مرتديا ثيابا أحسن ترقيعها ، مع صديرة جديدة وحذاءين جديدين حقا ، ممسكا فى كل يد بحزمة من كتب • كنا جميعا فى تلك اللحظة عند آنا فيدوروفنا نحتسى قهوة (كان اليوم يوم أحد) • وطفق العجوز يتكلم على بوشكين فيما أظن ، قائلا عنه انه شاعر ممتاز • ثم اضطرب وارتبك وقال فجأة ان على الانسان فى هذا العالم أن يسلك سلوكا لائقا ، فاذا سلك أحد سلوكا سيئا كان لنا أن نستنتج من ذلك أنه يتبع طريق الضلالة • وأضاف يقول ان الميول السيئة تقود الانسان الى الضياع والدمار • حتى لقد استشهد بحالات من الافراط والانحلال تستحق أن تكون عظة وعبرة ، وأعلن فى ختام كلامه أنه قد أصلح نفسه منذ زمن ، وان سلوكه أصبح سلوكا سليما لا غبار عليه ولا عيب فيه ، سلوكا يمكن أن يعد قدوة ، وانه كان قد أحس من قبل بصدق مآخذ

ابنه عليه ، وأدرك منذ زمن طويل أنها صحيحة كل الصحة ، فعزم أمره على اتباع وصاياه ، فاستطاع أن يصل الى ذلك حقا ، فهو الآن قد كف عن الشراب لا قولا بل فعلا ، والدليل على ذلك انه يهدى الى ابنه هذه الكتب التى اشتراها بما ادخر من مال خلال مدة طويلة .

كنت أصغى الى كلام العجوز فما أستطيع أن أمسك عن الضحك والبكاء معا الا فى كثير من العناء . انه يعرف كيف يحسن الكذب عند الضرورة .. حُملت الكتب الى غرفة بوكروفسكى ، ووضعت على أرضها . وحزر بوكروفسكى الحقيقة فورا . ودعى العجوز الى تناول طعام الغداء معنا . فكنا جميعا سعداء كل السعادة طوال ذلك اليوم . وبعد الغداء لعبنا بالورق . وأكثرت ساشا من الحركة منقادةً لطبعها الحى ، ومزاجها العنيف .

وجاريتها أنا فى ذلك . وأظهر بوكروفسكى اهتماما خاصا بى ، حتى لقد حاول مرارا أن يكلمنى على انفراد ، ولكننى لم أستجب له . كان ذلك اليوم أسعد أيام حياتى فى تلك السنين الاربع .

أصل الآن الى ذكريات حزينة موجعة . ان كل ما تلا ذلك كان أليما شاقا . سأتكلم الآن عن الأيام السود من حياتى . وربما كان هذا هو السبب فى أن قلمى يقاوم فيتحرك على الورق تحركا أبطأ ، كأنه يرفض أن يكتب مابقى علىَّ أن أقوله . ولاشك أن هذا هو ما خصنى على الاسترسال ، بكل ذلك الانفعال وذلك الحب ، فى سرد أدق تفاصيل حياتى المسكينة فى ذلك العهد الذى كنت فيه سعيدة . كان عهدا قصيرا جدا ثم تتالت المصائب بعد ذلك ، سوداء سوداء لا يعلم الا الله هل تنتهى فى يوم من الأيام .

ابتدأت مصائب حياتى بمرض بوكروفسكى وموته . لقد مرض

بوكروفسكى بعد انقضاء شهرين على الحوادث التى أتيت على وصفها • كان فى الأسابيع الأخيرة قد بذل جهودا كبيرة ، ذاهبا هنا وهناك من أجل أن يكفل لنفسه موردا يعيش منه ، لأن وضعه لم يكن على شىء من الاستقرار والاطراد • وظل الى آخر لحظة كسائر المصدورين يأمل أن يعيش طويلا • وقد عرض عليه أن يوظف معلما فى مكان ما، ولكن هذه المهنة كانت ترعبه • وحرمه سوء صحته من أن يعيَّن لوظيفة من وظائف الدولة ، ولو قد عين لوظيفة من هذه الوظائف لكان عليه أن ينتظر زمنا طويلا قبل ان يتقاضى شيئا من راتبه على كل حال • الخلاصة انه لم يلق الا اخفاقا بعد اخفاق فى كل جهة من الجهات ، فساء طبعه وفسد مزاجه ، وكان مرضه يتفاقم أثناء ذلك ولكنه لم يشعر بهذا التفاقم• وجاء الخريف• فكان يخرج كل يوم بمعطفه الرقيق الخفيف الذى كان يرتديه طالبا، يحاول أن يحسن أحواله بالتماس وظيفة فى أى مكان ، واستعطاء عمل من الأعمال أيا كان ، فكانت هذه المساعى تعذب نفسه عذابا مريرا • وكان الماء ينفذ فى حذائه ، وكان يعود الى البيت مبللا بالمطر ، الى أن جاء يوم اضطر فيه أن يلزم فراشه ، ثم لم يبارحه بعد ذلك الا الى القبر ••• مات فى وسط الخريف قبل نهاية شهر تشرين الاول (أكتوبر) •

أستطيع أن أقول اننى لم أكد أترك غرفته طوال مدة مرضه، أعتنى به وأسهر عليه ، حتى لقد اتفق أن أنفقت ليالى بأسرها قرب سريره • كان يندر أن يفيق من غيبوبته • انه يهذى فى كثير من الأحيان ، ويقول كلاما لا يعلم الا الله ما هو • يتحدث عن الوظيفة التى يبحث عنها ، وعن كتبه ، وعن أبيه ••• وبهذا عرفت عن حياته تفاصيل كنت أجهلها الى ذلك الحين ، بل ما كان يمكن أن تخطر لى على بال • كان جميع من فى المنزل ينظرون الىَّ نظرة غريبة فى أول عهده بالمرض ، وكانت آنا

فيدوروفنا تهز رأسها استنكارا واستياء ، ولكنني لم أغض بصرى ، فسرعان ما كفوا عن لومى على اهتمامى بالمريض ، ولا سيما أمى .

وكان بوكروفسكى يعرفنى فى بعض اللحظات ، ولكن ذلك لايحدث الا نادرا ، فلقد كان فى أكثر الأحيان غائبا عن نفسه . وسمعته فى بعض الليالى يناقش شخصا فى خيـاله مناقشة طـويلة . ان كلامه غامض مبهم لا يتميز ولا يبين ، وان صوته الذى يشبه أن يكون صادرا من كهف يدوى فى الحجرة الصغيرة دويّه فى قبر . كنت فى تلك اللحظات أشعر بخوف . وفى الليلة الآخيره خاصة ، كان بوكروفسكى فى حالة غريبه من الهياج . كان يعانى آلاما مبرحة ، فهو يئن ويتأوه ، فتمزق شكاواه قلبى تمزيقا . وظهر الذعر فى وجوه جميع من فى المنزل . حتى لقد أخذت آنا فيدوروفنا تدعـو الله أن يأخـذه اليه بأقصى سرعة . ودعى الطبيب ، فقال ان المريض سيموت فى نحو الصباح حتما .

قضى العجـوز بوكروفسكى الليـل كله فى الدهليز أمام باب غرفة ابنه ، حيث فرشوا له بساطا على الارض . كان يدخل على ابنه فى كل لحظة مستطلعا . ان منظـره مخيف حقا . كان الحـزن يسحقه سحقا ، حتى ليبدو من شدة الانسحاق فاقد الاحساس بليد الشعور . وكان رأسه يترنح جزعا . وكان جسمه كله يرتجف ويرتعش . وكان يدندن هامسا بغير توقف كأنه يجـادل نفسه . قدرت انه سيصـبح مجنـونا من فرط الأسى .

حتى اذا جاء الفجـر نام العجـوز على البساط وقد أرهقه العـذاب وأنهك قواه . وأخذ الابن يحتضر فى نحو الساعة الثانية ، فأيقظت الأب . كان بوكروفسكى صاحيا صحوا كاملا فى تلك اللحظة ، فودعنا جميعا . شىء غريب ! لم أستطع أن أبكى ، ولكن روحى كانت تتمزق .

واللحظات الأخيرة هى التى عذبتنى أكبر العذاب . ان بوكروفسكى يطلب بلسانه المتلعثم المختلط شيئا ما ، فلا أستطيع أن أفهم ماذا يريد . كان قلبى يتحطم ألما ويأسا . ظل بوكروفسكى يتحرك ويضطرب ساعة كاملة وقد تملكته رغبة عجزت عن فهمها ، فهو يحاول أن يفصح عنها باشارات من يديه الباردتين أولا ثم يأخذ يتوسل بصوت منطفىء شاك أصم تخالطه حشرجات منذ ذلك الوقت ، ولكن الكلمات التى يلفظها ما هى الا أصوات متقطعة مبهمة أظل عاجزة عن ادراكها . أتيته بجميع من فى المنزل واحدا بعد آخر ، وعرضت عليه ماء لعله يريد أن يشرب ، ولكنه كان يهز رأسه بالنفى هزا حزينا .

وأدركت أخيرا قصده . كان يطلب منى أن أزيح ستارة النافذة وأن أفتح مصراعيها . لعله كان يريد أن يلقى نظرة أخيرة على ضوء النهار ، على خليقة الله ، على الشمس . فأزحت الستارة ، ولكن ضوء النهار كان شاحبا حزينا ، كالحياة التى تنطفىء فى المسكين المحتضر .

لم يكن ثمة شمس ، فالغيوم تغشى السماء بحجاب صفيق كيف ، والجو ممطر ، وكل شىء يبدو قاتما مظلما حزينا . هذا رذاذ من مطر ينقر الزجاج ويتزحلق عليه خيوطا من الماء باردة متسخة . ان ضوء النهار لا يكاد يدخل الغرفة ، ولا يكاد يستطيع أن يكبى ضوء المصباح الصغير المشتعل أمام الأيقونة . وألقى علىَّ المحتضر نظرة أخيرة مقله بحزن كبير ، وهز رأسه . فما هى الا دقيقة واحدة حتى كان ميتا .

اتخذت آنا فيدوروفنا الاجراءات اللازمة للجنازة . اشترى تابوت بسيط ، واستؤجرت عربة صغيرة . ومن أجل أن تعوض آنا فيدوروفنا خسارتها استولت على جميع الكتب وعلى الأمتعة الشخصية التى تركها المتوفى . فاحتج العجوز وشاجرها شجارا صاخبا ، واسترد ما استطاع أن

يسترد من مجلدات حشا بها جيوبه وحشا بها قبعته ولم يشأ أن ينفصل عنها خلال الايام الثلاثة التالية ، وظل يحملها حتى حين آن أوان الذهاب الى الكنيسة • كان يبدو أنه أصبح أبله ، فهو ما ينفك يضطرب حول التابوت غبيّ الحركات كأنما هو يريد أن يحيط التابوت بعنايته ، فتارة يعدل العصبة على جبين المتوفى ، وتارة يشعل الشموع او ينقلها من موضعها • كان واضحا أن فكره لا يستطيع أن يثبت على شيء• ولم تحضر أمي ولا آنا فيدوروفنا صلاة الجنازة في الكنيسة • أما أمي فلأنها كانت تحس انها مريضة ، وأما آنا فيدوروفنا فلأنها تشاجرت في اللحظة الاخيرة مع العجوز بوكروفسكي ، بعد أن كان في نيتها أن تحضر الصلاة ، فآثرت بعد تلك المشاجرة أن تبقى في البيت • حضرت اذن صلاة الجنازة وحدي مع الاب • واعتراني أثناء القداس نوع من الغم والخوف ، كأنني أوجس شرا سيقع في المستقبل • ولم ألبث في الكنيسة الى آخر القداس الا وقد خارت قواي • وأغلق التابوت أخيرا ، وسمر ، ووضع على العربة ، فسرعان ما سارت به فورا • لم أرافق العربة الا الى آخر الشارع ، ذلك ان الحوذي لكز الحصان هنالك فأخذ يجري عدواً فكان العجوز يركض وراء العربة باكيا بصوت عال ، وكانت سرعة الركض تقطع انتحاباته • وقد سقطت قبعه العجوز عن رأسه فلم يرض أن يتوقف عن الركض لتناولها ، فكان المطر يبلل رأسه ، وهبت ريح قارسة ، فكان البرد الشديد يلسع وجهه التي تصفعه الرياح • ولكن العجوز لا يشعر بشيء ، ولا يحس شيئا ، ولا ينفك ينتقل وراء العربة من جانب الى جانب باكيا • ان أذيال « ردنجونه » الرث تطير وترتفع في الهواء كالأجنحة ، وان الكتب تخرج من جيوبه وتسقط على الارض ، ولكنه ممسك بيديه كتابا ضخما منها يبدو متشبثا به تشبث الغريق بقارب النجاة • كان المارة يرفعون قبعاتهم ويرسمون اشارة الصليب ، وكان

آخرون يتوقفون ويأخذون ينظرون الى العجوز البائس مدهوشين • وفى كل لحظة تفلت من جيوب العجوز كتب فتسقط على وحل الطريق ، فكان الناس يستوقفونه وينبهونه الى سقوط الكتب فيتناولها ويستأنف ركضه ليلحق بمركبة الميت • وقد انضمت اليه عند ناصية الشارع امرأة فقيرة أشبه بشحاذة عجوز ، فشاركته السير وراء هذه الجنازة التى لم يتبعها أحد غيرهما • وانحرفت العربة فغابت عن بصرى أخيرا • فقفلت راجعة الى المنزل ، فما ان وصلت حتى ارتميت على صدر أمى وأنا أشعر بحزن عميق لا يوصف • ضممت أمى فى ذراعى ضما قويا ، وأغرقتها بالقبل باكية منتحبة ، وشددت جسمى الى جسمها خائفة جزعة ، كأننى أحاول أن أحبس فى حضنى آخر صديق بقى لى فى هذا العالم ، لأدفع عنه الموت ••• ولكن ملاك الموت كان يحوم منذ ذلك الحين حول أمى المسكينة •

• • • • • • • • • • • • •

• • • • • • • • • • • • •

١١ حزيران (يونيه)

كيف أشكر لك ، ياماكار ألكسييفتش ، نزهة الأمس في الجزر ؟ ما أحلى طراوة الجو هنالك ، وما أجمل خضرة الطبيعة ! انني ما رأيت خضرة منذ زمن ! كنت أعتقد طوال مدة مرضي انني سأموت ، وكنت أعد موتي قريبا محتوما لا مناص منه . فلك أن تقدر اذن ماذا كان شعوري أمس أثناء تلك النزهة . لا تؤاخذني على انني كنت حزينه ذلك الحزن كله طول الوقت . والحق انني كنت مسرورة جدا سعيدة جدا . ولكن أجمل لحظات سعادتي لا بد أن يخالطها دائما شيء من حزن . ولئن بكيت قليلا فلا تعبأ بهذا ولا تلتفت اليه : أنا نفسي لا أدري لماذا أبكي في بعض الأحيان . انني حادة الشعور ، سريعة الاهتياج ، وجميع مشاعري يمازجها ألم . لعل شحوب الجو ، وصفاء السماء ، وغياب الشمس ، وهدوء الأفق، لعل ذلك كله قد ساهم في هذا ... لا أدري ... وأغلب الظن انني كنت بالأمس مهيأة لأن أحس الأشياء بنفس حزينة وقلب مثقل ، حتى لتوشك روحي أن تنفجر في بعض اللحظات ، فتنهمر الدموع من عيني على حين فجأة . ولكن لماذا أكتب لك هذه الاشياء ؟ تلك الاشياء مؤلمه ، والتعبير عنها مؤلم أكثر منها أيضا . لعلك تفهمني مع ذلك : لقد كنت فرحة حزينة في آن واحد . ما أطيبك يا ماكار ألكسييفتش ! كنت بالأمس لا تني تنظر في عينيّ بغية أن تقرأ مشاعري، وكانت نفسك تفيض حماسة اذا رأيت حماستي . عند كل غابة صغيرة نراها ، وفي كل شعب نسير فيه ، وأمام كل غدير نقف عليه ، كنت دائما تتقدمني معتزا كل الاعتزاز ، وتنظر الى عينيّ بغير انقطاع ، كأنك تطوف بي في أراضيك ، تظهرني على جمالها وتحملني على الاعجاب بها . هذا كله يشهد بأن لك قلبا طيبا نبيلا يا ماكار ألكسييفتش . وذلك بعينه هو ما يجعلني أحبك .

وداعا الآن • لقد عاودنى المرض اليوم • فان قدمى تبللتا أمس فأصابنى برد • وفيدورا متوعكة أيضا • ان بيتنا يضم الآن مريضتين اثنتين • لا تنسنى وأكثر زياراتك •

المخلصة لك : ب٠د

١٢ حزيران (يونيه)

عزيزتى فرفارا ألكسييفنا ، يا يمامتى

كنت أتوقع يا ماتوشكا ، أن أقرأ لك قصائد طويلة من شعر فى وصف ذلك النهار الذى قضيناه معا بالجزر ، ولكنك لم تكتبى الا صفحة واحدة صغيرة • واذا كنت أقول هذا ، فلأن ما كتبته قليل حقا ، ولكن ما كان أجمل ما قلته ، وما كان أروعه ! لقد ضمت رسالتك كل شىء : وصفت الطبيعة ، وصورت مناظر الريف ، وعبرت عن أنبل المشاعر والعواطف ، هل هناك شىء لم تضمه هذه الرسالة القصيرة ؟ لقد وصفت كل شىء وصفا يبعث على الاعجاب ، أما أنا فليس لى موهبة • فمهما اسوّد من صفحات وصفحات ، فاننى لا أعبر عن شىء ، ولا أصل الى شىء • لقد حاولت فما ظفرت •

تقولين ، يا صديقتى العزيزة ، اننى انسان شهم طيب القلب ، واننى عاجز عن ايذاء أحد من الناس، واننى أقدّر ماأودع الله خليقته من صنوف الجمال ، وتكيلين لى كل أنواع المديح والاطراء • هذا كله حق ياماتوشكا هذا كله صدق• أنا كما تصفين فعلا ، أعرف ذلك بنفسى • ولكن حين

أقرأ أسياء كالتي تقولينها في رسالتك ، فان قلبي يرق على غير ارادة مني ، ثم تغزوني خـواطر سود وأفكار حـزينة . اسـمعي يا ماتوشكا ، هناك ما أحب أن أقصه عليك أنا أيضا يا صديقتي العزيزة .

اعلمي أولا انني حين عينت موظفا لم أكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمري ،فخدمتي في الوظيفة تقارب ثلاثين عاما ، وسأستطيع أن أحتفل قريبا بمرور ثلاثين عاما على عملي في هذه الوظيفة . آه ما أكثر ما أبليت من أردية رسمية خلال هذه المدة ! ولقد تقدمت في السن ، وأمعنت في الجد ، ونضج فكري ، وتعلمت معرفة الناس . لقد عشت ، نعم لقد عشت؛ أستطيع أن أقول انني عشت في هذا العالم ، حتى لقد أوشكت أن أرشح لنيل وسام . قد لا تصدقين كلامي ولكنني أقول لك الحقيقة . ومع ذلك وجد اناس أشرار أساءوا الى ونالوني بأذى . لا أكتمـك يا صـديقتي الطيبة انني رجل مغلق ، رجل محدود من غير شك ، ولكن قلبي لا يقل طيبة عن قلب أي انسان آخـر ... هل تعلمين يا فارنكا ما صـنع بي أولئـك الأشرار ؟ ولكن فيم الكلام على ما صـنعوه بي ! الأحـرى أن تسأليني لماذا صنعوا بي ما صنعوه ؟ لأنني انسان بسيط رقيق هادىء طيب القلب لم يرق لهم أن أكون كذلك ، فكان لا بد أن أدفع الثمن . وهجموا عليّ . قالوا في أول الأمر : « أنت كيت وكيت يا ماكار ألكسييفتش ». ثم قالوا « أما ماكار ألكسييفتش ، فلا داعي الى الكلام عنه » ، وانتهوا الى أن يقولوا : « هو ماكار ألكسييفتش ما في ذلك ريب » . أرأيت ياماتوشكا كيف وقع هذا كله ؟ كل شيء يقع على ماكار ألكسييفتش . وجدوا أن خـير ما يفعلونه أن يشهـّروا بي في المنطقة كلها ، حتى صـار ماكار ألكسييفتش مضرب المثل ، ثم لم يكفهم أن يصبح اسمي مضرب المثل ، وأن يصبح شتيمة وسبة تقريبا، بل راحوا يهاجمون حذاءي وردائي الرسمي وشعر رأسي ، وحتى وجهي. لم يرضهم شيء فيّ، فكان عليّ أن أبدل كل

سىء على مايرضون • وهذا كله يستمر منذ زمن سحيق ، ويتكرر كل يوم• ولقد تعودت فى آخر الأمر، لأننى أتلاءم مع كل شىء ، لأننى انسان مسالم، لانتى انسان بسيط متواضع ، ولكن لماذا هذا كله ، لماذا ؟ قولى لى : لماذا هذا كله ؟ بمن ألحقت أذى ؟ هل منعت أحدا أن يرفع ؟ هل وشيت بأحد الى الرؤساء ؟ هل نلت مكافآت لا أستحقها ؟ هل دبرت مكائد ؟ هل هيأت دسائس ؟ حرام أن يظن بى ذلك ••• وهل فى وسعى أن أفعل شيئا من هذا ؟ احكمى بنفسك يا صديقتى العزيزة : هل لى من الذكاء ما يمكننى من الغدر والمكر والوقيعة • فلماذا يهاجموننى اذن ذلك الهجوم الشرير ؟ غفر الله لى ! أنت ترين اننى رجل محترم ، فأنت خير منهم جميعا يا ماتوشكا • ولنتساءل : ما أفضل الفضائل المدنية ؟ لقد صرح أوستاش ايفانوفتش مؤخرا ، أثناء حديث خاص له ، ان أفضل الفضائل المدنية هى أن يعرف المرء كيف يكدس المال • قال ذلك مازحا (أنا أعلم انه قال ذلك مازحا) ، ولكن العبرة التى يجب أن نستخرجها من قوله هى ان من واجب الانسان أن لا يكون عالة على أحد فى هذا العالم • وأنا امرؤ لا أعتمد على أحد • اننى أملك ما أضمن به لنفسى كسرة خبز • هى كسرة خبز بسيطة ، أعترف بذلك ، والخبز جاف يابس أحيانا ، هذا صحيح ، ولكنه لى ، كسبته بعملى حلالا وآكله محافظا على شرفى• فماذا يريدون منى أكثر من ذلك ؟ أنا أعلم حق العلم انه ليس بالمزية الكبيرة أن أعمل ناسخا طول النهار ، ولكننى فخور بعملى • اننى أقوم به جادا مخلصا ، وأتعب فى سبيله وأعرق • أهى خطيئة أن يعمل امرؤ ناسخا ؟ يخيل الىّ أنهم ماينفكون يهزأون بى قائلين « هه ••• هه ••• هذا ناسخ •• هذا ناسخ » . فهل فى النسخ مايشين ، هل فيه ما يلطخ الشرف ؟ ان خطى واضح جلى يسرّ الناظرين ، وصاحب المعالى راض عنه كل الرضى • اننى أنسخ لصاحب المعالى وثائق هى على جانب عظيم

من خطورة الشأن ، صحيح اننى لست بذى أسلوب • لست أجهل ذلك• أعلم اننى لا أملك شيئا من أسلوب ، لعن الله الأسلوب • لذلك لم أرتق فى وظيفتى • ولذلك أيضا أكتب اليك فى هذه اللحظة يا صديقتى العزيزة ببساطة تامة ، لا أنمق العبارات بل أقول ما أقول عفو الخاطر كما أحسه فى قلبى • أنا أعرف كل هذا • ولكن قولى : لو كان كل انسان يكتب من نفسه ولنفسه فمنذا الذى سيقوم عندئذ بعمل النسخ ؟ ذلك هو السؤال الذى أطرحه عليك ، وأطلب منك أن تقولى أأنا على حق فيه أم لا ؟ اننى أدرك اليوم أن هناك حاجة الىّ ، واننى لا غنى عنى ، وانه ليس من الخير أن يحاول الناس ازعاج انسان شريف دون ما داع الى ذلك ، وأن يناكدوه فى أمور سخيفة تافهة • فليعدونى فأرا ما داموا قد وجدوا بينى وبين الفأر شبها • أسلم لهم بذلك • ولكن للفأر ضرورته أيضا ؛ ان له نفعا فى هذا العالم ، وقد يُحرص على الفأر أحيانا ، وقد يعطى الفأر مكافآت ••• أنا فأر من هذا النوع • كفانى الآن كلاما فى هذا الموضوع ياصديقتى العزيزة ! وعلى كل حال فليس هذا ما كنت أريد أن أكتب اليك فيه • غير أننى تحمست قليلا • ومن الممتع مع ذلك أن ينصف المرء نفسه من حين الى حين • وداعا يا صديقتى العزيزة ، يا يمامتى ، يا عزاء قلبى • سأجىء اليك • سأزورك حتما ، يا شعاع ضيائى ، يا نور عينى • لا تسأمى كثيرا بانتظار ذلك • سأحمل اليك كتابا • وداعا الآن يا فارنكا•

صديقك المحب المخلص

ماكار دييفوشكين

عزيزى السيد ماكار ألكسييفتش !

أكتب اليك على عجل ، لان على أن أسرع ، فهناك شغل يجب أن أنجزه اليوم لأقدمه الى أصحابه • اسمع ما سأقوله لك : هناك فرصة موانية لصفقة مغرية • لقد قالت لى فيدورا ان لدى أحد معارفها رداء كاملا من أردية الموظفين يريد أن يبيعه ، وهو جديد تقريبا ، مع سروال وصديرة وقبعة ، ويظهر انه معروض للبيع بسعر زهيد • لست الآن فى عوز ، فلديك قليل من مال ادخرته ، قلت لى هذا أنت نفسك فلا تمانع ولا تكن بخيلا • ذلك أمر لا بد منه • انظر الى نفسك ، انظر الى ثيابك كم أصبحت خلقة بالية رثة ؟ ألا تخجل أن ترتدى هذه الثياب التى لايخلو موضع فيها من ترقيع ؟ وليس عندك رداء رسمى جديد • أنا أعرف ذلك رغم أنك تنفيه وتدعى نقيضه • الله يعلم أين ذهبت به ، أين ذهبت بالرداء الجديد ، أين بعته ! فاسمع كلامى ، واتبع نصيحتى ، واشتر هذا الرداء، أرجوك • افعل ذلك من اجلى • اذا كنت تحبنى فبادر الى شرائه •

لقد بعثت الىَّ بقمصان هديةً منك • فلماذا تدمر نفسك هذا التدمير يا ماكار ألكسييفتش ؟ لا شك أن القمصان قد كلفتك ثمنا باهظا • كيف تستطيع أن تبذل كل هذه النفقات فى سبيلى ؟ حقا انك تجد متعة فى التبذير وتبديد المال سدى • لم أكن فى حاجة الى هذه القمصان • كل هذا زائد عن الحاجة • أنا أعلم حق العلم انك تحبنى ، لا شك فى ذلك قط • صدق انك لست فى حاجة الى تذكيرى به عن طريق الهدايا • انه ليشق على نفسى قبول هذه الهدايا منك • فأنا أعلم انها تكلفك نفقات باهظه • كفى هدايا • أقول لك هذا مرة واحدة • هل تفهمنى؟ أرجوك، أتوسل اليك أن تكف • وتسألنى يا ماكار ألكسييفتش أن أبعث اليك بتتمة ذكرياتى • انك تتمنى أن أنجز كتابتها كاملة • لا أدرى كيف فعلت حتى كتبت ما سبق أن بعثت به اليك لتقرأه ، ولكننى أعتقد اننى لن أملك من

القوة ما يمكنني من الرجوع الى الماضي • انني أوثر أن أنسى هذا الماضي• تلك ذكريات أخاف منها • أما أمي المسكينة التي تركت ابنتها الشقية فريسة لهؤلاء الشياطين فان الكلام عنها يشق على نفسي أكثر من الكلام عما عداها أيضا • ان دمي يفور في قلبي حين أفكر فيها • كل هذه الأمور ما تزال حية في نفسي • لم يتسع وقتي لأن أثوب الى رشدي تماما بل ولا أن أهدأ بعض الهدوء رغم أن سنة بكاملها قد انقضت منذ ذلك الحين • ثم انك تعلم كل شيء على كل حال •

حدثتك عن أحوال أنا فيدوروفنا الآن • انها تصفني بالعقوق ، وتتنصل من كل تبعة ، وترفض اتهامها بأنها كانت شريكة بيكوف في ذنبه• وهي تدعوني أن أعود الى منزلها ، قائلة ان تظاهري بأنني ضحية لايخدعها عن أمري ، وانني أسير في طريق الضلال • وهي تعد بأن تصلح الأمور مع السيد بيكوف ، وأن تجبره على اصلاح أخطائه نحوي اذا أنا عدت الى منزلها • وقد أكدت ان السيد بيكوف على استعداد لأن يمنحني بائنة • انني أوثر أن أتجاهله • انني مرتاحة هنا ، معك ، ومع فيدورا الطيبة التي يذكرني اخلاصها بالمرحومة مربيتي • أما أنت فانك تحميني بسلطة اسمك ، رغم انك لاتمت الي الا بقربى بعيدة • انني أعرف أولئك الناس على حقيقتهم • سأحاول أن أنساهم اذا استطعت ذلك • ماذا يريدون مني بعد كل ما فعلوا ؟ فيدورا ترى أن ذلك كله ليس الا أقاويل يتقولونها ، وانهم سيدعونني وشأني هادئة آخر الأمر • أسأل الله أن يصدق رأيها •••

ب • د

يا يمامتي ، يا ماتوشكا !

أريد أن أكتب اليك ، ولكنني لا أعرف من أين أبدأ • أليس غريبا يا ماتوشكا أن نحيا الآن هذه الحياة أنا وأنت ؟ أقول هذا لأنني لم أعش

طوال حياتى الى الآن أياما حافلة بسعادة كهذه السعادة ، كأن الله قد شاء أن يهب لى بيتا وأسرة • ولكن ياابنتى، ياابنتى الصغيرة المعبودة، ما هذا الذى تقولينه بصدد تلك القمصان الأربعة الصغيرة التى أرسلتها اليك ؟ انك فى حاجة اليها ، علمت ذلك من فيدورا ، وانها لسعادة كبيرة لى يا ماتوشكا أن أستطيع تلبية رغباتك وتحقيق أمنياتك • فلا تحرمينى من هذه السعادة، لا تحزنينى ، لا تثيرى الاعتراضات تلو الاعتراضات طول الوقت • لم أعرف فى حياتى كلها فترة كهذه الفترة ، ولا عهدا كهذا العهد • لقد بدأت أعرف ما هى الحياة ، وأخذت أسير قدما فى هذا العالم : فأنا أشعر أولا بأننى أعيش حياة مضاعفة لأنك تسكنين على مقربة منى فيعزينى هذا كثيرا • وثانيا فان ساكنا من سكان منزلنا قد دعانى الى احتساء الشاى معه اليوم • انه جارى راتازاييف ، الموظف الذى ينظم السهرات الادبية فى غرفته • سيُعقد اجتماع فى هذا المساء ، وسنتحدث فى الأدب • هذا ما نفعله الآن يا ماتوشكا ، هكذا نحن الآن ، ووداعا الى حين • أكتب هذا كله عفوا ، لغير ما غاية ، لا لشىء الا أن أعلمك اننى بخير ، ان صحتى حسنة • أبلغتنى ، ياروحى اللطيفة ، بواسطة تيريز ،انك فى حاجة الى قليل من الحرير المصبوغ لأشغالك فى الخياطة • سوف أشتريه لك يا ماتوشكا • سوف أشتريه لك • وسوف أشترى حريرا أيضا • سوف يسعدنى أن ألبى طلبك منذ الغد • ثم اننى أعرف أين تباع هذه الأشياء • بانتظار ذلك أظل :

صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

٢٢ حزيران (يونيه)

عزيزتي السيدة فرفارا ألكسييفيينا !

يجب أن أبلغك ، يا صديقتي العزيزة جدا ، أن مصيبة كبيرة قد وقعت في منزلنا ، وهي حادث يثير أعمق العطف والشفقة . في نحو الساعة الخامسة من هذا الصباح خطف الموت أحداً أولاد السيدة جورشكوف . لا أعلم المرض الذي أصيب به ، لا أدري أهو الحصبة أم هو مرض آخر ، وقد زرت أسرة جورشكوف هذه : أناس تعساء يا ماتوشكا . ما أقسى البؤس الذي يعيشون فيه ! وما أشد الفوضى في غرفتهم أيضا ! على أن هذا ليس بالأمر الذي يثير الدهشة : ان الأسرة كلها تعيش في غرفة واحدة ، قسمت قسمين بحاجز بسيط من قبيل الحشمة . لقد استطاعوا أن يحصلوا على تابوت صغير ، بسيط جدا لكنه جميل : اشتروه جاهزا . ان الولد المتوفى صبي في العاشرة من العمر كانوا يعقدون عليه آمالا كبارا . ان رؤيتهم تؤلم النفس حقا يا فارنكا . الأم لا تبكي أبدا ، ولكن من يراها يحس ان حزنا رهيبا يسحق قلبها سحقا . مسكينة . لعل موت الصبي قد خفف عنهم عبء اطعام شخص . ولكن ما يزال عندهم اثنان ، رضيع وبنت صغيرة عمرها ست سنين أو تزيد قليلا . أية بهجة يمكن أن يشعر بها المرء حين يرى طفلا يتألم ، وحين يكون هذا الطفل فلذة كبده ، ثم هو لا يستطيع أن يدفع عنه الأذى وأن يساعده في شيء ، أما الأب فقد كان جالسا على كرسيه المهتز ، بثيابه المهترئة القذرة ، لا يتحرك من مكانه ، ولكن الدموع تسيل على خديه . لعله لا يبكي حزنا بل يبكي هكذا ، من قبيل العادة ، لأن عينيه تخضلان من فرط ما أفسدهما البؤس والضعف . انه غريب جدا ، هذا الرجل ، ما يكاد المرء يخاطبه بكلمة حتى يحمر ويضطرب ويرتج عليه فما يستطيع

جواباً. ورأيت البنت الصغيرة ، بنته ، متكئة على التابوت بوجه صغير مهموم حزين . مسكينة ! لاأحب ياعزيزتي فارنكا ، لاأحب أن أرى الاطفال مطرقين مفكرين ، هل تعلمين ؟ ليس منظرهم عنـدئذ بالمنظر الذي يسر القلب ! وكان ملقى على الارض شيء يشبه أن يكون «عروساً» من خرق، ولكن البنت لا تلعب بها. ظلت هنالك واقفة لا تتحرك، وقد أسندت احدى أصابعها الصغيرة الى فمها . أعطتها صاحبة البيت قطعة سكر ، فلم تأكلها. منظر حزين يا فارنكا ، أليس كذلك ؟

ماكار ديفوشكين

٢٥ حزيران (يونيه)

أرد اليك الكتاب الذي أعرتنيه ، هذا كتاب تستحيل قراءته . ان المرء ليخجل أن يمسكه بيده . أين وقعت على هذه الجوهرة الثمينة ؟ دعنا من المزاح ، هل تحب الكتب التي من هذا النوع حقا يا ماكار ألكسيفتش؟ لقد وعدوني هنا منذ حين بأن يأتوني بشيء أقرؤه . سأعيرك الكتاب اذا شئت . أما الآن فالى اللقاء .

حقا ان وقتي لا يتسع لكتابة مزيد .

ب . د .

٢٦ حزيران (يونيه)

عزيزتي فارنكا !

الواقع انني لم أكن قد قرأت هذا الكتاب يا ماتوشكا . وانما طافت عيناي على بضعة أسطر منه ، فبدا لي مسليا ، وقدرت أن صاحبه كتبـه

ليضحك الناس ، وقلت لنفسي عندئذ : لا بد أن يكون مضحكا جدا ، وقد يحظى باعجاب فارنكا ٠ فلذلك أرسلته اليك ٠

لقد وعدني راتازاييف بأن يعيرني أدبا شائقا ذا قيمة ٠ هكذا سيكون عندك كتب يا ماتوشكا ٠ ان راتازاييف يفهم أمور الأدب ٠ انه رجل على جانب عظيم من العلم ٠ وهو نفسه يكتب ٠ ان له قلما سريع الحركة نشيطا ٠ ويا لأسلوبه ما أجمله ! انه لذو أسلوب في كل كلمة يقولها ٠ شيء لا يصدقه عقل ٠ في أبسط جملة ، في الجملة المبذولة ، في جمله من الجمل التي يمكن أن أقولها أنا مثلا لفالدوني أو تيريز ، يستطيع هو أن يبث أسلوبا جميلا ٠ انني أحضر سهراته أيضا : ندخن الغليون ، ويأخذ يقرأ لنا ، وتستمر القراءة أحيانا خمس ساعات متتالية ونحن نصغي اليه ٠ لذة كبيرة ، متعة عظيمة ، جمال رائع ، أزهار ، أزهار طول الوقت: في كل صفحة تستطيعين أن تجمعي باقة من أزهار ٠ ثم ان الرجل لطيف طيب القلب ، دمث الخلق ٠ ما أنا أمامه ؟ لا شيء ، لا شيء البتة ، انه ذو سهرة ، أما أنا فماذا أنا ؟ لا شيء ! أنا لاوجود لي قط ٠ ومع ذلك فهو لطيف جدا في معاملتي ٠ انني أنسخ له بعض الاشياء ٠ ولكن اياك أن تتخيلي يا فارنكا أن وراء هذا غرضا ، وانه يلاطفني لأنني أنسخ له هذه الاشياء ٠ أبدا ، لا تصدقي وشايات كهذه الوشايات يا ماتوشكا ٠

لا تصدقي وشايات دنيئه كهذه الوشايات ، لا ، لا ، انني أقوم له بهذا العمل من تلقاء نفسي ، بملء ارادتي ، أنسخ كتاباته لأسره ، فاذا لاطفني فليسرني هو أيضا ٠ هذا أكيد ٠ انه رجل طيب ، طيب جدا ، وهو كاتب لا مثيل له ٠

الأدب شيء حسن يا فارنكا ، شيء جميل ، عرفت هذا أول أمس ٠ وهو شيء عميق ، انه يثبت القلب ، وينقف العقل ، وما الى ذلك ٠ لا أذكر

كل ما قالوه عن هذا الموضوع فى كتابهم • كان كتابا جيد الاسلوب ، الأدب لوحة أعنى لوحه ومرآة ، يجد فيه المرء أهواء وتعبيرا ، ونقـدا مرهفا غاية الرهافة ، وتعاليم تقوّم الاخلاق ، ووثائق •• تعلمت هـذا عندهم ، هذا كله تعلمته عندهم • أعترف لك بصراحة يا ماتوشكا اننى حين أجلس بينهم مصغيا اليهم (مدخنا غليونا متلهم) فأسمعهم يتناقشـون ويتكلمون فى أمور شتى ، أحس فجأة أننى مضطرب جدا ، خجل جـدا يا ماتوشكا • لا نملك أنا وأنت الا أن نصمت فى متل هذه الظـروف • أشعر عندئذ اننى غبى ، فأخجل من نفسى ، وأحاول خلال ساعات أن أوفق الى كلمة صـغيرة ، الى نصف كلمة ، أقولهـا فى المناقشـة ، ولكن الكلمة لا توافينى كأنما على عمد • ما أشد الحسرة التى تعترينى فى مثل تلك اللحظات يا فارنكا ! ما أشد الأسف الذى أشعر به حين أدرك اننى لست من مستواهم ، وحين أتصور ، على حد تعبير المثل ، أننى كبرت ناسيا أن أحمل معى عقلى • فى أى شيء أقضى أوقات فراغى مثلا ؟ أنام ، بغباء ، مع أن فى امكانى أن أشغل نفسى بأمور ممتعة جميلة بدلا من هذا النوم الذى يزيد عن الحاجة • فى امكانى مثلا أن أجلس الى منضدتى فأكتب شيئا • ويكون فى هذا متعة لى ، ومتعة لغيرى من الناس • ليتك تعلمين يا ماتوشكا كم يتقاضى هؤلاء الكتاب ثمنا لكتاباتهم سامحهم الله ! انظرى الى راتازايف هذا ! انه يقبض مالا كبيرا ، مالا كبيرا ! ماذا تكلفه كتابة صفحة ؟ ان فى وسعه أن يكتب خمس صفحات فى اليوم ، وقد قال لى انه يتقاضى عن كل صفحة ثلاثمائة روبل • فاذا اتفق له أن يضـيف حكاية مضحكة أو شيئا طريفا حصل على خمسمائة روبل • انه يحصـل عليها ، ولا مناص •• حتى لقد يـُدفع له فى بعض الأحيان ألف روبل•• ولكن هذا نادر ••• ما قولك فى هذا يا فرفارا ألكسييفنا ؟ وليس ذلك كل شيء ••• ان عنده دفترا كتب فيه قصائد شعرية ، ليست بالقصـائد

الطويلة ، وهو يطلب ثمنا لها سبعة آلاف روبل يا ماتوشكا ! تخيلى هذا ! ... ان هذا المبلغ يساوى ثمن عمارة ، ثمن منزل فخم ! قال لى انهم عرضوا عليه خمسة آلاف ، ولكنه رفض . أردت ان أرده الى الصواب فقلت له : « اقبل خمسة آلاف روبل من هؤلاء الناس يا أخى ، أقبل ما يعرضونه عليك ، اضحك عليهم ثم دعهم وشأنهم ، ثم ان خمسة آلاف روبل ثروة » ، فأجابنى قائلا : « لا بل أريد سبعة آلاف ، وسيدفعونها لى أخيرا ، هؤلاء الأوغاد » . حقا انه لرجل فذ .

وما دمت أحدثك عنه يا ماتوشكا ، فلماذا لا أنقل اليك هنا جزءا من كتابه « أهواء ايطالية » ؟ ذلك هو عنوان أحد الكتب التى ألفها . اقرئى يا فارنكا ، ثم احكمى بنفسك .

« ... ارتعش فلاديمير ، وانطلقت أهواؤه جامحة عارمة غاضبة ، وأخذ الدم يغلى فى عروقه ..

صاح يقول :

« ـ أينها الكونتيسة ، أيتها الكونتيسة ، انك لا تعرفين مدى هذه العاطفة الرهيبة ، ولا تدركين مدى جنونى . لا ، لا ، ان أحلامى لم تكذبنى الخبر . اننى أحب ، أحب حانقا ، أحب منتشيا ، ساخطا ، أحب كما يحب رجل فقد عقله ، كل دم زوجك لن يكفى لاطفاء جذوة الحماسة الهاذية ، ولتهدئة النار التى تلتهمنى . لن تستطيع حواجز تافهة وعقبات مسكينة أن تصد الامواج العارمه التى تهز قلبى هزا قويا لا سبيل الى مقاومته ، ولا أن تطفىء النيران الجهنمية التى تضطرم فى نفسى المتعبة الظمأى . آه يا زنيائيد ، آه يا زنيائيد ! ..

« قالت الكونتيسة مدمدمة وهى تلقى رأسها على كتف الفتاة :

« ـ فلاديمير !

« فصاح سميلسيكى بالغا أوج الفرح والسعادة :

« ـ زنائيد !

« وانطلقت من صدره آهة . لقد أشعل الحريق أشعة ساطعة هيكل الحب ، وأرعش صدر العشيقين الشقيين .

« عادت الكونتيسة تدمدم نشوى ، بينما كان صـــدرها ينهض وبينما كانت عيناها تلتمعان ، وبينما كان خداها يحمران :

« ـ فلاديمير !

« وتم زفاف جديد رهيب !

« وبعد نصف ساعة دخل الكونت العجوز مخدع زوجته ، فقال لها وهو يفرص خدها :

« ـ ألا يحسن ، يا غزالتى ، أن نطلب سماورا لضيفنا العزيز ؟

ما رأيك يا ماتوشكا ، صحيح ان فى هذا الكلام شيئا من الجرأة... أسلم لك بذلك ... ولا سبيل الى انكاره ... ولكن ما أجمله كلاما ، وما أعذبه أسلوبا ! ما هو جميل فهو جميل لا يمكن جحوده . وان شئت نقلت أيضا جزءا من قصة عنوانها : « أرماك وزليخة » .

تصورى يا ماتوشكا : ان القوزاقى ارماك ، الرجل الوحشى الشرس المخيف الذى غزا سيبيريا ، قد هام بحب زليخة ، ابنة القيصر السيبيرى كوتشوما ، التى وقعت أسيرة فى يده . هى قصة من عهد ايفان الرهيب كما ترين . اليك الحوار الذى قام بين ارماك وزليخة :

« ـ أأنت تحبيننى اذن يا زليخه ؟ ألا رددى هذا ، ردديه ...

« قالت زليخه مدمدمة :

« ـ أحبك يا ارماك .

« ــ ايه أيتها السماوات ، ايه أيتها السماوات ، لك الحمد والشكر! انني سعيد !

«لقد وهبت لى كل ماحلمت به نفسى الحارة العنيفه منذ أيام المراهقة. الى هنا قدتنى يا كوكب مصيرى ، ومن أجل هذا اذن انما دفعتنى الى هذا المكان البعيد وراء الحدود ، لسوف أجعل الناس جميعا يعجبون بحبيبتى زليخه ، ولن يستطيع الرجال ، لن يستطيع هؤلاء الشياطين الغضاب أن يلومونى ، آه ... آلا ليتهم كانوا قادرين على أن يفهموا آلام روحها الرقيقة ، وأن يروا القصيدة التى تضمها عبره واحدة من عبرات حبيبتى زليخة ، آه ... دعينى أكفكف هذه العبرة بقبلاتى ، دعينى أشرب هذه الدمعة المباركه ، هذه الدمعة الالهية ... أيتها المخلوقة السماوية » ...

« قالت زليخة :

« ــ الناس أشرار ياارماك ، الناس ظالمون ، لسوف يضطهدوننا ، ويسوموننا سوء العذاب ، لسوف يستنكرون فعلتنا ويحكمون علينا ، يا عزيزى ارماك . ما عسى أن تصير اليه ، فى مجتمعك البارد المتجمد المتغطرس الذى لا قلب له ، الفتاة المسكينة التى شبت وترعرعت بين ثلوج سيبيريا ، مسقط رأسها ، ولم تعش أبدا الا تحت خيمة أبيها . لن يفهمنى الناس يا معبودى ، يا فارس أحلامى .

« فزأر ارماك يقول وقد جنت عيناه :

« ــ لسوف يهوى السيف القوازقى على رؤوسهم عندئذ صافرا ..

وتخيلى الآن يا فارنكا ، كيف سيكون اضطراب ارماك هذا حين يعلم أن زليخة قد قتلت ، ان الملك العجوز الاعمى كوتشوما قد استغل

ظلمة الليل ، فتسلل فى غيبة ارماك الى معسكره وقتل ابنته هو ، بغية أن يضرب ارماك ، الذى سلبه نور عينيه وتاج ملكه ، ضربة قاضية .

« صاح ارماك يقول وهو فى حالة غضب وحشى جنونى ، وقد أخذ يسن خنجره على مسن من حجر :

« ــ أحب صليل الحديد على الحجر . أحب الدم . أحب الدم . يجب أن أقتلهم جميعا ، يجب أن أذبحهم جميعا ، يجب أن أقطع أجسادهم اربا اربا ... » .

وبعد ذلك ، لما أدرك ارماك انه لن يقوى على أن يعيش بعد موت حبيبته زليخة ألقى بنفسه فى نهر ارتيش ، وانتهت بذلك القصة .

اقرئى أيضا هذا المقطع القصير . لقد كتب بروح الوصف الهزلى ، للاضحاك لا أكثر :

« هل تعرفون ايفان بروكوفييفتش بولتوبوزوف ؟ ذلك الذى عض ايفانوفتش فى ساقه ؟ ان ايفان بروكوفييفتش رجل خشن الطبع قليلا ، لكنه وهب مزايا كبيرة . ولا كذلك بروكوب ايفانوفييتش ، فانه يعبد أكل اللفت مع العسل . ذلك حين كان ما يزال متعلقا بيبلاجيا أنطونوفنا ... ولكن لعلكم لا تعرفون بيبلاجيا انطونوفنا ؟ انها تلك المرأة التى تلبس تنورتها مقلوبة دائما ... » .

هذا للفكاهة يا فارنكا ، وما أجملها فكاهة ، كنا نمسك خواصرنا بينما هو يقرأ لنا هذه القصة . ولكنه فتى سفيه ، غفر الله له ! انني أسلم يا ماتوشكا بأن هذا الكتاب بذىء قليلا ، وأنه أيضا ماجن ، ولكنه من ناحية أخرى سليم جدا ليس فيه شىء من الحاد أو لبرالية . يجب أن نلاحظ يا ماتوشكا ان سلوك راتازاييف سلوك ممتاز ، وهذا هو السر فى انه كاتب رائع ، لا كغيره من الكتاب .

تخطر ببالي في بعض الاحيان فكرة غريبة : ماذا لو أخذت أنا أيضا، نعم أنا أيضا ، في كتابة شيء ؟ ما عسى يحدث عندئذ ؟ لنفرض مثلا انه ظهر في المكتبات ذات يوم ، دون سابق انذار ، كتاب بهذا العنوان : « قصائد ماكار ديفوشكين » ما رأيك يا ملاكي الصغير ؟ كيف تجدين هذا ، وما عسى تفكرين ؟ اما أنا يا ماتوشكا — يجب أن أعترف لك بالحقيقة — فانني متى نشر الكتاب لن أجرؤ أبدا على أن أضع قدمي في شارع نيفسكي ، بل لا يمكن أن يخطر ببالي أن أضع قدمي في هذا الشارع . ذلك ان كل واحد من الناس سوف يشير الىّ باصبعه قائلا : هذا هو ، هذا هو المؤلف ، هذا هو الكاتب ديفوشكين ، الشاعر ، انه هو بعينه ، انه ديفوشكين بدمه ولحمه » . ما عسى يحدث في تلك اللحظة يارب ! ما عسى يحدث بسبب حذاءى ؟ يجب أن أسر اليك عرضا ياماتوشكا ان حذائي مرقعان دائما . أما النعلان فكثيرا ما يتفق أن يفغرا على نحو غير لائق . فما عسى يحدث حين يعلم جميع الناس ان الكاتب ديفوشكين ينتعل حذاءين مرقعين ؟! لابد أن تعلم بذلك كونتيسة أو دوقة ما ، فما عساها تقول يومئذ ؟ انني أطرح عليك هذا السؤال ، لأنني أتخيل الكونتيسات لا يتنبهن الى الاحذية ، ولا سيما أحذية صغار الموظفين (ذلك أن الاحذية تتفاوت) ، ولكن لابد أن يروى الناس للكونتيسة ان حذاءى مرقعان . ان أصدقائي أنفسهم سيخونونني عندئذ ، وعلى رأسهم راتازاييف ... لسوف يكون راتازاييف أول من يفضحني ... انه يختلف الى الكونتيسة في أحيانا كثيرة . وهو يدعى انه يزورها بغير كلفة متى خطر بباله أن يفعل ، ويصفها بأنها امرأة فذة ، ضليعة في الأدب ، وانها سيدة حقا . يا له من نموذج عجيب راتازاييف هذا ! ..

ولكن حسبي ما كتبته الى الآن حول هذه الأمور .. انني أكتب اليك يا ملاكي لا لشيء غير أن أسليك .. أكتب اليك عفو الخاطر لأسرى عنك

قليلا . وداعا يا يمامتى ، رسالتى اليك طويلة هذه المرة ، ومرد ذلك خاصة الى اننى رائق المزاج . لقد تغدينا عند راتازاييف ، فما أعجب الأشياء التى تخيلنها هنالك ! (انهم صبية أشقياء مغترون ، يا ماتوشكا) ما أكثر الاشياء التى تخليناها .. ولكنك لست من أستطيع التحدث اليه فى تلك الاشياء ! أرجو أن لا تظنى بى سوءا يا فارنكا . فانما ذكرت لك هــذا عرضا .. سأبعث اليك بكتب حتما . اننا نتداول هنا كتابا بعنوان « بول دوكوك » ، ولكن هذا الكتاب لم يخلق لمثلك يا عزيزتى . هو كتاب لا يناسبك ولا يليق أن تقرئيه . يقال ان هذا الكتاب قد أثار استياء نبيلا لدى جميع النقاد فى سان بطرسبرج . أرسل اليك الآن رطلا من المربب اشتريته لك خصيصا . كليه يا روحى العزيزة واذكرينى كلما قضمت قطعة منه . أما فنود السكر فلا تقضميه قضما بل مصيه مصا ، والا أوجع القضم أسنانك. لعلك تحبين مسكر الشعير أيضا ؟ اذا كنت تحبينه فاذكرى لى ذلك ، وداعا الآن ، وداعا . كان الله معك يا يمامتى . أما أنا فسأظل .

صديقك المخلص

ماكار دييفوشكين

٢٧ حزيران (يونيه)

السيد العزيز ماكار دييفوشكين

تؤكد فيدورا أن هناك أناسا يحبون أن يهتموا بأمرى ، فيكفلوا لى عملا طيبا لدى أسرة من الأسر كمربية . فما رأيك يا صديقى ؟ أيجب أن أقبل أم لا ؟ واضح اننى لن أبقى عالة عليك فى هذه الحالة ، والأجر

حسن فيما يظهر • ولكنني من جهة أخرى أخاف قليلا أن أسكن لدى غرباء • هم أسرة من مالكي الأطيان • سوف يستعلمون عنى ، وسوف يأخذون يلقون علىّ الأسئلة تلو الأسئلة ، سوف يستطلعون أمرى فماذا أجيبهم عندئذ ؟ ثم اننى عدا ذلك متوحشة كثيرا ، أحب الأركان التى عشت فيها زمنا طويلا ولا يروق لى أن أبارحها • ان المرء يشعر بالراحه والطمأنينة فى الأماكن التى ألفها واعتادها ، مهما يكن قد لاقى فيها من شقاء • ثم ان هؤلاء الناس يقيمون فى مكان بعيد • و لايدرى الا الله ما الذى يتوقعونه منى ! لعلهم لا يريدون الا أن أكون خادمة للأطفال • وعدا ذلك ، فانهم لا يوحون الىّ بالثقة • لقد غيروا معلمة أولادهم ثلاث مرات فى غضون سنتين • فما هى نصيحتك يا ماكار ألكسييفتش ؟ أرجوك أن تسدى الى بنصيحتك ، أيجب أن أقبل هذا العرض أم يجب أن أرفضه ؟ ••• ولكن قل لى : لماذا لا تجىء الىّ أبدا ؟ انه لينذر أن تضع قدميك عندى • فلا أكاد أراك الا يوم الأحد فى الصلاة ! يالك من متوحش ! انك متلى تماما ، ألست قريبتك ؟ أنت لا تحبنى يا ماكار ألكسييفتش ، وكثيرا ما أشعر بحزن شديد حين أكون وحدى • ويتفق لى فى بعض الأيام ، ولا سيما عند الغسق أن أحس بأننى وحيدة ، وحيدة تماما فى هذا العالم • لقد ذهبت فيدورا لشراء بعض الأشياء • وها أنا ذا جالسة أحلم وأحلم ، الى غير نهاية : أستعرض الماضى ، الساعات الحزينة والساعات السعيدة • ينبجس كل شىء فى ذهنى ، كأن الذكريات تنبع من خلال ضباب • أرى بخيالى الوجوه المألوفة (وأحسب أحيانا اننى أراها بعينى فعلا) ، ولا سيما وجه أمى ، فاننى أراه أكثر مما أرى غيره من الوجوه ••• وما أكثر ما أحلم أيضا ••• اننى أحس أن صحتى مضعضعة • اننى ضعيفة شديدة الضعف • فى هذا الصباح مثلا ، حين نهضت من فراشى ، شعرت بأوجاع • ثم اننى أسعل سعالا سيئا • أنا أعلم

انني سأموت في القريب ، أحس بذلك منذ الآن ، فمن ذا الذى سيهتم بدفنى ؟ من ذا الذى سيسير وراء نعشى ؟ من ذا الذى سيبكينى ؟ ... هل يجب أن أموت فى منزل غرباء ، لدى أناس لا أعرفهم ، بمدينة بعيدة ؟ ... رباه ! ما أشقى الحياة وما أكثر أحزانها ! ويا ماكار ألكسيفتش ، الى متى ستظل تمطرنى بسكاكرك ؟ انى لأتساءل حقا من أين جاءك كل هذا المال ؟ يا صديقى ، ادخّر مالك ، ناشدتك الله ، لا تتلفه ولا تبذره سدى ! ان فيدورا تبيع الآن سجادة فرغت من تطريزها . سنأخذ ثمنها خمسين روبلا ورقا . هذا سعر حسن جدا ما كنت أطمع فى الحصول على مثله . سأعطى فيدورا ثلاثة روبلات فضة ، وأصنع لنفسى بالباقى ثوبا ، ثوبا بسيطا ، ولكنه دافىء يدفع عنى غائلة البرد . وسأصنع لك صديرة أيضا ، أشتغلها بنفسى بعد أن أختار لها قماشا جيدا .

حصلت لى فيدورا على كتاب « حكايات بيلكين » ، وها أنذا أرسله اليك اذا كنت تحب أن تقرأه . لكنى أرجوك أن تعنى بالكتاب ، وأن لا تحتفظ به عندك طويلا ، لأنه ليس لى . والكتاب من تأليف بوشكين . لقد قرأت هذه الأقاصيص منذ سنتين بصحبة أمى ، فلما أعدت قراءته الآن شعرت بحزن شديد . اذا كان لديك كتب أخرى فارسلها الىّ ، شريطة أن لا تأتى من راتازاييف . ذلك أنه لن يفوته أن يعطيك كتبا من تأليفه ، اذا كان قد نشر شيئا حتى الآن . كيف تستطيع أن تتذوق ما يكتبه ياماكار ألكسيفتش ؟ ان ما يكتبه لهو ترهات وسخافات ... وداعا الآن . لقد أطلت الثرثرة معك . حين أكون حزينة يحلو لى أن أتحدث عن أى شىء .. ذلك دواء مفيد أحس بعده بشىء من الراحة ، لا سيما اذا استطعت أن أقول ما كان يثقل على صدرى . وداعا يا صديقى ، وداعا .

المخلصة لك

ب . د

٢٨ حزيران (يونيه)

عزيزتى ماتوشكا ، عزيزتى فرفارا ألكسييفنا !

متى تكفين عن تعذيب نفسك هذا التعذيب كله بدون داع ؟ ألا تخجلين ؟ هلا عقلت يا ملاكى الصغير ؟ كيف يمكن أن تدور فى رأسك خواطر كهذه الخواطر ؟ ما أنت بمريضة يا روحى ، ما أنت بمريضة قط . بالعكس ... أؤكد لك انك كالزهرة نضارة وتفتحا . صحيح انك شاحبة بعض الشحوب ، ولكنك كالزهرة نضارة مع ذلك . ثم ما قصة تلك الأحلام أو الرؤى التى تسترسلين فيها ؟ دعى عنك هذه السخافات يا يمامتى ، ولا تفكرى فيها بعد الآن قط ، هل تفهمين ؟ لماذا لا أسترسل أنا فى مثل تلك الأحلام ؟ هل ترين أننى أحلم ، هل ترين أن لى رؤى كتلك الرؤى ؟ أجيبى ! هلا اقتديت بى يا ماتوشكا ! اننى أعيش حياة هادئة ، أنام نوما مريحا ، وأتمتع بصحة جيدة . ذلك شىء يسر القلب يا عزيزتى . انسى هذه الخزعبلات يا حياتى ، انسيها ، أنا أعرف رأسك الصغير يا بنيتى ، يكفيك أيسر شىء حتى تسترسلى فى الأحلام ، فسرعان ما يغزو قلبك الحزن . ناشدتك الله لا تفعلى هذا بعد اليوم . أما أن تعملى فى منزل غرباء فهذا مستحيل . لا ، لا ... ما هذه الفكرة السخيفة التى راودتك ؟ ماذا دهاك فجأة ؟ وفى مكان بعيد عن هنا ؟ يا ماتوشكا ، لن أسمح بذلك ، سأعارض هذا المشروع بكل ما أوتيت من قوة . سأبيع ردائى القديم فأخرج الى الشارع بقميص اذا اقتضى الأمر ، ولكن لن يعوزك شىء عندنا . لا يا فارنكا ، لا، اننى أعرفك . تلك خواطر سخيفة، تلك أفكار مجنونة . لا شك أن فيدورا وراء ذلك كله . انها امرأة غبية بلهاء ، ولا شك انها هى التى أثرت فيك . لعلك لم تعرفى فيدورا هذه بعد ، هى امرأة حمقاء تحب الشجار ، وتهرف بما لا تعرف، وتخبط فى

كلامها خبط عشواء ... بهذا انما أودت بحياة زوجها المسكين وأرسلته الى القبر . ألعلها أوحت اليك بشىء من عدم الرضا عن حياتنا الراهنة ؟ لا ، لا ، يا ماتوشكا ، مستحيل ! ما عسانى أصبح اذا ابتعدت أنت ، ماذا يبقى لى أن أفعله فى هذه الحياة ؟ لا يا فارنكا ، لا يا حياتى ، اطردى من رأسك هذه الأفكار ؟ ماذا ينقصك عندنا ؟ ان وجودك ينبوع فرح لنا ، ينبوع دائم لا ينضب . انك تحييننا ، فعيشى اذن هادئة حيث أنت الآن . اعملى فى الخياطه أو فالتفتى الى القراءة ... لابل دعى الخياطة اذا شئت، سيان أن تخيطى وأن لا تخيطى ... ولكن ابقى معنا . والا فأين نذهب نحن ؟ .. فولى أين نذهب نحن ؟ سآتيك بكتب ، وقد نقوم بنزهة جديدة بعد زمن ، ولكن اتركى تلك المشاريع يا ماتوشكا ، اتركيها ، اعقلى ، ودعيك من هذه السخافات التى تندفعين فيها لغير ما سبب . سأجيىء اليك، سأجيىء قريبا جدا ، ولكن اسمحى لى أن أقول لك بصراحة واخلاص ان ما تقولينه عن راتازايف ليس صحيحا . أنا أعلم اننى رجل لا ثقافة له ، أعترف بذلك ، فاننى لم أتابع الدراسة ، وليس هذا ما أريد أن أتكلم فيه على كل حال ، لست أنا موضع الكلام الآن . ولكننى لا أسمح أن يمس راتازايف ، وقد أردت أنت أن تمسه . هو صديقى ولذلك أدافع عنه . ان ما يكتبه جد جدا ، بل ممتاز ، بل رائع . لست أوافقك على رأيك فيه ، ولن أستطيع أن أحبذ حكمك عليه . ان له أسلوبا مزهرا ، رشيقا ، مفعما بالصور ، زاخرا بالمعانى . انه كاتب ممتاز فى الواقع . لعلك ، حين قرأت تلك الفقرات ، كنت فى لحظة ذهول أو خدر يافارنكا، لعلك قرأتها موصدة القلب دونها ، أو لعلك كنت معتكرة المزاج ، أو لعلك كنت غاضبة من فيدورا ، أو لعل حادثا مزعجا آخر كان يشغل بالك فى تلك اللحظة . يجب أن تعيدى قراءتها يا فارنكا ، حين تكونين رائقة المزاج ، راضية النفس أو فرحة القلب ، حين تكونين بسبيل قضم مربية

أو مص سكرة : فى لحظة كهذه انما يجب أن تعيدى قراءة تلك الفقرات. لا أنكر (ومن ذا الذى ينكر ذلك ؟) أن هناك كتابا اعظم من راتازايف، وان هناك كتابا أعظم بكثير . ولكن اذا كان أولئك الكتاب مشهورين ، فان راتازايف كاتب ممتاز أيضا . انهم يجيدون الكتابة جدا ، ولكنه يجيد الكتابه هو أيضا . انه يختلف عنهم ، انه يكتب بطريقته الخاصـة ، وانه ليحسن صنعا اذ يكتب . وداعا الآن يا ماتوشكا، لا أستطيع أن أفيض أكثر مما أفضت ، وأن أطيل هذه الرسالة مزيدا من الاطالة . اننى مستعجل . هناك أعمال تنادينى . ولكننى أتوســل اليك يا ماتوشكا ، أضرع اليـك يا طائرى الجميل ، أن تهدئى روعك ، أن تطمئنى بالا ، وأن تطيبى نفسا. كان الله معك وسأظل :

صديقك الأمين الوفى
ماكار دييفوشكين

حاشية : أشكر لك ارسالك الكتاب الى . سأقرأ بوشكين أيضا مادمت ترغبين فى ذلك . وسأجيء اليك فى هذا المساء ، أعدك بهذا .

عزيزى ماكار الكسييفتش

لا يا صديقى ، لا ، لا أستطيع أن أستمر على العيش بينكم . لقـد غيرت رأيى ، وأدركت أننى أسيىء صنعا اذا أنا رفضت عملا مجزيا الى هذه الدرجة . سيكفل لى هذا العمل رغيفا على الأقل . سأبذل ما أملك من جهد ، وسأتحمل ما أستطيع تحمله من عناء ، وسأحظى برضـــاء هؤلاء الغرباء عنى وحبهم لى ، بل سأحاول أن أغير طبعى اذا اقتضى الامر ذلك. صحيح ان من الصعوبة والمشقة والالم بمكان أن يعيش المرء لدى غرباء ،

وأن يكون رهنا باحسانهم اليه وعطفهم عليه، وأن يكره نفسه على مالاتحب، وأن يخفى عواطفه ويكتم مشاعره ، ولكن الله سيمدنى بعون من عنده . يستحيل أن أبقى متوحشة طول عمرى على كل حال . لقد سبق لى أن مررت بظروف من هذا النوع . تلك كانت حالتى فى صغرى حين كنت أعيش فى مدرسة داخلية . كنت اذا جئت الى البيت يوم الاحد أظل أقفز وأتب طول النهار ، حتى أن أمى كانت تؤنبنى على ذلك ، ولكننى لم أكن أحفل بالتأنيب ، فان نفسى تكون فى تلك اللحظات طافحة سعادة ومرحا . حتى اذا جاء المساء استبد بى حزن رهيب ، لأن علىَّ أن أعود الى المدرسة الداخلية فى الساعة التاسعة ،حيث كل شىء بارد ،غريب عنى ، قاس علىَّ . كانت المربيات تظهر كثيرا من الشراسة فى معاملتى ، فكان قلبى ينقبض انقباضا أليما ، وكنت أحس بالدموع توشك أن تطفر من عينى ، فأذهب أختبىء فى ركن مظلم ، فأذرف العبرات صـــامتة وحيـــدة ، أخفيها عن الآخرين ، حتى لا يظنوا بى الكسل . والحق اننى لم أكن أبكى لهـــذا السبب ، لم أكن أبكى لأن على أن أستأنف العمل والدراسة . ثم تعودت. نعم تعودت ، بل بلغت من هذا التعود أننى حين جاءت لحظة ترك المدرسة الداخلية بكيت أيضا وأنا أودع صديقاتى . اننى أسىء صنعا اذا عشت عالة عليكما . ان هذه الفكرة تعذبنى عذابا شديدا . أقول لك هذا بصراحة ، لأننى صريحة معك دائما . هل تظن أننى لا ألاحظ أن فيدورا تستيقظ مبكرة فى كل صباح تغسل الغسيل ثم تظل تعمل الى ســـاعة متأخرة من الليل ، مع ان عظامها الهرمة فى حاجة الى شىء من راحة ؟ وهل تظن اننى أجهل انك تدمر نفسك فى سبيلى ، انك تخرج آخر كوبك تملكه لتنفقه علىَّ ؟انك لا تستطيع أن تفعل هذا بمواردك وحدها يا صديقى .لقد قلت لى فى رسالتك انك ستبيع آخر متاع من أمتعتك فى سبيل أن لا يعوزنى شىء . اننى أصدقك يا صديقى وأؤمن بشـــهامتك وطيب قلبك ، ولكنك

تلقى الكلام على عواهنه يا صديقى • أنت تملك الآن شيئا من مال لم يكن في الحسبان ، هو تلك المكافآت التى نلتها • ولكن ما عساك فاعلا بعد ذلك ؟ اننى دائما مريضة ، أنت تعرف ذلك ، فلست قادرة على أن أعمل مثلك ، رغم اننى أتمنى ذلك • ثم اننى لا أجد شغلا بالقدر الذى يجب لى • فماذا الذى بقى علىّ أن أحاوله والأمر كما ترى ؟ ماعساى أصبح هنا ؟ أأضنى نفسى بطول الانتظار حزينةً بينما أنتما تعملان يا صديقى العزيزين ، يا صديقى الطيبين ؟ كيف يمكن أن أنفعكما فى شيء ، فى أى شيء ، وأنا على ما أنا عليه ؟ ولماذا تتصور أنك لا غنى لك عنى يا صديقى ؟ أى جميل صنعت لك ؟ أى خير قدمت اليك ؟ صحيح اننى متعلقة بك من أعماق نفسى ، صحيح اننى أحبك كثيرا ، كثيرا جدا ، ولكن قدرى فاس مر حزين • أنا أعرف أن أحب ، وأستطيع أن أحب ، ولكن هذا هو كل شيء وا أسفاه ، لأننى عاجزة بنفسى عن أن أصنع لك خيرا ، وعاجزة عن أن أرد لك جميلا • فلا تتشبث بى مزيداً من التشبث ، بل فكر فى الأمر مليا ، وأبلغنى كلمتك الأخيرة • وبانتظار ذلك أظل :

صديقتك المخلصة

ب • د

أول تموز (يوليو)

عبث يا فارنكا ، عبث، كل هذا عبث • متى انقطع المرء عن مراقبتك ، وضعت فى رأسك لا أدرى ماذا ، ووجدت ما تتعللين به فقلت : هذا الأمر لا يجرى كما يجب أن يجرى ، وهذا الأمر الثانى أيضا ، وذاك الثالث

كذلك ، الخ . اننى أرى الآن ان هـــذا الـكلام كله هراء . ماذا تبغين يا ماتوشكا ؟ مم تشكين يا عزيزتى ؟ قولى لنا ماذا ينقصك هنا ؟ انك تحبيننا، واننا نحبك، فنحن اذن جميعا سعداء راضون؟ ماذا تريدين أكثر من ذلك؟ هل تتخيلين أن ما ينقصك هو ان تعيشى لدى غرباء ؟ انك لتجهلين ما هم الغرباء ! اسألينى أجبك . انما أعرف ما رجل غريب يا ماتوشكا ! أعرف ذلك حق المعرفه . لقد اتفق لى أن أكلت من خبـز رجـل غريب . انه شرير يا فارنكا ، شرير يا عزيزتى ، يبلـغ من الشر أن قلبك الصـغير المسكين سيذوى عنده ، لأنه لن يكف لحظة عن اضنائه باللوم والتقريع ، لن يكف لحظة عن ايذائه ... ثم ان نظرته نظرة سيئة . أنت عنـــدنا بخير ، أنت عندنا فى دفء ، كأنك فى عش صغير بمنجى من كل أذى . فاذا سافرت كنت كأنك تهجريننا وتأخذين حياتنا . ما عسى نصـبح هنا بدونك ؟ ما عسى أفعل أنا الشيخ المسكين فى هـذه الحالة ؟ تزعمين أنك لا تفيديننا فى شىء ... أأنت لا تفيدين فى شىء ؟ ما هـذا الكلام ؟ لا يا ماتوشكا ... هلا فكرت فى الأمر بنفسك ؟ كيف يمكن أن لانكون فى حاجة اليك ؟ كيف يمكن أن نستغنى عنك ؟ أنت تفيدننى جدا يافارنكا ، ان وجودك يحسن الىّ كثيرا يا عزيزتى ! ... فى هـذه اللحظة مثلا ، أفكر فيك فيمتلىء قلبى فرحا . وفى بعض الأيام أكتب اليك رسالة أودعها ما أحس به ، وأودعها كل نفسى ، فأتلقى منك جوابا عليها ، جوابا مفصلا، فهل هذا قليل ؟ لقد اشتريت لك خزانة ملابس ، وأوصيت لك بقبعـــة صغيرة . وانت تعهدين الىّ أحيانا بشراء شىء من الأشياء فافعل...فكيف يمكنك أن تقولى بعد هذا انك لا تفيديننى فى شىء ؟ ما عساى أفعل بدونك وحيدا فى شيخوختى ، ولأى شىء يمكن أن أصلح ؟ لعلك لم تفكرى فى هذا حتى الآن يا فارنكا ! لا ، لا ، يجب عليك أن تفكرى فى هذا حتما ، يجب عليك أن تتساءلى : « فى أى أمر يمكن أن يكون مفيدا بعدى ؟ » .

لقد تعودت عليك يا صديقتي العزيزة • فماذا عسى يقع لو سافرت ؟ لسوف أمضي الى شاطىء نهر نيفا وينتهي الامر ، نعم ، هكذا ستجرى الامور يا فارنكا، ماذا تريدين أن أصبح بدونك؟ آه يا فارنكا، يا فارنكا، ياحياتي، يا روحي ، أتراك تتمنين أن تحملني عربة موتى الى مقبرة فولكوفو فى يوم قريب ، وأن تسير وراء نعشي امرأة فقيرة شحاذة بأسمالها البالية الخلقة ، وحدها فى الجنازة ، وأن يهيل عليّ بعض الرجال بضع مجارف من تراب ، ثم ينصرفوا الى شأنهم ويتركوني وحدى هناك ••• انه لاثم ، انه لاثم أن تقولى ما قلته يا ماتوشكا •••. شهد الله انه لاثم ! ••• أعيد اليك كتابك يا بنيتى ، يا فارنكا العزيزة ، فاذا أردت يا طفلتي أن تعرفى رأيي فى هذه الأقاصيص ، فاعلمى اننى لم أقرأ فى حياتى كلها كتابا يبلغ هذا المبلغ من الروعة • اننى لأتساءل اليوم يا ماتوشكا ، كيف أمكننى أن أعيش حتى الآن فى مثل الجهل الذى عشت فيه ، يا لغبائى !••• سامحنى الله !••• ماذا صنعت ؟ من أى غابة خرجت ؟ اننى لا أعلم شيئا يا ماتوشكا ، لا أعلم شيئا قط • أقول لك بكل بساطة يا فارنكا : اننى انسان بلا ثقافة • لم أقرأ حتى الآن الا قليلا ، قليلا جدا ، يشبه أن لا يكون شيئا • قرأت كتاب « أخلاق الانسان » وهو كتاب عميق ، وقرأت « الصبى الصغير الذى يلعب بالأجراس » وقرأت « طيور ايبيكوس » ، ذلك ما قرأته ، ولم أقرأ شيئا آخر غيره فى حياتى • وقد فرغت الآن من قراءة « ناظر المحطة » فى كتابك • يجب أن أعترف لك بالحقيقة يا ماتوشكا : انه لأمر عجيب أن يستطيع امرؤ أن يعيش فى هذا العالم دون أن يخطر بباله أن هناك على مقربة منه كتابا يقص فيه قصة حياتنا كلها شاهد عيان ! ان أمورا من حياتى كانت خافية عليّ غامضة فى نفسى ، فاذا هى تظهر لى شيئا بعد شيء منبثقة من ذاكرتى أثناء قراءة هذه القصة ، واذا أنا أراها من جديد ، واذا أنا أفهمها أول مرة • ثم ان هناك سببا آخر جعلنى أحب كتابك هذا • ان ثمة

كتبا لا شك أنها عظيمة ، ولكن المرء منا يستصعب فهمها مهما تكن قيمتها ، ومهما يبذل في سبيل ذلك من جهد ، لأنها مسرفة في العمق ، مسرفة في الذكاء . أنا مثلا غليظ الذهن ... كان ذهني غليظا دائما على أي حال ، ذلك شيء ولد معي حين ولدت ... فلا أستطيع أن أقرأ الكتب التي تفوق قدرتي على الفهم ... أما كتابك هذا ، فانني أقرؤه كما لو كنت كتبته بنفسي ... كأن مؤلفه قد تناول قلبي أنا ــ اذا جاز التعبير ــ تناوله كما هو في واقعه ، فأظهر عليه الناس ، مقلّباً إياه على جميع وجوهه، ليصفه وصفا دقيقا بجميع تفاصيله ، نعم بجميع تفاصيله . انه في غاية البساطة ، أجل في غاية البساطة ... هذا حق ، ولعله كان في وسعي أن أكتب مثله ، ولماذا لا أكتب مثله ؟ انني أحس هذه الأشياء نفسها تماما ، وقد اتفق أن وجدت في ظروف تشبه كل الشبه ظروف صمصون فيرين الشقي مثلا .. ذلك أن كثيرا منا هم أمثال صمصون فيرين هذا ... أناس طيبون بؤساء ! الا ما كان أحذق المؤلف في كتابة هذا الكتاب ! لقد أوشكت الدموع أن تنهمر من عيني يا ماتوشكا حين قرأت أن هذا الخاطيء العاثر الحظ قد ظل يشرب الى أن فقد الذاكرة ، فنام مع حزنه المر طوال النهار بفرائه المصنوع من جلد الخراف . حتى اذا استيقظ شرب كأسا صغيرة لاغراق أحزانه ، ثم ما لبث أن عاد يبكي بكاء يثير الشفقة، ويجفف دموعه بأكمامه القذرة ، لأنه تذكر عنزته ، شاعه المسكينة الصغيرة الضائعة ، ابنته دنياشا. ألا ان هذا كله لطبيعي جدا ، وصادق جدا ! ... حق ما أقول ياماتوشكا، أعيدي قراءة الكتاب بنفسك : ان ما يصفه الكتاب لهو الصدق عينه ، لهو الحياة نفسها ... رأيته أنا نفسي ، لأن ذلك كله موجود أمام عيني . أنظري الى تيريز مثلا . ليس بالمرء حاجة الى الذهاب بعيدا من أجل أن يقع على أمثاله . وهذا الموظف الفقير الذي يسكن عندنا ... قد يكون هو أيضا انسانا مثل صمصون فيرين ... لكنه لا يسمى صمصون فيرين

بل يسمى جورشكوف . هذا مصير مشترك بين الناس جميعا يا ماتوشكا ، وهو شقاء يمكن أن ينزل علينا نحن ، يمكن أن ينزل علىّ أنا..والكونت أيضا ، الكونت المتغطرس الذى يسكن فى شارع نفسكى أو على شاطىء نهر نيفا ، ان من الممكن أن يصيبه هذا المصير نفسه . قد يبدو الأمر عندئذ مختلفا حين يقع لكونت ، لأن كل شىء يجرى لدى الناس الذين هم من نوعه على نحو آخر ، على نحو أرفع ، ولكن الأمور تستوى فى الحقيقة .. لأن كل شىء يمكن أن يقع ، قد يقع هذا لى أنا ... قد أسقط فى الاثم يا فارنكا ، قد أسقط فى هوة الشقاء . سوف تضيعين نفسك يا صديقتى العزيزة ، وسوف تجريننا نحن الى الضياع أيضا . هلا طردت من رأسك الصغيرة هذه الأفكار المتمردة يا عزيزتى ؟ هلا أرحتنى من هذا العذاب فى غير طائل ؟ ألا فكرى أيها الطائر الصغير المسكين الذى لم ينبت ريشــه بعد ، ما عساك صانعة من أجل أن تتعهدى نفسك بنفسك ، من أجــل أن تصونى نفسك من الضياع ، من أجل أن تحمى نفسك من شر الأشرار ؟ كونى عاقلة يا فارنكا ، وعودى الينا . لا تلقى بالا بعد الآن الى النصائح الغبية التى ينصحونك بها ، لا تصغى الى هذا الهذر السخيف . واقرئى كتابك مرة أخرى ، اقرئيه بانتباه وامعان . ان قراءته ستنفعك وستسرى عنك .

تحدثت عن « ناظر المحطة » الى راتازاييف . فقال ان هذه الاشياء كلها قد انقضى زمانها وأصبحت بالية ، وان الكتاب يؤلفون الآن كتبا تضم لوحات وأنواعا شتى من الوصف . يجب أن أعترف على كل حال بأننى لم أفهم شروحه حول هذه النقطة فهما جيدا.وقد خلص من كلامه الى أن بوشكين كاتب جيد ، وانه صنع أشياء كثيرة لمجد روسيا المقدسة ، وقال لى كذلك أشياء أخرى عنه ... نعم يا فارنكا ، انه كتاب جيد حقا ، جيــد جدا . فأعيدى قراءة هذا الكتاب ، ولكن اقرئيه بانتبــاه وامعان . اتبعى

نصيحتى ، فاذا فعلت أفرحت قلب هذا الشيخ المسكين ، أنا • واسأل الله يا حمامتى أن يجزيك عنى خير الجزاء فى هذه الحال ، ولا شك فى أنه سيجزيك خير الجزاء •

صديقك المخلص

ماكار ديفوشكين

السيد العزيز ماكار الكسييفتش

جاءتنى فيدورا اليوم بخمسة عشر روبلا فضة• ما كان أشد ابتهاجها هذه المسكينة ، حين أعطيتها عن هذا المبلغ ثلاثة روبلات • أكتب اليك الآن مستعجلة • اننى بسبيل تفصيل صديرة لك ••• انه نسيج رائع : زهرات صغيرة على أرضية صفراء • وأرسل اليك كتابا يضم أقاصيص شتى • لقد قرأت بعض هذه الأقاصيص ، وأنصحك خاصة بقراءة القصة التى عنوانها « المعطف » • اقرأ هذه القصة • أراك تلح على اصطحابى الى المسرح • ألا يكلف الذهاب الى المسرح نفقات باهظة ؟ اللهم الا أن نشترى تذاكر فى المشى • منذ مدة طويلة لم أذهب الى مسرح • حتى اننى لا أتذكر الآن متى ذهبت آخر مرة• كل ما أخشاه أن يكلف الذهاب نفقة باهظة : ذلك ما يشغل بالى • ان فيدورا تهز رأسها طول الوقت ، مؤكدة انك تنفق الآن أكثر مما تكسب • وأنا أدرك هذا بنفسى على كل حال • ما أكثر ما أنفقت من أجلى مثلا ! حذار أن يسبب لك هذا بعض المكاره ! لقد حدثتنى فيدورا عن اشاعات مفادها انه قام بينك وبين صاحبة الدار شجار بسبب تأخرك فى دفع أجر الغرفة • اننى قلقة عليك جدا •

الوداع الآن. يجب عليّ أن أسرع . هناك عمل مستعجل يجب أن أنجزه: يجب أن أغير أشرطة قبعة .

حاشية : تخطر على بالى فكرة : اذا ذهبنا الى المسرح فسأضع على رأسى قبعتى الصغيرة الجديدة، وسأسدل على كتفى خمارا أسود . أتحسب أن هذا سيكون جميلا عليّ ؟

٧ تموز (يوليه)

عزيزتى السيدة فرفارا ألكسييفنا !

أعود الى ما قصصته عليك أمس . نعم يا ماتوشكا ، لقد عرفت أنا أيضا ، فى ذلك الزمان ، ما هو فقدان الصواب ، واختلال الرشد . لقد تولهت بتلك الممثلة الصغيرة ، وهمت بحبها هياما شديدا . وليس هــذا بشىء على كل حال . فالأنكى من ذلك اننى لم أكن قد رأيتها تقريبا ، واننى لم أكن قد ذهبت الى المسرح الا مرة واحدة ، ومع ذلك استطعت أن أفتتن بتلك المرأة . كنت فى ذلك العهد أعيش فى منزل جيرانى فيه خمسة شبان لا يكاد يفصلهم عنى حائط ، وهم شبان لهم رؤوس مجنونة ، انعقدت أواصر الصلة بينى وبينهم دون أن أريد ذلك ، ورغم أننى حاولت جهدى أن أظل على مسافة منهم . وعندئذ ، من أجل أن لا أكون متخلفا عنهم ، أخذت أجاريهم ، أخذت أقلدهم جميعا . ما أكثر ما حدثونى عنها. وكلما أقيمت حفلة تمثيل فى المسرح ذهبت الجماعة كلها الى المسرح . كانوا لا يملكون حتى للطعام والشراب ما يكفى من مال . ولكنهم يذهبون الى المسرح ، يشترون تذاكر بالمشى ، ويأخذون يصفقون هنالك ما شاء

لهم هواهم أن يصفقوا ، حتى لتكاد تدمى أيديهم من شدة التصفيق كأنما قد مسهم جن ، ويأخذون يهتفون باسم الممثلة فى غير انقطاع . فاذا عادوا الى المنزل بعد ذلك ، لم يكن هناك سبيل الى النوم ، فهم لايزيدون على أن يتحدثوا عن تلك الممثلة طول الليل ، فيناديها كل واحد منهم باسمها . انهم هائمون بها جميعا فقلوبهم جميعا تخفق بحب واحد .

وانتهى الأمر بأن أدخلت حكاياتهم الاضطراب فى قلبى المسكين ، وكنت فى ذلك العهد فتى فى ريعان الشباب ، فرأيتنى أذهب معهم ذات مساء الى المسرح ، لا أدرى كيف تم ذلك ، وكانت أماكننا هنالك فى آخر المشى ، فكنت لا أستطيع أن أرى من هنالك الا ركنا من الستارة . ولكننى كنت أسمع كل شيء . كان لهذه الممثلة صوت عذب حقا ، كان له جرس صاف كأنه رنين الفضة ، حتى ليشعر المرء حين يسمع صوتها انه يسمع تغريد هزار صغير . صفقنا جميعا ، حتى شعرنا من فرط التصفيق بألم فى الأيدى ، وكانت هتافاتنا تتعالى صراخا من شدة الحماسة . ولا أدرى كيف لم توقفنا الشرطة بسبب هذا الصخب الذى أحدثناه . ومع ذلك فقد أُخرج أحدنا من المسرح . فلما عدت الى البيت كنت كمن هو فى حلم . لم يكن قد بقى فى جيبى الا روبل واحد من فضة ، وكان علىّ أن أنتظر عشرة أيام حتى أقبض راتبى . فهل تعرفين ماذا فعلت ياماتوشكا؟ فى صباح الغد ، قبل أن أذهب الى المكتب ، دخلت مخزن عطور فرنسية ، فاشتريت عطورا واشتريت صابونا معطرا ، فأنفقت فى ذلك آخر كوبك أملكه . اننى ما أزال أتساءل حتى اليوم لماذا اشتريت تلك الأشياء جميعها ! الحق اننى لا أدرى أنا نفسى لماذا فعلت ذلك . ولم أعد الى بيتى للعشاء فى ذلك اليوم ، بل قضيت وقتى كله أتجول تحت نوافذ منزلها . كانت تسكن فى شارع نفسكى ، بالطابق الرابع . ومضيت الى بيتى بوثبة لأرتاح ساعة قصيرة ، ثم ما لبثت أن عدت الى شارع نفسكى ، أستأنف تجولى

تحت نوافذ منزلها . وظللت أعيش على هذا النحو شهرا ونصف شهر . أمشي فى اثر الممثلة وأتبع خطاها ، فأستأجر عربات وراءها ، مختارا من الحوذيين من أراه أسرع من غيره جريا . بددت دراهمى ، وتراكمت على الديون ، ثم رأيتنى فى يوم من الأيـام وقد كففت عن حبهـا : سئمت القضية . أنظرى يا ماتوشكا ماذا تستطيع ممثلة أن تفعله برجل لائق . ولكن يجب أن أذكر أننى كنت فى ذلك العهد شابا صغيرا ، صغيرا جدا .

م . د

٨ تموز (يوليو)

السيدة العزيزة جدا فرفارا ألكسييفنا !

أسارع فأرد اليك الكتاب الذى أعرتنيه فى اليوم السادس من هذا الشهر . وأبادر فأنتهز الفرصة لأصارحك فى هذا الأمر . انه لسيىء يا ماتوشكا ، انه لسيىء منك أن تدفعينى الى مثل هذا البعد دفعا لا هوادة فيه . اسمحى لى أن أقول لك ان الله العلى القدير هو الذى يحدد مصير كل انسان ويعين وضع كل انسان فى هذا العالم . ان الله تعالى هو الذى تقضى مشيئته أن يكون فلان من الناس جنرالا ، وأن يكون فلان الآخر موظفا وضيع الشأن هين المنزلة من موظفى الحكومة . هذه ارادة الله . ان ارادة الله هي التى تشاء أن يكون فلان من الناس آمرا ، وأن يكون فلان الآخر محكوما عليه أن يطيع باحترام دون أن يدمدم بكلمة . ذلك كله انما نظم وفقا لاختلاف البشر فى الاستعدادات والكفاءات . فبعض الناس مؤهلون لبعض الأمور ، وبعضهم الآخر غير مؤهلين لهـذه الأمور ،

ولكن لهم كفاءات أخرى فى مقابل ذلك • ومواهب البشر هذه انما هى من صنع الله •

بعد قليل أكون قد سلخت من عمرى ثلاثين سنة فى خدمة الحكومة• لقد قمت بواجباتى دائما خير قيام ، فلا يستطيع أحد أن يأخذ علىّ سيئا فى هذا المضمار • وكان سلوكى حسنا ، فما أدمنت على شراب ولا تدخلت يوما فى الاضطرابات السياسية • صحيح ان لى بعض العيوب كمواطن ، اننى أعترف بذلك ولا أخفيه قط ، ولكننى أملك بعض المزايا أيضـا • اننى أحظى بتقدير رؤسائى ، حتى أن صاحب المعالى نفسه راض عنى • ولئن لم يظهر لى حتى الآن ما ينبىء عن تقدير خاص ، فأنا أعلم أنه راض عنى • ان خطى واضح جلى ، رشيق رشاقة كافية ، لا هو بالضخم جدا ولا بالدقيق جدا ، قريب من الكتابة المعتادة ، مقروء دائما ، مرض دائما • وليس فى دائرتنا أحد غير ايفان بروكوفييفتش له خط كخطى ، ومع ذلك فهو لا يضاهينى • ولقد وخط الشيب رأسى من طول ما جهدت فى عملى• وليس هنالك من خطيئة ذات بال يمـكن أن تؤخـذ على • صحيح اننى ارتكبت بعض الخطايا الصغيرة ، ولكن مَن المعصـوم عن ارتكاب بعض الخطايا الصغيرة أحيانا ؟ اما أن أكون قد قارفت ذنبا كبيرا أو جريمة من الجرائم ، كمخالفة للنظام أو كاقلاق للراحة العامة ، فذلك أمر لم يخطر ببال أحد أن ينسبه الى • لم يؤخذ علىّ شىء من هذا فى يوم من الأيام ، لم تعرف حياتى شيئا من هذا قط • حتى لقد أوشكت أن أنال وسـاما • حسبى أن أقول ذلك ••• كل هـذا كان يجب أن تعرفيـــه فى الواقع يا ماتوشكا • وكان يجب عليه هو أن يعرفه أيضا ، انه منذ قرر أن يصفنى كان ينبغى له أن يعرف الحقيقة كاملة • لا ياماتوشكا ، ماكنت أتوقع منك هذا ! ••• ما كنت أتوقع منك هذا يا ماتوشكا ، منك أنت خاصـة على كل حال ••

كيف ؟ ألن يستطيع المرء أن يعيش فى ركنه العادى ، أيا كان هذا الركن من جهة آخرى ؟ هل أصبح من غير الجائز للمرء أن يحيا دون أن يعكر ماء جاره ، على حد قول المثل ، دون أن يؤذى أحدا ، خاسيا ربه مهتما بنفسه ، حتى لا يؤذيه أحد أيضا ، حتى لا يدخل أحد الى ركنه الصغير فيحشر أنفه فى شئونه الداخلية ؟ هل من الضرورى أن يعرف كيف أعيش فى بيتى ، وهل أملك صديرة ، وهل عندى ما أحتاج اليه من ملابس تستر جسمى ، وهل لى حذاءان ، وهل حذاءاى جيد نعلهما ، وهل أطعم اذا جعت ، وما طعامى وما شرابى ، وما هى النصوص التى أنسخها ؟ أى ضير يا ماتوشكا فى أن أجتاز الطريق ماشـيا على رؤوس الأصابع اذا لم تكن الطريق مرصوفة ، حتى لايهترىء حذاءاى؟ ماحاجتهم الى الكتابة عن أخيهم ؟ انه ينفـق له أن يمـر بأيام بؤس وحرمان وأن لا يحتسى قليلا من الشاى ، فهل من الضرورى أن يشرب جميع الناس الشاى ؟ هل أنظر أنا الى فم كل انسان لأعرف ماذا يدخل الى بطنه ؟ مع من سلكت هذا السلوك ؟ ومن أهنت هذه الأهانة ؟ لا ياماتوشكا ، عيب علينا أن نجرح انسانا لم يمسسنا بسوء • اسمعى يا فرفارا ألكسيفنا على سـبيل المثال : اننى أقوم بواجبى كل يوم بهمة ونشاط واخلاص ، والرؤساء راضون عنى ، وهم يحترموننى (مهما يقولوا فهم يحترموننى ، هذا أكيد) ، فاذا بانسان يأخذ يكتب عنى ويشهر بى ويسىء الى دون سبب ظاهر ودون أى عذر مقبول • نعم انه ينفق لى أنا أيضا أن أصنع لنفسى رداء جديدا أو أن أشترى حذاءين ، فأبلغ من فرحى بذلك أن لا أنام الليل ، ذلك شىء يبهج النفس • انها لمتعة حقا أن ينتعل المرء حذاء رشيقا جديدا • هذه لذة • هذا شـعور شعرت به ، اعترف بذلك ، والوصف هنا صادق• ومع ذلك يدهشنى ان رئيسنا فيدور فيودورفتش قد سمح بصدور هذا الكتاب ، عن غفلة منه ، لأن الكتاب ينال منه أيضا •

صحيح أن هذا الموظف الكبير ما يزال شابا ، وانه يجب أحيانا أن يرفع صوته • ولكن لماذا يجب أن لا يصرخ قليلا ؟ هل من الضرورى أن لا يؤنب أحدنا تأنيبا شديدا حين يجب التأنيب ؟ أنا أسلم بأنه يغضب أحيانا بدون سبب ظاهر • ولكن هذا أمر لا غنى عنه ، احتفاظا بالمهابة وتهذيبا للناس • ان من الواجب أن يوحى اليهم بهذا الاحترام المفيد • ذلك اننا معشر البشر — أقول هذا بينى وبينك — لا نفعل فعلا حسنا الا اذا شعرنا بشىء من الخشية • ما من أحد يفكر فى غير مصالحه ، وفى غير تقدمه ، فهو يريد أن يذكر هنا ، وأن يشاد به هناك ، أما أن يعمل فذلك ما يحاول أن يتملص منه ما وسعه التملص • ثم ان الموظفين ليسوا جميعا فى رتبة واحدة ، فبعضهم فوق بعض درجات ، ولا غرابة والحالة هذه أن يختلف بعضهم عن بعض لهجة وحذلقة على حسب الرتبة • ذلك فى طبيعة الأمور • وكذلك بنى العالم ياماتوشكا • ان الحياة الاجتماعية تعتمد على مظاهر السلطة التى يصطنعها بعضنا تجاه بعض ، وعلى الطريقة التى يتخاطب بها بعضنا مع بعض لوما وتأنيبا • وبدون هذه الاحتياطات لا يمكن أن يوجد العالم ، ولا يمكن أن يقوم نظام فى أى مكان • لذلك يدهشنى حقا أن يسمح فيدور فيودوروفتش بنشر هذا الكتيب الجارح المؤذى سهوا أو اهمالا •

وأى شيطان دفع هذا الكاتب الى الكتابة ؟ ما نفع هذا الذى كتبه ؟ هل سيرسل الىّ أحد القراء معطفا جديدا بعد أن يقرأ هذه القصة ؟ هل سيشترى لى حذاءين جديدين ؟ لا يافارنكا ، ان الناس سيقرأون القصة ، ثم لا يزيدون على أن يرغبوا فى معرفة تتمتها • يحاول المرء أن يختبىء ما وسعه الاختباء ، ويجهد أن يكون صغيرا ما أمكنه ذلك ، ويبذل قصاراه فى سبيل أن لا يلتفت اليه أحد ، حتى ليخشى أحيانا أن يظهر أنفه فى الخارج لأنه لا يحب أحكام الناس ، لأنه يخشى أن يجعله الناس

أضحوكة لغير سبب ، ثم اذا هو يرى حياته المدنية والعائلية كلها معروضة مبسوطة فى الأدب بلا خجل ولا حياء ولا حشمة ولا عـذار ، واذا كل شيء مذاع مطبوع مكشوف معرى ، يحكم عليه الناس ويضـحكون منه ويهزأون به ! لن يستطيع المرء أن يخرج بعدئذ الى الشارع ، لأن كل شيء قد بلغ من دقة الوصف فى الكتاب أن النـاس سـيعرفونه حتى من مشـــيته • وكان يهـون الأمر لو أن الكاتب قد كفر عن كتابه بتخفيف الخاتمة ، باضافة شيء يلطف القصة • كان فى وسع المؤلف مثلا عنـدما وصف كيف قصف الرجل المسكين بالقراطيس ، أن يذكر أن هذاالرجل كان انسانا فاضلا ، وانه كان مواطنا صالحا ، وانه كان لايستحق أن يعامله زملاؤه هذه المعاملة ، لأنه كان يحترم دائما من هم أكبر منه سنا (كان فى وسع المؤلف هنا أن يضرب مثلا صالحا) ، وأنه لم يؤذ أحدا طـوال حياته ، وانه آمن بالله وانه حين مات (اذا أصر المؤلف اصرارا مطلقا على أن يميته) حزن جميع الناس وبكوه • وكان من الأفضل أيضا أن لايموت المسكين ، وانما يُعمل مايجب من أجل أن يُعثر له على المعطف، أو أن يستدعيه فيدور فيدوروفتش ـ لا ••• ماذا أقول ؟ ـ أقصد أن يستدعيه الجنرال حين علم بفضائل هذا المرؤوس ، فيبلـغه انه نال ترقيـة ، وانه سيعطى راتبا حسنا • بذلك كان يمكن انقاذ كل شيء : يعـاقب الأشرار وتكافأ الفضيلة ، ويرتدع الزملاء الخبثاء • بهذه الخاتمة كان يمكن أن أختم أنا القصة • ماذا فى هذه القصة من خير ، ماذا فيها من جمال خارق؟

ان المؤلف لم يزد على أن حكى واقعة مبتذلة ، لم يزد على أن وصف شيئا مستمدا من الحياة اليومية ! كيف خطر ببالك يا عزيزتى الغالية أن ترسلى الىّ كتابا كهذا الكتاب ؟ انه كتاب مغرض يا فارنكا • ثم انها قصة غـير

معقولة . لأنه لا وجود لموظفين من هذا النوع . لا ، لا ، سوف أشكو أمرى الى السلطات يا فارنكا ، سوف أشكو أمرى ، فررت ذلك .

خادمك المخلص

ماكار دييفوشكين

٢٧ تموز (يوليو)

ان الأحداث الأخيرة ، وكذلك رسائلك ، قد أذهلتنى وأفزعتنى ، ولكننى فهمت أخيرا كل شيء بعد الذى روته لى فيدورا . لماذا بلغ بك الحزن واليأس هذا المبلغ ؟ لماذا ألقيت بنفسك الى الهوة التى تضطرب فيها الآن ؟ هلا قلت لى لماذا يا ماكار الكسييفتش ؟ ان الشروح التى قدمتها لم تقنعنى أبدا . ألم أكن على حق حين أصررت على قبول العمل المجزى الذى عرض علىّ ؟ ألا تعترف بأننى كنت على حق ؟ ثم ان حادثتك الأخيرة قد أخذت تقلقنى حقا . لقد كنت أشعر طبعا اننى مدينة لك كثيرا منذ كنت تؤكد لى ان ما تنفقه فى سبيلى ليس الا مدخرات ادخرتها للطوارىء . ولكننى أعلم الآن انك لم تكن قد ادخرت شيئا ، وانك حين عرفت عرضا ما أعانى من بؤس ، رق قلبك لى فقررت أن تساعدنى بانفاق رواتب عدة أشهر قبضتها سلفة ، واعلم أيضا انك مضيت بعد ذلك تبيع ملابسك أثناء مرضى . ان اكتشافى هذه الحقيقة قد جعلنى فى وضع أليم جدا ، حتى صرت أتساءل الآن كيف يمكن أن أقبل كل هذا ، وماذا يجب أن يكون رأيى فيه ! لماذا لم تكتف يا ماكار ألكسييفتش بحسناتك الأولى التى دفعتك اليها الشفقة ومشاعر القرابة فحسب ، بدلا من الاندفاع فى انفاق المال فى أمور لا فائدة منها ولا طائل تحتها كما فعلت بعد ذلك ؟ لقد خنت صداقتنا

يا ماكار ألكسييفتش حين لم تكن صريحا معى فأخفيت عنى الحقيقة •
انني اليوم وقد أدركت أن دريهماتك الأخيرة قد ضاعت فى شراء أدوات
زينة لى وتبعثرت ثمنا لسكاكر ونزهات وتذاكر مسرح وهدايا كتب ،
أكفّر تكفيرا باهظا عن تلك اللذات بعذاب الضمير من فرط الندم على
خفتى التى لا تغتفر (لأننى كنت أقبل منك ذلك كله دون أن اراعى
وضعك) • ان كل ما فعلته بغية ان تفرحنى يستحيل الآن الى عذاب لى ،
ولا تبقى منه الا حسرات عقيمة • لقد لاحظت كآبتك منذ مدة ، ورغم انى
توقعت فى كثير من الهم والقلق أن يحدث حادث أليم ، فان ما حدث ماكان
ليخطر لى على بال • ما هذا ؟ كيف يمكنك أنت يا ماكار ألكسييفتش أن
تستسلم لمثل ذلك اليأس ؟ ما عسى يقول عنك جميع أولئك الذين
يعرفونك ، وما عسى يكون رأيهم فيك ؟ كيف يمكنك أنت يا من كنا
نحترمك أنا وجميع الناس لطيب قلبك وتواضع نفسك ورجاحة عقلك ،
كيف يمكنك أن تسقط فى تلك الرذيلة المقوتة التى أحسب أنها لم
تعهد فيك قط حتى الآن ؟ يا لهول ما شعرت به حين علمت من فم فيدورا
انهم لموك من الشارع سكران ، وان الشرطة قادتك الى منزلك ! لقد
صعقت من الدهشة وذهلت عن نفسى وتبله عقلى فى تلك اللحظة ، رغم
انني كنت أتوقع أن يحدث شىء غير عادى ، لأنك كنت قد غبت عنا أربعة
أيام • هل فكرت يا ماكار ألكسييفتش فيما سيقوله رؤساؤك حين يعلمون
سبب تغيبك ؟ تقول لى ان جميع الناس يسخرون منك الآن ، وان جميع
جيرانك أصبحوا يعرفون صداقتنا ، وان سخرياتهم وأمازيحهم لا تنسانى
أنا أيضا • لا تحفل بهذا يا ماكار الكسييفتش ، وهدىء روعك ، ناشدتك
الله ! وانى شديدة القلق أيضا بسبب ذلك الذى وقع لك مع الضباط •
لقد سمعت بهذا النبأ غامضا • قل لى ، أرجوك ، ما معنى هذا كله ؟ كتبت
لى انك لم تكن تجرؤ على مصارحتى ، وانك كنت تخشى أن تفقد

باعترافاتك صداقتى ، وانك كنت فى ذروة اليأس ، لأنك لم تعرف كيف تساعدنى أثناء مرضى ، وانك بعت كل ما عندك حتى تجنبنى الذهاب الى المستشفى ، وتقول انك اقترضت مالا من جميع الجهات ، وان مناقشات كانت تقوم بينك وبين صاحبة البيت فى كل يوم . ولكنك اذ أخفيت عنى الحقيقة قد اخترت أسوأ الحلول . وأنا أعلم الآن كل شىء على كل حال . كنت لا تريد أن تضطرنى الى الاعتراف بأننى السبب فى وضعك الحالى البائس ، ولكنك بسلوكك الآن تحزننى حزنا أشد ، وتجعلنى أقاسى ألما أكبر . كل هذا يقلقنى ويبث الاضطراب فى نفسى يا ماكار ألكسيفتش . آه يا صديقى ! ان الشقاء مرض معد ، فيجب على الأشقياء والمساكين أن يتجنب بعضهم بعضا ، يجب عليهم أن يتحاشوا أى اتصال بينهم ، حتى لا تزداد آلامهم بعدوى متبادلة ، لقد جئتك بمحن لم تعرفها من قبل فى حياتك المتواضعة المنعزلة . انه ليعذبنى عذابا شديدا وانه ليقتلنى ان أدرك اليوم ذلك .

اكتب لى الحقيقة كلها صراحة ! قل لى ماذا حدث وكيف أمكن أن تعزم أمرك على القيام بمثل هذا العمل ! طمئنى اذا كنت تستطيع ذلك . ليست الأنانية هى ما يدفعنى الآن الى الكلام عن طمأنينتى وهدوئى ، وانما تدفعنى الى ذلك صداقتى لك ، وتحضنى عليه المودة التى محضتك والتى لا يمكن أن تمحى من قلبى يوما . انتظر ردك . لقد أخطأت الظن فىّ والحكم علىّ يا ماكار ألكسيفتش .

صديقتك المخلصة الودود

فرفارا دوبروزويولوفا

٢٨ تموز (يوليو)

عزيزتي الغالية فرفارا ألكسييفنا

لك ما تشائين . أما وقد انتهى الآن كل شيء وأخذت الأمور تعود الى مجراها الطبيعي شيئا بعد سيء ، فسأقول لك يا ماتوشكا ما يلي : انك تخشين مما قد يظن بي ويقال عني ، لذلك أسارع فأصارحك يا فرفارا ألكسييفنا بأن سمعتي هي عندي أغلى شيء في هذا العالم ، لذلك أعتقد أن عليَّ وأنا أبلغك أنواع الشقاء التي عانيتها وضروب الفوضى التي وقعت فيها ، أن أذكر لك في الوقت نفسه انه ما من احد من رؤسائي علم بما حدث ، أو سيعلم به يوما ، وأن رؤسائي سيظلون يظهرون لي اذن نفس التقدير الذي كانوا يظهرونه لي من قبل . أمر واحد يقلقني ويرهقني : انني أخشى النمائم والاشاعات . في منزلنا ما تنفك صاحبة البيت تصيح وتصرخ ، وان تكن ، منذ دفعت لها جزءا من دينها عليَّ بفضل روبلاتك العشرة ، أصبحت لا تزيد على أن تتذمر . أما السكان الاخرون فليس هنالك ما أشكوه فيهم . ان سلوكهم معي حسن . كل ما في الأمر أن عليَّ أن أتحاشى اقتراض شيء من المال منهم ، فمتى لم أقترض منهم شيئا من المال كانوا في غاية اللباقة هم أيضا . وأحب في ختام هذه الشروح أن تعلمي يا ماتوشكا أن تقديرك هو أثمن ما أملك في هذا العالم ، وذلك ما يعزيني في هذه الساعة عن الفوضى العارضة التي ألمت بحياتي . لقد انجلت الغمة ولله الحمد ، وانقضت الضربة الأولى والاضطرابات الأولى من هذه المأساة . وقد أمكن أن تحتمليها دون أن تعديني صديقا خان الصداقة، أو رجلا أنانيا ، لأنني حاولت أن أحتفظ بك قريبة مني فخادعتك لعجزي عن الانفصال عنك يا من أحبك وأرى فيك ملاكي الصغير . لقد عدت الى العمل بهمة ونشاط ، وأنا أقوم بواجبي اليومي على خير وجه .

حتى ان أوستاش ايفانوفتش لم يقل كلمة واحدة حين مررت أمس أمامه. لا أكتمك يا ماتوشكا أن ديونى تعذبنى وتضنينى وتقتلنى قتلا ، وكذلك خلو خزانتى من الثياب ، ولكننى أعود فأقول ان هذا كله لا قيمة له ، فأرجوك بل أتوسل اليه يا ماتوشكا أن لا يحزنك هذا الأمر أيضا . لقد أرسلت الىّ نصف روبل آخر . ان نصف الروبل هذا قد طعن قلبى طعنا يا فارنكا . انظرى أين أصبحنا ، انظرى الى أين آلت أمورنا ! لست أنا من يساعدك الآن اذن ! يا لى من شيخ عجوز أبله !... بل أنت التى تهبين الى نجدتى يا عزيزتى اليتيمة المسكينة ! يجب أن نشكر لفيدورا انها استطاعت أن تحصل على شىء من المال . وليس لى الآن أى أمل من هذه الناحية ياماتوشكا، لن أقبض شيئا ، فاذا فتح باب الأمل، فلن يفوتنى أن أبلغك ذلك تفصيلا . ولكن النمائم، النمائم المقيتة الكريهة، هى ما يعذبنى أكثر من شىء آخر ، وداعا يا ملاكى الصغير . أقبل يدك الجميلة ، وأضرع اليك أن تبلى من مرضك . لست أفيض فى الكتابة اليك الآن لأن علىّ أن أمضى الى عملى ، لأننى أحب أن أبرهن على همتى واخلاصى عسى أن أمحو خطيئتى وعسى أن ينسوا تغيبى . أرجىء الى المساء تتمة شروحى فى موضوع جميع تلك الأحداث، وكذلك فى موضوع حادثتى مع الضباط .

صديقك الذى يحترمك ويحبك حبا عميقا

ماكار دييفوشكين

٢٨ تموز (يوليو)

آه يا فارنكا ، يا فارنكا ، الخطيئة هي الآن خطيئتك ! الذنب هو الآن ذنبك ! وسوف يظل هذا الذنب جاثما في ضميرك . لقد استطعت برسالتك أن تقلبي دماغي رأسا على عقب ، أن تلقيني الى اضطراب ما بعده اضطراب .. الآن ، الآن فقط ، انما أدرك ، حين أغوص هادئا الى أعماق قلبي ، أنني كنت على حق ، على حق تماما . ما عن استهتاري الأخير أتحدث هنا (دعينا من ذلك الاستهتار ، ولا تعودي الى الكلام عليه) ، وانما أتحدث عن حبي لك ، فأقول انه لم يكن جنونا مني أن أحبك ، لا لم يكن حبي لك جنونا قط . يجب أن أقول لك يا ماتوشكا انك لا تعرفين شيئا . ولو كنت تعرفين لماذا وقع ما وقع ، ولماذا كان حقا أن أحبك ، لقلت غير الكلام الذي قلته . ان جميع تلك الكلمات الحكيمة العاقلة التي تزجينها الى ، أنت لا تقصدينها . انك تكتبينها ، ولكن الذي في قلبك شيء آخر . أنا من ذلك على يقين . يا ماتوشكا ، لا أعرف الآن ولا أتذكر الآن تذكرا واضحا تلك القصة التي وقعت لي مع الضباط . ولكن يجب أن تعلمي يا ملاكي أنني كنت قد مررت قبل ذلك بفترة مضطربة أقصى الاضطراب . تخيلي انني كنت منذ شهر بكامله لا يكاد يمسكني عن الانهيار الا خيط واهن ان صح التعبير . كنت في وضع ينذر بأن الكارثة وشيكة . كنت أختبيء منك ، بل وأحاول أن لا يلمحني أحد في منزلنا أيضا ، ولكن صاحبة المنزل قامت بفضيحة وأخذت تصرخ . طبعا ليس يهمني أن تصرخ ، فلتصرخ ما شاءت ، ولكن المسألة أن صراخها أخجلني وأشعرني بالعار ... تلك نقطة أولى . والنقطة الثانية انها كانت قد علمت بصداقتنا لا أدري كيف ، فأخذت تصيح في أرجاء المنزل كله مشهرة بهذه الصداقة قائلة أمورا تبلغ من الفظاعة انني تجمدت ذعرا وسددت أذني حتى

لأسمع ماتقول . ولكن من المؤسف أن السكان الآخرين لم يسدوا آذانهم مثلى ، بل فتحوها واسعة وأرهفوا السمع ... حتى صرت لا أعرف أين أختبىء ...

ذلك كله يا ملاكى الرقيق ، هذه المصائب التى تراكمت تراكما رهيبا ، هى ما أجهز علىّ وانتهى بتحطيمى تحطيما كاملا . وعلمت فجأة من فيدورا أمورا غريبه : علمت أن زائرا وقحا جاء اليك وألحق بك اهانة اذ عرض عليك أمرا شائنا مخزيا . لقد طعنك هذا الرجل طعنا أصاب أعماق قلبك يا ماتوشكا ، أنا أعلم ذلك قياسا على ما شعرت به أنا أيضا من اننى طعنت . فى تلك اللحظة ياملاكى ، فى تلك اللحظة تماما انما زلت قدمى ، وترنحت وسقطت فى الهوة . هرعت أخرج من المنزل يا فارنكا وقد عرانى غضب جنونى لا يوصف ، غضب لا عهد لى بمثله من قبل . كنت أريد أن أذهب الى ذلك الشخص الحقير ، الى ذلك المجرم الذى لا حياء له ، دون أن أعرف ماذا أريد أن أصنع ، لأننى لا أطيق يا ملاكى الصغير أن يلحق بك أحد اهانة . آه ما كان أشد حزنى ! ما كان أعمق تعاستى ! وكان المطر ينهمر غزيرا فى ذلك اليوم ، فالوحل فى كل مكان، والجو كالح جهم حزين . فكرت أن أعود الى المنزل وأن أعدل عما عقدت عليه النية ! ... وفى تلك اللحظة انما وقعت يا ماتوشكا ... التقيت باميل ، اعنى ايميلين ايلتش ، وهو موظف فى ادارتنا ، أو موظف سابق ، لأنه لم يعد موظفا ، فقد صرف من الخدمة ، ولا أدرى ماذا يعمل الآن ، فانما هو يذهب هنا وهناك ليعيش . التقينا فسرنا معا ، ثم تبعته ، وهكذا حدث كل ما حدث ... ثم ... ولكن أية متعة يمكن أن تجديها يا فارنكا فى قراءة قصة أنواع العذاب التى قاساها صديق ، وفى معرفة صنوف التدهور التى عاناها ، وألوان الغوايات التى تردى فيها ؟

المهم ان ايميلين هذا هو الذى دفعنى وحرضنى فى اليوم الثالث عند المساء : فذهبت الى ذلك الشخص ، الى ذلك الضابط . كنت قد حصلت على عنوانه من بواب عمارتنا . والحقيقة اننى كنت أراقب هذا الشاب منذ مدة طويلة . كنت أراقبه منذ كان يسكن فى منزلنا ... الخلاصة ... اننى أدرك اليوم اننى قد ارتكبت خطأ ، لأننى لم أكن فى حالتى الطبيعية حين أعلموه بقدومى . يجب أن أقول يا فارنكا ، حتى أكون صادقا اننى لا أتذكر على وجه الدقة ما حدث عندئذ . كل ما أذكره أنه كان فى بيته ناس كثير ، كان بيته يمتلىء ضباطا ، اللهم الا أن أكون قد رأيت الشخص شخصين ... الله أعلم ... لا ولا أتذكر أيضا ماذا قلت له ، ولكننى أتذكر اننى تكلمت كثيرا ، يحضنى على ذلك استياء شديد . وعندئذ ، نعم عندئذ ، انما أخرجونى ودحرجونى الى آخر السلم ... لا! لم يدحرجونى، بل دفعونى دفعا فحسب. وأنت تعلمين البقية يافارنكا، تعلمين على أية حال عدت الى منزلى . هذا هو كل شىء . لا شك اننى بهذا قد أهنت نفسى ، وضيعت كرامتى ، وهدرت مهابتى . ولكن ما من أحد علم بالأمر . واذن فكأن شيئا لم يحدث . ألا تظنين ذلك يافارنكا ؟ ومما أعلمه علم اليقين على كل حال هو أن هياسنت أوسيبوفتش قد هجم فى السنة الفائتة على شخص بطرس بتروفتش ، فى مكتبنا ، هجوما كهذا الهجوم ، ولكنه فعل ذلك سرا ، خفيةً ، على غير علم أحد . استقدمه الى غرفة الحارس . وكنت أنا أراقبهما من شق الباب . فرأيته يتصرف كما ينبغى التصرف فى مثل هذه الحال ، ولكن بطريقة رفيعة نبيلة ، لأن أحدا لم يره غيرى . وما قيمة أن أراه أنا ؟ أنا لست شيئا ، أقصد اننى لم أقصّ الحكاية على أحد . وبعد ذلك الحادث لم يتظاهر هياسنت أو سيبوفتش وبطرس بتروفتش بشىء البتة . لاحظى أن بطرس بتروفتش رجل معتز بنفسه ، حريص على سمعته أشد الحرص ، لذلك

لم يرو لأحد شيئا ، حتى انهما ما يزالان يتبادلان التحيات ويتصافحان أمام الناس • لست أنكر يا فارنكا ، ولن أحاول أن أنكر اننى سقطت سقوطا مريعا • لا أجحد هذا ، والأنكى من ذلك اننى فقدت اعتبارى فى نظر نفسى • لا شك أن هذا الشقاء قد كتب على منـذ ولدت ، لا شـك أن ذلك قدرى ، وما من انسان فى هذا العالم يمكن أن يفلت من قدره ••• أنت تعلمين ذلك • هذا هو يا فارنكا الشرح الكامل والسرد الدقيق لما قاسيت من مكاره وما عانيت من تدهور • وهذه كلها أمور يمـكن أن لا تقرأ • وفيم قراءتها وقد استوى كل شىء الآن ؟

اننى أشعر بشىء من الاعياء يا ماتوشكا ، وقد فقدت كل بشاشة فى النفس وكل فرحة فى القلب • لذلك أكتفى بأن أؤكد لك ما أشعر به نحوك من تعلق وحب واحترام ، وأظل ، يا عزيزتى المحترمة جدا فرفارا ألكسييفنا :

خادمك المطيع
ماكار دييفوشكين

٢٩ تموز (يوليو)

السيد العزيز ماكار ألكسييفتش !

قرأت رسالتك ، فأوشكت أن أصيح من فرط الدهشة • أحد شيئين يا عزيزى : اما أنك تخفى عنى شيئا ما ، وأنك لم تقص علىّ الا جانبا من المكاره التى وقعت لك ، واما أنك ، يا ماكار ألكسييفتش ، ما تزال تعانى اضطرابا نفسيا •••

ان رسائلك تدل على شيء من ذلك في الحقيقة ... تعال الى ، ناشدتك الله ، زرني في هذا اليوم نفسه . اسمع ، تعال الينا للعشاء ، هكذا ، بغير كلفة . انني أجهل جهلا تاما كيف تعيش في مسكنك ، وهل تفاهمت مع صاحبة البيت أخيرا . انك لا تكتب الىَّ شيئا في هذا الموضوع ، كأنك تتعمد السكوت عن هذه المسألة . أودعك الآن يا صديقي . ولكنني أرجوك أن تأتي الينا اليوم ، تعال حتما . والأصلح على كل حال أن تتعشى كل يوم معنا . ان فيدورا تجيد الطهي . وداعا .

المخلصة لك

فرفارا دوبروزيولوفا

أول آب (أغسطس) .

عزيزتي فرفارا ألسكييفنا !

انه ليسعدك يا ماتوشكا ان الله وهب لك فرصة الرد على الاحسان بالاحسان ، وأن تبرهني لي على الشكر والامتنان . انني أقدر هذا يافارنكا ، وأؤمن بطيبة قلبك الصغير ، قلب الملاك ، فلست أعتب عليك اذن ، ولكن لا تذكريني ، كما فعلت في المره الماضية ، بأنني في أواخر أيامي قد اندفعت في أعمال طائشة كأعمال المجانين . لقد أثمت ، نعم أثمت ، اذا كنت تصرين على أن تصفي عملي بأنه اثم ... ولكن يشق على نفسي ، يا صديقتي الطيبة الشهمة النبيلة ، أن أسمع هذه الأشياء من فمك أنت . ذلك قاس على نفسي . لا تؤاخذيني اذا قلت هذا الكلام يا ماتوشكا . ان شيئا في صدري يتمزق . ان الفقراء أصحاب نزوات وبدوات . الطبيعة أرادت لهم ذلك . الفقير انسان متشدد كثير الشك والحذر . له طريقة

خاصة فى رؤية العالم ، فهو يلتفت نحو كل عابر سبيل ، ويلقى على ما حوله نظرات قلقة وجلى ، ويسترق السمع الى كل كلمة ، متسائلا : أتراهم يتكلمون عنه ؟ أتراهم يطلقون ملاحظة من الملاحظات عن مشيته المتعثرة المضحكة ؟ أتراهم أرادوا أن يقرأوا ما فى نفسه ساخرين ؟ ها هم أولاء ينعمون فيه النظر ، ليروا هيئته من الجهة اليسرى ، ثم ليدرسوا هيئته بعد ذلك من الجهة اليمنى ، ذلك انهم يعلمون يا فارنكا ان الانسان الفقير لا يساوى أكثر من خرقة بالية ، وانه لا يطمع لنفسه فى أى نوع من الاحترام ، مهما يقل القائلون ومهما يكتب الكاتبون ! آه من هؤلاء الكتاب الثرثارين ! آه من هؤلاء الذين ما ينفكون يسودون ورقا ! فمهما يتقنوا صف العبارات وتنميق الجمل ، سيظل الانسان الفقير ما هو ، ولن يتغير فيه شىء . أما لماذا سيظل ما هو لا يتغير فيه شىء ، فلأن هؤلاء الناس جميعا يرون أن كل شىء لديه يجب أن يكون مكشوفا مبسوطا أمام الأعين معروضا للابصار ، فلا شىء فى نفسه يجب أن يظل سرا أو أن تكون له حرمة . ليس له أن يكون ذا كرامة أو كبرياء .. حرام عليه ذلك ! خذى هذا المثال : لقد حكى لى ايميليان منذ مدة أن بعض الناس نظموا له اكتتاب تبرع من أجل مساعدته فكان جميع المكتتبين يعتقدون أن من حقهم أن يشرعوا فى تحقيق يشبه أن يكون رسميا ، يجلو لهم شخصه ويكشف لهم عن حياته . لقد ظنوا انهم يهدون اليه دريهماتهم. كذب هذا . الحق أنهم دفعوا ثمن رؤية رجل فقير . كل شىء فى هذا الزمان يتم على نحو عجيب يا فارنكا ، حتى البر والاحسان ... ولكن لعل الأمر كان كذلك فى جميع الأزمان ، من يدرى ! أحد أمرين لاثالث لهما : اما أن هؤلاء الناس لا يعرفون كيف يتصرفون من أجل أن يفعلوا الخير ، واما أنهم مسرفون فى المكر والحذق . تلك أمور لعلك تجهلينها يا ماتوشكا : ألا فلتعلميها اذن الآن . أنا جاهل فى كل ما عدا

هذا ، أما هذا فأعلمه حق العلم . قد تسألينني لماذا يعرف الفقير هـذا ؟ لماذا يفكر الفقير على هذا النحو ؟ هي التجربة يا عزيزتي ، التجـربة وحدها . هو يعرف مثلا ان ذلك السيد الذي يمشي في الشـارع على مسافة بضع خطوات منه متجها الى أحد المطاعم ، يقول لنفسه : « وددت لو أعلم ما عسى يأكل اليوم هذا الموظف البـائس . أما أنا فسـوف آمن لنفسي بطبق من شواء ، وأما هو فلا شك أنه سيكتفي بجريش مسلوق بلا زبدة » ، هناك ناس من هذا النوع يا فارنكا ، هناك بشر يقضون أوقاتهم كلها في تأملات من هذا القبيـل . ان أولئك الكتاب الوقحـين وأولئك المخربين الأوغاد الذين ترينهم يتنزهون في الشارع ، فلا يكون لهم من هم الا أن يلاحظوا هل يضع فلان على الأرض راحة قدمه كلها أم هو يمشي على رءوس الأصابع ، يحبون أن يعرفوا أليس في حذاءى ذلك الموظف البسيط ثقوب تخرج منها أصابع قدميه عارية ؟ أليس كمـاه مهترئين حتى الكوعين ؟ انهم يلاحظون ذلك ثم يصفونه وينشرونه كتبا كريهة مقيتة ! فيم يهمهم أن يكون كماي مثقوبين حتى الكوعين ؟ اغفري لي يا فارنكا اذا جئتك بتشبيه فظ فقلت ان الرجل الفقير يشعر في هذه الأمور كلها بنفس الحياء الذي الذي تشعرين أنت به كفتـاة . فأنت لا تحبين طبعا ــ واغفري لي هذا التشبيه الثقيل أيضا ــ أن تتعرى أمام الناس . فكذلك الرجل الفقير ، لا يحب أن يحشر أحد أنفه في خدره ليرى كيف يعيش . لم يكن من الخـير اذن يا فارنكا أن أهان في المرة الماضية بالتواطؤ مع أعدائي الذين يحاولون أن ينالوا من شرف رجل فاضل ومن عزة نفسه .

كنت أشعر اليوم بضيق شديد في المكتب ، كنت أتجمع على نفسي كقنفذ أو كعصفور منتوف . خيل الى أن العار يلتهمني ويحـرقني من أخمص القـدمين الى قمـة الرأس . كنت متضـايقا من نفسي برما بهـا

يا فارنكا . وكيف لا يخجل المرء ولا يرتبك حين يظهر كوعه من كم قميصه وحين تتراقص آزرار ردائه على طرف خيط ؟ كان كل شيء في هندامى فوضى ، هذا الصباح ، كأنما على عمد . ان المرء يفقد شجاعته فى مثل هذه الظروف . ثم ... لقد آخـذ ستيفان كارلوفتش نفسه يحدثنى فى بعض الأعمال اليوم . فما هى الا لحظة حتى انطلقت منه صيحة تعجب قائلا : « آ ... ياماكار ألكسيفتش ، باتوشكا ... » . لم يكمل قول ما كان يدور فى فكره ، ولكننى حزرت ذلك فورا ، فاصطبغ وجهى بالحمرة ، حتى لقد احمرت صلعتى . الحق أن صيحة التعجب تلك كانت تبدو عابرة لا شأن لها ، ومع ذلك فهى تقلقنى ، وهى تثير فى رأسى أفكارا لا حصر لها . أتراهم فى الدائرة قد علمـوا بما جرى ؟ وقانى الله شر هذا ، ما عسى يقع لو علموا ؟ لا أكتمك أننى أشـتبه فى شخص معين . ان هؤلاء الأشقياء لا يعرف قلبهم الرحمة ولا الشفقة . سوف يفضحوننى ، سوف يبيعون كل أسرار حيـاتى ، لا حرمة لشىء عندهم .

أنا أعرف الآن من الذى فضحنى . ان راتازاييف هو الذى دبر هذه المكيدة . انه يعرف أحد الموظفين فى دائرتنا ، فلا بد انه قص عليه الأمر عابرا أثناء حديث جرى بينهما ، مضيفا اليه أمورا من عنـده فيما أتخيل ، أو لعله تحدث عن الأمر فى دائرته هو ، فتسربت الاشاعة من هناك الى دائرتنا . ذلك أن جميع سكان منزلنا ، بغير استثناء ، يعـرفون تلك القصـة ، ويومئـون الى نافذتك بالاصـبع . وأمس ، حين ذهبت أتعشى عندك ، وقفوا جميعا على النافذة ، وروت صـاحبة المنزل المثـل السائر الذى يتحدث عن الشيطان يحوم حول الطفل ، ثم قالت بعد ذلك كلمة نابية فى الكلام عليك . ولكن هذا كله لا يعد شيئا اذا قيس بمـا يبيته راتازاييف من نية حقيرة ، وهى أن يضـعنا أنا وأنت فى الأدب ،

وأن يصفنا وصفا ساخرا . لقد صرح هو نفسه بذلك ، ونقل الىّ اقواله أناس شرفاء من سكان منزلنا . انقلب عقلى رأسا على عقب منذ سمعت هذا الكلام . أصبحت لا أستطيع أن أفكر فى شىء ولا أعرف أى قرار اتخذ . لماذا نخفى عن أنفسنا يا ملاكى اللطيف أننا بآثامنا قد أثرنا سخط الله علينا ؟ اقترحت يا ماتوشكا أن ترسلى الى كتابا أتسلى بقراءته . ألا سحقا لهذا الكتاب ! اننى لا أريد كتبا ، بئست الكتب كلها ! فهى لا تساوى شيئا وليس لها من قيمة . ما هى الا قصص غير معقولة ، ماهى الا حكايات سخيفة مستحيلة ! ليست الروايات الا بلاهات وغباوات كتبها أصحابها لتعطلهم عن العمل ، دون أن يكون لهم هدف الا أن يملئوا فراغهم ! ثقى يا ماتوشكا ، ثقى فى هذه الأمور بخبرتى الطويلة ! لاتلقى بالا الى أولئك الذين يحدثونك عن كاتب اسمه شكسبير ! ــ يظهر أن فى الأدب كاتبا بهذا الاسم ــ دعيك من شكسبير ومن غير شكسبير ! ان شكسبير هذا لا يساوى شيئا هو أيضا ... ما ذلك كله الا ترهات وتفاهات ! . ما ذلك كله الا تلفيقات واختراعات تتخذ حجة لاصدار كراريس فى هجاء الناس والسخر منهم والضحك عليهم .

المخلص لك

ماكار ديفوشكين

٢ آب (أغسطس)

السيد العزيز ماكار ألكسييفتش

لماذا تعذب نفسك هذا التعذيب ؟ لسوف يصلح كل شىء بمعونة الله . لقد جاءت فيدورا بشغل كثير ، لى ولها ، وشرعنا نعمل فورا فى

كثير من الهمة والنشاط والحماسة • لعلنا نستطيع بذلك أن نذلل جميع المصاعب • تعتقد فيدورا أن آنا فيودوروفنا ليست غريبة عن متاعبى الأخيرة • ولكن هذا لا يهمنى الآن • اننى أشعر اليوم بفرح خاص • تقول انك تنوى اقتراض بعض المال ! اياك ثم اياك ! فلن تستطيع الخروج من المأزق متى آن أوان السداد • الأفضل من هذا أن تزداد قربا منا ، وأن تكثر زياراتك لنا • أما صاحبة بيتك فلا تعبأ بها ولا تلق اليها بالا • وأما عن أعدائك ومضطهديك الأخر ، فأنا على يقين من أنك تعذب نفسك بشكوك لا محل لها ولا داعى اليها يا ماكار ألكسييفتش ! راقب نفسك ! قلت لك فى المرة الأخيرة ان كلامك يدل على انك تعانى اضطرابا شديدا • أودعك الآن ، الى اللقاء • انتظرك عندى اليوم • لا تتخلف •

المخلصة لك

ب • د

٣ آب (أغسطس)

ملاكى اللطيف فرفارا ألكسييفنا !

أسارع فأنبئك ، يا شعاع ضيائى ، ان بعض الآمال قد أشرقت فى نفسى • كتبت تقولين لى يا ملاكى الصغير ان علىّ أن لا أقترض شيئا من المال• ولكننى يا حمامتى لا أستطيع أن أستغنى الآن عن الاقتراض • ان حالتى سيئة منذ الآن ، فكيف اذا حصل لك شىء لا قدر الله • ان جسمك ضعيف • وأنا انما أكتب اليك فى هذه اللحظة لأقول لك ان الاقتراض لا بد منه ولا غنى عنه • لذلك أتابع محاولة الاقتراض •

ان مكانى فى المكتب يا فرفارا ألكسيفنا يجاور مكان ايميليان

ايفانوفتش . ليس هو ايميليان الذى تعرفينه . انه ايميليان آخر يعمل موظفا مثلى ، ونحن أقدم موظفى الدائرة : نحن عماداها ان صح التعبير. وهو انسان طيب النفس مخلص ، لكنه صموت يظل مبتعدا عن الناس ، منطويا على نفسه ، يوحى مظهره بأنه دب حقا . ولكنه فى مقابل ذلك رجل لا يكل ولا يمل من العمل . وله قلم ما أروعه ! .. خط انجليزى قح ! يجب أن أعترف ، حتى أكون صادقا ، بأن خط هذا الرجل المحترم لا يقل جمالا عن خطى . لم تقم بيننا صلة قوية حتى الآن ، وكنا نقتصر على تبادل التحيات : « صباح الخير » ، « مع السلامه » ، الخ ... وكنت فى بعض الأحيان اذا احتجت الى موسى أبرى بها قلمى أتجه اليه قائلا : « أعرنى الموسى » .. الخلاصة أن كل شىء بيننا كان لا يزيد على التزام المواضعات التى تقضى بها اللباقة . وها هو ذا يسألنى فى هذا الصباح على حين فجأة : « ما بالك يا ماكار ألكسييفتش ؟ انك تبدو شارد اللب كثير التفكير » . أدركت أنه يريد لى خيرا . فقلت له : « والله ... يا ايميليان ايفانوفتش ، الأمر كيت وكيت » . طبعا لم أذكر له كل شىء ، معاذ الله ! لا ولن أذكر له كل شىء يوما . ولو أردت ذلك لما تجرأت على كل حال . كل ما هنالك اننى كشفت له عن بعض الأمور الجزئية، وأسررت اليه اننى فى ضيق ، الخ ... فأجابنى بقوله : « ولماذا لا تقترض شيئا من المال ما دام الأمر كذلك يا عزيزى ؟ اذهب الى بطرس بتروفتش ، فانه يقرض بفائدة . ولقد سبق أن أقرضنى بفائدة معتدلة محتملة . آه يا فارنكا ، لقد وثب قلبى من صدرى حين سمعت هذه الكلمات . وأخذت أفكر وأفكر . قلت لنفسى : من يدرى ؟ قد يلهم الله بطرس بتروفتش ، هذا الرجل المحسن ، أن يقرضنى أنا أيضا . وأجريت حسابى فقدرت أننى سأستطيع أن أدفع لصاحبة البيت دينا على ، واننى سأستطيع أن أساعدك أيضا ، واننى سأستطيع أن أحسن هندامى قليلا

آخر الأمر • ذلك أن المخجل أن يكون هندامى على ما هو عليه الآن • لقد أصبحت أشعر بضيق وحرج فى المكتب ، ناهيك عن أولئك الساخرين الأشرار الذين لا ينتظرون الا حجة من أجل أن يستهزئوا • وهبنى لا أحفل بهم بل أدعهم وشأنهم ••• ان من الممكن أن يمر صــاحب المعالى بمكتبى ، وهذا يحدث من حين الى حين ، ومن الممكن ، لا قدر الله ، أن يلقى علىّ نظرة فيرى ملابسى غـير لائقة ، وهو امرؤ يعتقد أن النظافة وحسن الهندام أهم من أى شىء آخر • صحيح انه لن يقول لى شيئا • ولكننى سأموت فى مكانى من فرط الحياء والخجل والاضطراب • ذلك ما قد يحدث • لذلك استجمعت شجاعتى ، ودسست خجــلى فى جيبى المثقوبة ، وتوجهت نحو بطرس بتروفتش ممتلئا بالأمل مرتعشا من الخشــية فى آن واحـــد • لكن الأمور لم تنتــه الى ما أحب يا فارنكا • تخيلى أن ذلك كله لم يجدنى نفعا • كان فى تلك اللحظة مشغولا يكلم تادى ايفانوفتش ، فدنوت منه من جانب ، وشددت كمه قائلا : « بطرس بتروفتش ، هيه ••• بطرس بتروفتش » ، فالتفت الى ، فتابعت أشرح له اننى فى حاجة الى ثلاثين روبلا ، الخ • فلم يفهم فى أول الأمر ما أريد، حتى اذا شرحت له الأمر مرة أخرى ، أخذ يضــحك ، ولكنه لم يجب بشىء بل اكتفى بالصمت • وكررت طلبى ، فقال لى عندئذ : « هــل عندك رهن ؟ » ثم أكبّ ينهمك فى كتابته ، متابعا عمله دون أن ينظر الى • اضطربت قليلا • ثم أجبته قائلا : « لا ليس عندى رهن يا بطرس بتروفتش » • وحاولت أن أقنعه بأننى سأرد اليه القــرض متى قبضت راتبى ، واننى لن أتأخر عن السداد لحظة ، فذلك عندى واجب مقدس• وناداه أحد فى تلك اللحظة ، فمضى اليه • وأخذت أنتظر ، فلما عاد جعل يبرى قلمه كأنه لا يلاحظ وجودى • فاستأنفت كلامى قائلا له : « أما من وسيلة يا بطرس بتروفتش ؟ أما من طريقة ؟ » • ولكنه ظــل

صامتا لا يجيب ، متظاهرا بأنه لا يسمعنى • فانتظرت بضع دقائق أخرى واقفا قربه • ثم قررت أن أحاول محاولة أخيرة ، فشددت كمه مرة ثانية ، فلم ينبس بحرف ، حتى اذا فرغ من برى قلمه عاد ينهمك فى الكتابة ، فلم يسعنى الا أن أنصرف عنه • هؤلاء يا ماتوشكا أناس أخيار جديرون بالاحتـــرام ما فى ذلك ريب ، ولـكنهم مسرفون فى الكبر والصلف والزهو ، فلا يعرف المرء كيف يأخذهم • نحن صغار جدا بالقياس اليهم يا فارنكا • لذلك أكتب اليك هذا كله •

وقد أخذ ايمليان ايفانوفتش يضحك حين رويت له القصة ، وهز رأسه الى ذلك هو أيضا • ولكنه فى مقابل هذا بث فى نفسى بعض الأمل يا فارنكا • انه رجل طيب شهم • وعدنى بأن يوصى بى شخصا يعرفه ، يقيم ، يا فارنكا ، فى حى فيبورج ، ويقرض بفائدة أيضا ، وهو موظف بالدرجة الرابعة عشرة فيما يظهر • يدعى ايمليـان ايفـانوفتش • ان الرجل سيقرضنى المبلغ حتما • سأمضى اليه غدا يا ملاكى الرقيـق •• سأمضى اليه ، ما رأيك ؟ ألست على حـق ؟ لا غنى لى عن الاقتـراض يا فارنكا • صاحبة البيت تقول انها ستطردنى ، وهى ترفض أن تقدم لى طعام العشاء • حذاءاى فى حالة يرثى لها يا ماتوشكا ، وأنا فى حاجة الى أزرار ، والى أشياء أخرى كثيرة أيضا • ما عسى يحدث لو لاحظ أحد من رؤسائى هندامى الرث ؟ سيكون ذلك مصيبة يا فارنكا ، سيكون ذلك مصيبة ، سيكون ذلك كارثة حقا •

ماكار دييفوشكين

٤ آب (أغسطس)

عزيزى ماكار ألكسييفتش

ناشدتك الله يا ماكار ألكسييفتش أن تحصل على مال بأية وسيلة ، أن تقترض مالا بأقصى سرعة . ما كنت لأرضى أن أطلب منك مساعدة فى الظروف الراهنة ، ولكنك لا تعرف الوضع الذى أنا فيه . يستحيل علينا أن نبقى فى هذا المسكن بأية حال . لقد أصابتنى مكاره رهيبة ، ولا تستطيع أن تتخيل مدى الاضطراب النفسى الذى أعانيه فى هذه اللحظة .

تصور يا صديقى أن رجلا لا نعرفه ، رجلا مسنا يشبه أن يكون شيخا عجوزا مع أوسمة كثيرة ، جاء الينا هذا الصباح . دهشت من مجيئه أشد الدهشة ، لأننى لا أعرف لزيارته سببا . كانت فيدورا قد خرجت منذ لحظة لشراء شىء . أخذ الرجل يلقى علىّ الاسئلة تلو الأسئلة ، فهو يسألنى عن معيشتى وعن مشاغلى ، ثم اذا هو يصرح لى فجأة قبل أن أفرغ من الاجابة على أسئلته ، بأنه عم ذلك الضابط ، وبأنه قد استاء كثيرا من السلوك السيىء الذى سلكه معى ابن أخيه فعرّضنى لسوء السمعة فى المنزل كله ، وقال ان ابن أخيه صبى غر طائش العقل ، وعرض علىّ أن أكون فىحمايته ورعايته ، وأكد فى الوقت نفسه أن علىّ أن لا ألقى بالا الى الشبان ، مضيفا الى ذلك انه يقدر ظروفى ويعطف علىّ عطف الأب على ابنته ، ويشعر نحوى شعور الأب نحو ابنته ، وانه على استعداد لأن يساعدنى فى كل أمر . فاحمر وجهى وتساءلت ماذا يجب أن يكون رأيى فىهذا الكلام ، ولكننى لم أتسرع فأشكره . وماهى الا لحظة حتى رأيته يمسك يدى عنوة ، ويلامس خدى ، ويقول اننى فتاة جميلة ، وانه افتتن حين لاحظ أن لى نقرتين فى وجنتى (الله أعلم ماذا قال فى هذا !) وأراد أخيرا أن يقبلنى بحجة أنه شيخ عجوز (ماكان

أبشعه !) وفى هذه اللحظة دخلت فيدورا • فاضطرب قليلا وعاد يؤكد مرة أخرى أنه يقدرنى ويحترمنى لما أتصف به من تواضع ولما يتصف به سلوكى من استقامة ، وانه يتمنى أن أثق فيه وأن لا أخشاه قط • ثم جذب فيدور الى ركن من الاركان واراد أن يعطيها بعض المال متذرعا بحجج غريبة • ولكن فيدورا رفضت أن تأخذ المال طبعا • وقرر الرجل أخيرا ان ينصرف ، لكنه جدد تأكيداته واعدا أن يعود مرة أخرى ، وأن يجيئنى بقرطين (كان يبدو مضطربا هو نفسه) ونصحنى أن أستبدل بشقتى شقة أخرى ، وأوصانى بمنزل وصفه بأنه جيد جـــدا وبأنه لن يكلفنى أجرا • وصرح بأنه يشعر بكثير من العطف نحوى لأننى فتاة شريفة عاقلة • ونصحنى بأن أتجنب الشبان الذين فسـدت أخـلاقهم ، وذكر أنه يعرف آنا فيودوروفنا ، وانها كلفته بأن يبلغنى انها ستزورنى هى أيضا • فهمت فى تلك اللحظة كل شىء • فتملكنى غضب شـديد حتى أصبحت كالمسعورة • هذه أول مرة فى حياتى أتعرض فيها لمثل هذا الموقف • صرخت فى وجهه حانقة ساخطة • فاضطرب اضـطرابا شديدا • وهبت فيدورا فى تلك اللحظة الى نجدتى ، فأخرجته من البيت اخراجا يوشك أن يكون طردا • وخلصنا الى أن آنا فيودوروفنا هى التى دبرت الأمر كله ، والا فكيف له أن يعرفنا ! ••

أتوجه اليك الآن يا ماكار ألكسييفتش ضارعة أن تساعدنا • ناشدتك الله ألا تتركنا على مثل هذا الوضع ! اقترض مالا ، ولو مبلغا ضـئيلا ، لأننا لا نملك ما ندفعه نفقات انتقال ، ومن المستحيل علينا قطعا أن نمكث هنا بعد الآن • ذلك رأى فيدورا أيضا • لا بد لنا من خمسة وعشرين روبلا • سأردها اليك ، سأجنيها بعملى • ستأتينى فيدورا بأشغال جديدة بعد بضعة أيام ، فاذا كنت مترددا عن الاقتراض لأن الفائدة باهظة مثلا ، فلا توقفنك هذه الصعوبة ، بل وافق على كل شىء • سأرد اليك المبلغ

كاملا ، ولكن ناشدتك الله لا تتركنى بلا سند • يحز فى نفسى طبعا أن أزعجك فى الظروف الحالية ، ولكنك الآن أملى الوحيد ، ولا أمل لى سواك • وداعا يا ماكار ألكسييفتش • فكر فىّ ، وليكلل الله مساعيك بالنجاح •

ب • د

٤ آب (أغسطس)

يمامتى ، عزيزتى فرفارا ألكسييفنا

ان هذه الضربات الكبيرة التى يباغتك بها القدر ترهقنى وتضنينى • ان هذه النوازل الرهيبة تهشم قلبى وتشل روحى • ان هذا الجنس من المتطفلين الذين تعددت أنواعهم ومن الشيوخ العجز الذين يبعثون على الاشمئزاز لا يشيعون الحزن واليأس فى قلبك وحدك يا ملاكى الرفيق، بل لقد آلوا على أنفسهم فوق ذلك أن يجهزوا علىّ أنا اجهازا كاملا • ولسوف يصلون الى مبتغاهم ، هؤلاء الطفيليون ، أؤكد لك ذلك • ذلك أننى أوثر الآن أن أموت جوعا على أن لا أهب الى مساعدتك • اذا لم أساعدك فذلك هو الموت عندى يا فارنكا ، الموت الاكيد ، الموت المحقق • واذا أنا ساعدتك فستبتعدين عنى ، ستطيرين الى بعيد يا طائرى الصغير ، ستهجرين عشك الصغير الذى باغتك فيه البوم الحقير بريد أن يقضى عليك ضربا بالمناقير • ذلك ما يعذبنى ويضنينى يا ماتوشكا • ولكن كيف أمكنك يا فارنكا أن تكونى قاسية هذه القسوة كلها أنت أيضا ؟ ما هذا الذى يدور فى خلدك ؟ انهم يضطهدونك ويهينونك ، فتتألمين وتتعذبين

يا طائرى الصغير ، ثم اذا أنت تزيدين على ذلك فتجعلين تلومين نفسك على أنك تزعجينني وتضايقينني • انك تعدين بأن نكدى فى العمل حتى تردى الدين ، فكأنك تريدين أن تقتلى نفسك قتلا ، وأنت على ما أنت عليه من سوء الصحة ووهن الجسم ، فى سبيل أن نسدد المال فى مواعيده• هلا فكرت يا فارنكا فيما تقولين ؟ لماذا تقدرين أن عليك أن تضاعفي جهدك فيما تقومين به من أعمال الخياطة ، وأن ترهقى نفسك ، وتعذبى روحك بهذه الهموم كلها ، وأن تتعبى عينيك الجميلتين ، وتهدى البقية الباقية من قواك ؟ صحيح يا ملاكى أننى امرؤ لا يصلح لشىء ، ولكننى سأحاول أن أكون مفيدا لك على كل حال • سأذلل جميع العقبات • سأحصل على عمل اضافى فى خارج الوظيفة • سأنسخ لكتّاب كثر ، أفرض نفسى عليهم ، واجبرهم على أن يعهدوا الىّ بأعمال ، لأنهم فى حاجة الى ناسخين • ولكننى لن أسمح لك بأن تقتلى نفسك فى الشغل ، لن أرضى أن تنفذى مشروعك المقيت هذا • سوف أقترض مالا يا ملاكى الرقيق ، اطمئنى • تطلبين منى يا يمامتى أن لا يصدنى الربا الفاحش عن الاقتراض • ولكن ذلك لن يصدني يا ماتوشكا ، لا لن أخاف ، لن يثنينى أى شىء بعد الآن• سوف أطلب قرضا مقداره أربعون روبلا ورقا يا ماتوشكا • ليس هذا بكثير يا فارنكا ، أليس كذلك ؟ هل تقدرين أنهم سيقرضوننى أربعين روبلا على الثقة ؟ هل يمكن أن ينقوا بى لأول وهلة ؟ هل أستطيع ، أعنى هل أستطيع فى رأيك أن أوحى بالثقة والاطمئنان دفعة واحدة ؟ أقصد : هل توحى بذلك هيئتى ، هل يوحى بذلك منظرى ؟ هل أحدث فى نفس من يرانى انطباعا حسنا ؟ حاولى أن تتذكرى يا ملاكى الرقيق هل أحدث فى نفس من يرانى أثرا حسنا من أول نظرة ؟ هل يرتاح الىّ الناس حين يروننى ؟ ذلك أننى أشعر بنوع من الرهبة حين ألقى على نفسى هذا السؤال ، أشعر بخوف مرضى والحق يقال • من هذه الروبلات الأربعين

لا يرهقنى عـــذاب الضمير • يجب أن أعترف لك بصراحة يا فارنكا ، اننى الآن فى وضع هو الدمار بعينه ، وضع ما مررت بمثله فى حيـاتى أبدا • ان صاحبة البيت تحتقرنى ، وما من أحد يحترمنى • مصاعب من جميع الجهات ، ثم ديون وديون ، وفى المـكتب ، حيث لم يكن زملائى يحبوننى كثيرا حتى قبل الآن ، ساء وضعى مزيدا من السوء يا ماتوشكا • اننى أحاول أن لا ينتبـــه الىَّ أحد ، فأنكمش على نفسى ، وأختبىء عن الناس ، وأتسلل الى مكانى فى المكتب تســللا ، حتى أتحـاشى نظرات الآخرين وحتى لا أرى شيئا أنا أيضا • هـــذه أمور لا أكاد أملك من الشجاعة ما يمكننى من البوح بها ••• وما قولك اذا رفض أن يقرضنى؟ لا ••• لا ••• الأفضل يا فارنكا أن لا أفكر فى هذا ، وأن لا أهدم قلبى بمثل هذه الخواطر • ومن أجل ذلك انما أكتب اليك الآن •• لأجنبـك التفكير فى مثل هذا الأمر ، ولأوقيك العذاب الذى سوف تعانينه اذا خطرت ببالك فكرة سيئة كهذه الفكرة • يا رب ، يا رب ! ما عسى يحدث لنا فى مثل تلك الحالة ؟ ما عسى يحدث لنا اذا رفض أن يقرضنى ؟ صحيح انك لن تستطيعى الانتقال من بيتك عندئذ ، وانك ستظلين فى هــذا المنزل ، فتمكثين قريبة منى غير بعيدة عنى • ولكن •• لا •• سوف أعجز حتى عن العودة الى بيتى اذا أخفقت فى مسعاى ، سوف أهلك نفسى عندئذ فى مكان ما ، سوف أموت • لقــد طالت رسالتى • ويجب علـى أن أحلق ذقنى • ان من الأفضل أن يحلق المرء ذقنه ••• من المستحسن دائما أن يعنى المرء بمظهره • أسأل الله أن يعيننا ويشد أزرنا • وسوف أصلى الآن ثم أمضى الى مسعاى •

م • دييفوشكين

سوف أحتفظ لك يا فارنكا بخمسة وعشرين ، ثم أعطى صاحبة البيت روبلين فضة ، أما الباقى فأنفقه على نفسى ، على حاجاتى أنا • صحيح أن من المستحسن أن أعطى صاحبة البيت أكثر من ذلك ، حتى لقد يكون هذا ضروريا لا غنى عنه • ولكن فكرى فى الأمر أنت نفسك يا ماتوشكا• احسبى النفقات التى لا بد لى منها ، ترى انه يستحيل على أن أنقد صاحبة المنزل أكثر من روبلين فضة • غير وارد اذن أن أفعل ذلك ، ومن الافضل أن لا نتحدث فيه • سوف أشترى حذاءين بروبل فضة • اننى أتساءل : هل يمكن أن يتماسك حذاءاى القديمان حتى الغد ، هل يمكن أن أنتعلهما لأذهب بهما الى المكتب فى الغداة • أحتاج أيضا الى عصبة للعنق ، ذلك أن العصبة العتيقة قد بليت منذ سنة • ولكن لمّا كنت قد وعدتنى بأن تفصلى لى عصبة من مآزرك العتيقة ، بل وصدرة أيضا ، فاننى لا أفكر الأن فى شراء عصبة ولا صدرة • حلت اذن مشكلة الحذاءين والعصبة•أحتاج عدا هذا الى أزرار، لأننى فقدت نصف أزرار سترتى • اننى لأرتعش حين أتصور أن صاحب المعالى قد يرى ما انا فيه من فوضى ! ما عساه يقول عندئذ يارب ! على اننى لن أسمع الملاحظات التى قد يبديها فى هذه الحالة ، لأننى سأموت ، نعم سأموت على الفور . سأموت خجلا وحياء وشعورا بالعار ! آه ما أقسى هذا يا فارنكا ! سيبقى لى اذن بعد كل هذه النفقات التى لا بد منها ثلاثة روبلات ورقا، وسيكفينى هذا المبلغ لأقيم أودى ، وكذلك لأشترى نصف رطل من التبغ ، لأننى لا أستطيع يا ملاكى الرقيق أن أعيش بلا تدخين : منذ تسعة أيام لم أضع الغليون فى فمى مرة واحدة • فى وسعى أن أشترى لنفسى هذا التبغ دون أن أقول لك ذلك ، ولكننى أخجل أن أفعل • أتعيشين أنت فى مثل هذا البؤس ، وتحرمين نفسك من كل شيء ، ثم أبدد أنا المال فى سبيل ملذات صغيرة تافهة ؟ لذلك تريننى أحدثك فى هـذا الأمر الآن حتى

٥ آب (أغسطس)

السيد العزيز جدا ماكار ألكسييفتش !

ليتك لا تعذب نفسك هذا التعذيب كله على الأقل ! أليس ما بنا من شقاء كافيا بدون هذا التعذيب الذى توقعه فى نفسك ؟ أرسل اليك ثلاثين كوبكا فضة . يستحيل علىّ ان افعل أكثر من ذلك اطلاقا . فاشتر ما أنت فى أمس الحاجة اليه حتى تعيش الى غد على كل حال . لم يبق لنا شيء تقريبا ، ولا أدرى ما عسى يكون الغد . ذلك محزن ياماكار ألكسييفتش. ولكن ليس يفيد فى شيء أن تحزن هذا الحزن كله : لقد أخفق مسعاك، فما حيلتنا وماذا نستطيع أن نفعل ؟ فيدورا تؤكد أن ذلك ليس بكارثة . ان فى امكاننا أن نمكث فى هذا المسكن الى حين ، ولن يجدينا كثيرا أن ننتقل الى مسكن آخر على كل حال ، ففى وسعهم دائما أن يعثروا علينا اذا هم أصروا . ومع ذلك أرى أنه لا يستحسن أن نبقى هنا الآن . ولولا أننى حزينة جدا لكتبت اليك شيئا فى هذا الموضوع .

غريب طبعك يا ماكار ألكسييفتش ! انك تسرف فى الأسى لأحزان الآخرين . وعلى هذا سوف تقضى حياتك كلها شقيا تعيسا الى أبعد حدود الشقاء والتعاسة . اننى أقرأ كل رسالة من رسائلك بانتباه شديد ، فأدرك أنك تعذب نفسك من أجلى ، وأن الهموم تركبك فى سبيلى ، وأن حزنك علىّ أشد من حزنك على نفسك فى أى وقت من الأوقات . سيقول جميع الناس طبعا انك رجل طيب القلب . أما أنا فأرى أن هذا اسراف فى طيب القلب . ما أقوله الآن هو نصيحة من صديقة تخلص لك الود يا ماكار ألكسييفتش ، أنا شاكرة لك ، شاكرة لك جدا ، جميعَ الجهود التى بذلتها فى سبيلى . اننى أعرف هذه الجهود ، وأشعر ازاءها بأعمق الامتنان والتأثر . أنظر الى الأمر بنفسك واحكم فيه : انه ليحز فى

نفسى ويؤلمنى أشد الالم أن ألاحظ ، بعد كل المصائب التى نزلت بك والتى كنت أنا سببها على غير ارادة منى ، أنك ما تزال حتى اليوم لاتعيش الا بى ولى ، فكأن العالم كله قد خلا الا من أفراحى وأتراحى ونفسى • لو كان على المرء أن يأسى هذا الأسى كله لما يقع لغرباء ، وأن يتعذب هذا العذاب لآلام كل انسان من الناس ، لأصبح أشقى أهل الارض طرا • حين جئت الى اليوم آيبا من مكتبك هالنى منظرك • كنت شاحب الوجه ، مذعورا يائسا ، مشعث الهيئة غريب السحنة • لماذا ؟ لأنك كنت تخشى أن تروى لى اخفاقك فى مســعاك ، لأنك كنت تخاف أن أحزن وأن أقلق • حتى اذا لاحظت أننى مرتاحة تخففت من عبئك فجأة • لا تعذب نفسك يا ماكار ألكسييفتش ، لا تنحدر الى هوة الحـزن واليأس ، كن عاقلا ، أرجوك ، أضرع اليك • لسوف ترى أن جميع الأمور ستنحل ، وأن كل شىء سينتهى الى خير • والا فلن تستطيع أن تعيش متألما لآلام الآخرين هذا التألم دائما • وداعا يا صديقى • أضرع اليك مرة أخرى ان لا تسرف فى القلق علىّ •

ب • د

٥ آب (أغسطس)

يمامتى ، عزيزتى فارنكا !

طيب ، يا فارنكا ، طيب • أنت ترين أن اخفاقى فى الحصول على مال حتى الآن ليس بالكارثة الكبيرة • طيب طيب • هأنذا راض سعيد امتثالا لأمرك • وانى لأفرح حين أتصـور أنك أصبحت لا تفكرين فى

تركى أنا الشيخ العجوز الفقير ، وأنك باقية فى هذا المسكن • الحق ان قلبى طفح فرحا حين قرأت ما تقولينه فى رسالتك عن العواطف التى أكنها لك ، وحين رأيت انك تعرفين كيف تقدرين هذه العواطف حق قدرها • لا أتحدث عن هذا افتخارا ، بل لأننى أرى فيه برهانا على العاطفة التى تحملينها لى ما دمت تقلقين أيضا لما آلت اليه حالة قلبى • طيب يا عزيزتى ، ما لنا ولقلبى الآن • دعينا من قلبى الآن • انك تأمريننى بأن أتجمل بالشجاعة • طيب يا ملاكى الرقيق • أنا أعلم انه لا بد للمرء من الشجاعة • ولكن فكرى أنت فى الامر يا ماتوشكا ، واقطعى فيه برأى : ما الحذاءان اللذان أذهب بهما غدا الى العمل ؟ تلك هى المسألة يا ماتوشكا • هذا أمر يمكن أن يقتل المرء قتلا ، يمكن أن يدمره تدميرا كاملا ؟ لا سيما وأننى لا أتألم على نفسى فحسب ، ولا أتعذب من أجلى وحدى • ثم انه يستوى عندى أن أخرج بلا معطف ولا حذاءين فى هذا الجو البارد وهذا الصقيع المتجلد ، اننى قادر على احتمال ذلك ، مستعد لقبول كل شىء • فأنا انسان بسيط ، انسان صغير ، ولكن ما عسى يقول الآخرون ، يارب ، ما عسى يقول أعدائى ، ما عسى تقول هذه الألسنة الطويلة كلها ، حين أرى بلا معطف ؟ من أجلهم ، من أجل الناس ، انما يضطر المرء الى ارتداء معطف وانتعال حذاءين أيضا • من أجل الناس انما يتجمل المرء بهذه الأشياء ما فى ذلك ريب • فأنا اذن فى حاجة الى حذاءين ، يا روحى ، يا ماتوشكا ، صونا لشرفى ومحافظة على سمعتى ؟ صدقى يا ماتوشكا أن الحذاءين المثقبين يسيئان الى سمعتى وشرفى كليهما ، صدقى تجربة عجوز عاش طويلا وعرف العالم وبلا الحياة وخبر الناس • صدقى ما أقوله لك أنا ، لا ما يكتبه أولئك المخربشون الذين يسودون صفحات طويلة ويسمون أدباء •

لم أقص عليك ، يا ماتوشكا ، تفاصيل ما جرى أمس • لقد تألمت

كثيرا ، وعانيت من عذاب النفس في ذلك الصباح وحده أكثر مما عانيت خلال سنة برمتها . اليك ما حدث : نهضت من فراشي وغادرت البيت في ساعة مبكرة جدا من الصباح ، حتى أستطيع أن أجده في منزله وأن أصل الى عملي بعد ذلك دون تأخر . كان المطر يهطل ، وكان الشارع مليئا بالوحل . تدثرت بمعطفي . ومضيت أسعى في الشارع وأنا أتمتم : « يا رب ، اغفر لي آثامي ، وهب لي النجاح في مسعاي » ، حتى اذا مررت أمام كنيسة ن ، رسمت اشارة الصليب ، وأعلنت لله توبتي عن كل ماقارفت من شر ، وخطر ببالي في تلك اللحظة أنني لا أستحق أن أخاطب الله . سرت منكفئا على نفسي ، لا أريد أن أنظر فيما حولي . سرت لا يعنيني الطريق الذي أسلكه . كانت الشوارع مقفرة وكان المارة القلائل الذين أصادفهم يبدون مهمومين منهمكين : ولا عجب في ذلك ، فمن ذا الذي يخرج في مثل هذه الساعة ومثل هذا الجو متنزها ؟ والتقيت بجماعة من العمال متسخي الايدي ، أقبلوا عليّ يدفعونني عابرين ... يا لهم من أفظاظ غلاظ ! تركتني عندئذ شجاعتي ، واعتراني خوف ، حتى أصبحت لا أريد أن أفكر في المبلغ الذي يجب عليّ أن أقترضه ، ولا أجرؤ أن أفكر فيه ، وانما أسير ضاربا في الارض على غير هدى . وقرب جسر « الانبعاث » انفلت نعل أحد حذاءي حتى كاد ينفصل عن الحذاء ، ولكنني تابعت سيري لا أدري كيف ! وهأنذا ألمح النساخ ارمولاييف على حين فجأة سائرا في اتجاه هو عكس الاتجاه الذي كنت سائرا فيه . وقف ارمولاييف أمامي ونظر اليّ وظل يتابعني ببصره كأنه يتمنى لو يطلب مني بعض المال ليشرب به خمرا . قلت في نفسي عندئذ « هذا هو الأوان حقا ! » وكنت أشعر بتعب شديد ، فتوقفت أستريح بضع لحظات ، ثم تابعت سيري . بحثت فيما حولي عن شيء يمكن أن أقف عليه تفكيري نشدانا للسلوى وسعيا الى بث شيء من الشجاعة في نفسي . ولكنني لم

أستطع الى ذلك سبيلا : كان يستحيل أن أثبت أفكارى على اى شىء • يضاف الى ذلك اننى كنت قد اتسخت بالوحل اتساخا شديدا حتى صرت استحى من نفسى • وأخيرا لمحت من بعيد بيتا خشبيا اصفر اللون له دربزين • قلت لنفسى : « ذلك هــو البيت الذى وصــــفه لى ايميليـان ايفانوفتش ، هنا يسكن ماركوف » (ماركوف هو الرجل الذى يقرض بفائدة يا ماتوشكا) • نسيت فى تلك اللحظة كل شىء • ورغم ثقتى بان منزل ماركوف هو هذا المنزل قطعا ، أردت أن أتحقق من ذلك ، فدنوت من البواب وسألته « أهذه دار ماركوف يا أخ ؟ » فأجابنى بفظاظة وغلظة كأنه كان غاضبا من أحد وكأنه كان يحسب كل كلمة يقولها : « نعم هى دار ماركوف » يالهؤلاء البوابين ما اشد عبوسهم وتجهمهم ! وعلى أن هذا كان لا يعنينى فقد خلف فى نفسى أثرا مزعجا • هذه حقيقة صادقة دائما : ان كل ما يقع لنا يناسب حالتنا النفسية ، فاذا كان المرء شــجى النفس معتكر المزاج ، فلا تقع له الا احداث مزعجة • مررت امام الدار ثلاث مرات ، فكانت عزيمتى تخور مزيدا من الخور فى كل مرة • قلت لنفسى : « لا ، لا ، سوف يرفض أن يقرضنى ، فهو أولا لا يعرفنى ، وهو ثانيا لن يرضيه مظهرى » • وقلت أخيرا : « القدر هو الذى يقرر• على الأقل لن ألوم نفسى على أننى لم أحاول • وما يُقتل المرء لأنه حاول»• قررت آخـر الأمر اذن أن أفتح الرتاج فى رفق • فمـا ان فعلت حتى انقضت علىّ نازلة جديدة : انه كلب شرير صغير • حيوان حقير غبى ، غضب منى ، فأخذ ينبح بكل ما يملك من قوة ، لا يتوقف عن العــواء الحانق لحظة واحدة ! ••• يا له من كلب قذر ! ••• ان أمورا يسيرة من هذا النوع ، ان أشياء صغيرة تافهة كهذا الشىء ، يمكن أن تجهــز على انسان ، ان تخرجه عن طوره أحيانا ، أن تبدد دفعة واحدة كل ما قد عقد عليه العزم ! ودخلت الدار أقرب الى الموت منى الى الحياة ، وهناك

وافتنى مصيبة جديدة • اجتزت عتبة باب المدخل فى ظلام دامس ، فكنت لا أعرف أين أضع قدمى ، وكانت هنالك امرأة ، نعم امرأة ، تصب دلوا من اللبن فى آنية ، فلما صدمتها أفلت الدلو من يديها ، فانسكب اللبن على الارض • طفقت المرأة تعول وتوعوع ! يا لها من حمقاء ! « هلا نظرت أين تسير يا عجوز ، عم تبحث هنا يا قرد ؟ » وانطلقت منها ألفاظ أخرى أيضا أخذت بعدها تنتحب فما توقف عن الانتحاب • أروى لك هذا كله يا ماتوشكا ، لأن هذه القصص تقع لى دائما فى هذا النوع من الشئون • لا بد لى دائما ، فى مثل هذه الحالة ، أن أنشب فى شىء او فى أحد • وهرعت الى المكان عجوز شمطاء سمعت الصراخ • انها صاحبة البيت ما فى ذلك ريب • تقدمت اليها رأسا ، وسألتها : « أهنا يسكن السيد ماركوف ؟ » فقالت «لا» ثم نظرت الىَّ من أخمص القدمين الى قمة الرأس ، فأضافت بعد ثانية أو ثانيتين : « ماذا تريد منه ؟ » ، فشرحت لها الغرض الذى جئت من أجله ••• قلت ان ايميليان ايميلتش ••• الخ الخ • « فأنا أحب أن أكلمه فى عمل » • فنادت العجوز ابنتها وهى صبية شبت عن الطوق ، لكنها حافية القدمين ، وقالت لها « اذهبى فنادى أباك ، انه هناك عند المستأجرين • تفضل أيها السيد » • دخلت الغرفة • انها حجرة لائقة ، قد علقت على جدرانها لوحات هى صور جنرالات ، جنرالات فحسب ، وفيها ديوان ، ومنضدة مدورة ، وأصيص زهر • فلما لبثت وحيدا أخذت أفكر : « ماذا لو انصرفت ، ماذا لو ذهبت دون أن أنتظر التتمة ؟ » يمينا يا ماتوشكا لقد تمنيت أن أهرب ! قلت لنفسى : « خير لى أن أعود فى الغد ، فسيكون الجو فى غد أفضل • خير لى أن أصبر قليلا ، فان هذا النهار غير ملائم ولا هو بمشجع : لقد سفحت دلو اللبن على الارض ، وهؤلاء الجنرالات المعلقة صورهم على الجدران عابسون كثيرا • خير لى أن أعود غدا » وفيما كنت أتجه نحو

الباب أريد الخروج ، دخل علىّ الرجـل . انه أشيب الشعر ، له عينـا وغد ، يرتدى ثوبا من ثياب المنزل ملطخا بالدهن والوسخ ، ويسد على خصره حبلا اتخذه حزاما . سألنى عن الهدف من زيارتى ، فذكرت له ان ايميليان ايفانوفتش هو الذى ارسلنى اليه ، واننى فى حاجة الى أربعين روبلا ، واننى جئت اليه لأكلمه فى هذا العمل ... ولكنه لم يدع لى أن أنهى كلامى ، وقرأت فى عينيه فورا ان كل أمل قد ضاع . قال : « لا داعى الى الكلام فى أعمال ، فليس معى مال . أتراك تملك رهنـا تقدمه ؟ » فأجبته بأننى لا أملك ما أرهنه ، ولكن ايميليان ايفانوفش... الخلاصة قلت اننى فى حاجة ملحة الى المال . اصـــغى الى كلامى فى هذه المرة حتى النهاية . فلما انتهيت قال : « لا جدوى ، ليست القضـــية قضية ايميليـــان ايفانوفتش . القضية أنه ليس عندى مال . هـــذا كل شيء ... » قلت لنفسى : الامر اذن كما قدرت ، كما توقعت ، كما تنبأت، وددت فى هذه اللحظة لو تنشق الارض فتبلعنى . وشعرت بقشعريرة تسرى فى جسمى كله ، وأحسست بساقى تقصان ، وبظهرى ينمل . فنظرت اليه ، فرأيته ينظر الىّ هو أيضا وكأنه يقول : « مالك لا تنصرف؟ ماذا تنتظر بعد ؟ » لو كنت فى ظروف غير هذه الظروف لمت فى أرضى خجلا وعارا . وسألنى الرجل فجأة : « ما حاجتك الى هـــذا المـــال ؟ » (لقد تجرأ أن يلقى علىّ هذا السؤال يا ماتوشـــكا) ، ففتحت فمى أهم بالكلام حتى لا أبدو غبيا ، لكنه لم يشأ حتى أن يصغى الى ، بل كـــرر يقول : « لا ، لا ، ليس عندى مال ، ولولا ذلك لقدمت لك هذه الخدمة راضيا مسرورا » . حاولت أن أقنعه ، فتكلمت وتكلمت ، قائلا ان المبلغ ليس بالمبلغ الضخم ، واننى سأرده اليه فى موعده ، بل قبل موعده أيضا، وأضفت اننى أقبل الفائدة التى يفرضها ، واننى سأرد اليه كل شيء ، وحلفت له على ذلك. لقد انصرف ذهنى اليك فى تلك اللحظة يا ماتوشكا،

فكرت فيما تقاسين من شقاء وعذاب ، فيما تلاقين من مصاعب ، فيما تعانين من بؤس ، وتذكرت أيضا نصف الروبل ذاك الذى أرسلته الى « صاحب الرجل يقول : « لا ، لا ، لا داعى الى الكلام على الفوائد ، كان يهون الأمر لو كان لديك رهن . أما بغير رهن فلا ... وليس عندى مال على كل حال . يمينا ليس عندى مال ... والا لكان يسرنى أن أقرضك شهد الله .. » تجرأ أن يحلف وأن يشهد الله ، يا له من لص ! ...

ذلك ما حدث يا ماتوشكا ، لا أتذكر الآن كيف خرجت من عنده ، ولا كيف قطعت حى فيبورج ، وانما وجدتنى بعد حين على جسر « الانبعاث » . كنت أشعر باعياء رهيب ، فأنا خائر القوى متجمد مرتعش ، ولم أستطع أن أصل الى مكتبى الا فى الساعة العاشرة . أردت أن أنظف نفسى قليلا فى الدهليز ، ولكن سينا جريف ، الخفير ، نبهنى الى أن ذلك محظور ، فقد أتلف الفرشاة « والفرشاة ملك الدولة يا سيدى العزيز » هكذا قال . انهم يعاملوننى الآن على هذا النحو من المعاملة يا ماتوشكا ، أنا فى نظرهم أهون شأنا من حصيرة ، ذلك ما يرهقنى ويضنينى يافارنكا . ليست مصاعب المال هى التى تقتلنى ، وانما تقتلنى هذه الاذلالات ، وهذه الهمسات ، وهذه الابتسامات وهذه السخريات ؟ وقد أرى صاحب المعالى يبدى ملاحظة من الملاحظات فى شأنى فى يوم قريب ! آه يا ماتوشكا ... لقد انقضت الايام الجميلة ... أعدت اليوم قراءة رسائلك الى . ألا ما أتعسنى يا ماتوشكا ، ألا ما أشقانى ، وداعا ياصديقتى العزيزة ، والله أسأل أن يحميك ويرعاك .

م . ديفوشكين

حاشية : حاولت أن أقص عليك المصيبة ساكبا فيها شيئا من فكاهة ودعابة . ولكننى لم أظفر بذلك فى هذه الساعة . لقد

أردت أن أعمل بنصائحك • سأجيء اليك يا ماتوشكا ، سأجيء حتما •

١١ آب (أغسطس)

فرفارا ألكسييفنا ، يمامتى ، ماتوشكا ، لقد ضعت ، ضعنا كلانا ، ضعت أنا وضعت أنت ، ضياعا لا خلاص منه ، ولا عودة عنه ، سمعتى ••• كرامتى ••• كل شيء انتهى الآن • سوف أهلك ، وسوف تهلكين أيضا يا ماتوشكا • سوف نهلك معا ، ولا أمل لنا فى نجاة ، وأنا الذى قدتك الى هذه الهاوية ، نعم أنا ••• انهم يستهزئون بى يا ماتوشكا ، انهم يحتقروننى ، انهم يجعلوننى أضحوكة ••• أخذت صاحبة البيت تهيننى وتشتمنى بلا حرج • صرخت فى وجهى اليوم ، قذفتنى بكل ما يخطر على البال من ألفاظ ، عاملتنى كما لا تعامل الارض • وفى المساء أخذ أحد أصدقاء راتازاييف يقرأ بصوت عال مسودة رسالة كنت قد كتبتها لك ثم سقطت من جيبى سهوا • لا تستطيعين يا ماتوشكا أن تتخيلى السخريات التى سمحوا لانفسهم بها فى هذا الأمر • لقد ضحكوا ملء أشداقهم ، هؤلاء الخونة ، وقالوا عنا ما يقال وما لا يقال من غمزات ولمزات • هرعت الى غرفتهم أخجل راتازاييف • لمته على انه خان الصداقة • قلت له انه خائن • ولكن راتازاييف هذا أجابنى بأننى أنا الخائن ، لأننى أقوم بغزواتى سرا • قال لى : « لقد أخفيت عنا الحقيقة ، فما أنت الا غاو عتيق ، ما أنت الا لوفلاس محنك ! » انهم جميعا يطلقون على الآن اسم لوفلاس ، ولا ينادوننى الا بهذا الاسم ، ولا يعرفوننى الا بهذا الاسم ، فهل تفهمين يا ملاكى الرقيق ، هل تفهمين ؟ انهم على علم

بكل شيء ، انهم يعرفون الآن كل شيء • يعرفون كل شيء عنك أنت أيضا يا صديقتي العزيزة ! يعرفون تفاصيل حياتك • فهموا كل شيء ، وهذا كله كان يمكن أن يهون • ولكن فالدوني ، الخادم ، يشاركهم • طلبت منه اليوم أن يذهب الى البقال ليشتري لي بعض الاشياء ، فرفض أن يذهب بحجة انه مشغول ، فلما قلت له « من واجبك أن تطيع » أجابني بقوله : « لا ، ليس من واجبي أن أطيعك أنت أيها السيد » • حتى اذا لم أطق احتمال هذه اللهجة الجارحة من هذا الفلاح الجاهل فوصفته بأنه غبي قال لي « اذا كنت أنا غبيا مرة فأنت غبي مرة ونصفا » • فقدرت انه سكران ، وأن الخمرة هي التي جعلته وقحا هذه الوقاحة كلها ، فقلت له : « لا شك أنك سكران أيها الوقح » فلم يتورع أن يجيبني بقوله : « أكان يمكن أن أشرب خمرا بمالك ؟ أنت لا تملك ما تشرب به كأسا صغيرة • أنت تستجدي دريهمات من امرأة » • وأضاف قوله : « ويعد نفسه بعد ذلك سيدا ! » • انظري أين صرت الآن يا ماتوشكا • لقد أصبحت أستحي أن أحيا يا فارنكا • صرت كالمذنب الذي شد الى عمود تشهيرا به وفضحا له • هويت الى أدنى ما يهوى اليه متشرد بغير جواز سفر ! يا لها من محن ! يا لها من محن رهيبة ! لقد سقطت ، سقطت سقوطا كاملا ! ضعت، ضعت ضياعا لا عودة عنه •

م•د•

١٣ آب (أغسطس)

عزيزي الغالي جدا ماكار ألكسييفتش !

جميع المصائب تهبط علينا • أصبحت لا أدري ما الذي سأصير اليه• ما عساك صانعا الآن ؟ ذلك انني لا أستطيع أن أفيدك في شيء الآن • لقد

احترقت يدى اليسرى بالمكواة اليوم • سقطت المكواة منى غفلة فأحدرت يدى وأحرقتها ••• أحدرتها وأحرقتها فى آن واحد • يستحيل علىّ أن أعمل الآن •

أما فيدورا فهى مريضة منذ ثلاثة أيام • اننى قلقة قلقا فظيعا • أرسل اليك ثلاثين كوبكا فضة • لم يبق لنا شىء تقريبا ، ومع ذلك ، يعلم الله كم أتمنى أن أساعدك على مصاعبك الراهنة • أكاد أبكى أسفا وحسرة • الوداع يا صديقى • لسوف يعزينى كثيرا أن تزورنا اليوم •

١٤ آب (أغسطس)

ماذا دهاك يا ماكار ألكسييفتش ؟ ناشدتك الله قل لى ماذا دهاك ؟ أأنت لا تخاف الله اذن ؟ انك توشك أن تفقدنى عقلى تماما ، عار عليك ! انك تضيع نفسا تضييعا كاملا ، هلا فكرت فى سمعتك على الأقل ؟ أنت رجل شريف النفس نبيل القلب ذو أنفة وكبرياء • فما عسى يحدث اذا عرف جميع الناس سلوكك ؟ لن يبقى لك عندئذ الا أن تموت خجلا وحياء وشعورا بالعار ! هلا رحمت شعرك الأشيب ؟ هلا خشيت الله ؟ لقد صرحت فيدورا بأنها لن تساعدك بعد اليوم أبدا • ولن أعطيك أنا قرشا واحدا فى المستقبل • انظر الى أين قدتنى يا ماكار ألكسييفتش ! أتظن أنه يستوى عندى أن تكون جيد السلوك أو سيىء السلوك ؟ انك ما تزال تجهل ما أعانيه بسببك ! لقد أصبحت لا أجرؤ أن أظهر على سلم الدار : فجميع الجيران يتفرسون فى وجهى ويومئون الىّ بأصابعهم ويذيعون عنى أشياء فظيعة ، بل ولا يتورعون أن يقولوا « اننى هائمة غراما بسكير » ! أتظن ان سماع مثل هذه الأقوال أمر ممتع ؟ حين يؤتى

بك الى البيت سكران فان جميع سكان المنزل يهزون أكتافهم احتقارا ويشيرون اليك قائلين : « هو ذا يعيدونه الى بيته ! » انتى أستحى عنك ، فلا أعرف ماذا أقول • يمينا لأتركنّ هذا البيت ، لأعملن خادمة فى أى مكان • أما أن أبقى هنا فمستحيل • كتبت اليك أرجوك أن تأتى الينا فلم تفعل • ان دموعى وآهاتى لا تأثير لها فيك اذن يا ماكار ألكسيفتش ! ومن أين حصلت على مال تشرب به خمرا ؟ ارحم نفسك ناشدتك الله ! لسوف تهلك ، لسوف تهلك هلاكا سخيفا ! ويا له من عار فوق ذلك ، يا له من تلطيخ للشرف ! ان صاحبة بيتك لم تدع لك أن تدخل فى مساء أمس ، فاضطررت أن تقضى الليل فى الدهليز • أعرف كل شيء • لا تستطيع أن تتخيل ما أعانى من آلام حين أعلم بهذه الامور • تعال الينا يا مكار ألكسيفتش ، لسوف تسلى عندنا • سوف نقرأ معا ، وسوف نستحضر بعض الذكريات • ستقص علينا فيدورا قصص أسفارها الى الحج • ارحمنى يا صديقى العزيز ، لا تضيع نفسك ، ولا تقدنى الى الضياع أيضا • أنا لا أعيش الا لك • ومن أجلك انما أبقى هنا • اعلم هذه الحقيقة وتصرف على هديها • كن كريما على نفسك ، واصمد للشقاء • تذكر القول المأثور : ليس الفقر عيبا • وفيم اليأس على كل حال ؟ لسوف تنقضى هذه الهموم وهذه المتاعب • ولسوف تصلح الحال بعون الله • وانما يجب عليك الآن أن تصبر • أرسل اليك عشرين كوبكا ، فاشتر تبغا واشتر ما تشتهى ، ولكن لا تنفق هذا المال فى الاثم! ناشدتك الله ، تعال الينا ! تعال حتما ! قد تكون خجلان منا ، فما تحب أن تظهر أمامنا • تغلب على هذا الشعور • هذا خجل زائف • يكفى أن تتوب توبة صادقة • ضع أملك فى الله يصلح الله أمرك •

ب•د

١٩ آب) أغسطس (

فرفارا ألكسييفنا ، ماتوشكا !

أنا أشعر بالخجل ، يا طائرى الجميل ، يا فرفارا ألكسييفنا ، أنا أشعر بالعار • ولكن هل ما فعلته أمر خارق يا ماتوشكا ؟ أى ضير فيه ؟ لماذا يكون حراما على المرء أن يفرح نفسه قليلا ، وأن يتيح لقلبه شيئا من الانشراح ؟ انتى حين أشرب أنسى التفكير فى نعل حذائى • والنعل شىء تافه ، وسيظل الى الابد تافها وضيعا قذرا باليا • بل ان الحذاء نفسه شىء حقير ، كان حكماء اليونان لا ينتعلون أحذية • لماذا يجب علينا نحن أن نهتم كل هذا الاهتمام بشىء هين هذا الهوان ؟ هل فى هذا ما يدعو الى نقدى واهانتى ؟ هل فى هذا ما يدعو الى احتقارى ؟ ايه يا ماتوشكا يا ماتوشكا ! لشد ما أظهرت في رسائلك من قلق لهذا الامر ! أما فيدورا فقولى لها على لسانى انها امرأة تافهة مضطربة مفتونة بالفضائح ، وانها الى ذلك غبية جدا ، غبية غباء لا سبيل الى مغالبته • كلمة أخرى فى موضوع شعرى الشائب : لقد أخطأت فى هذه النقطة أيضا يا عزيزتى الغالية ، لأننى لست أبدا ذلك الشيخ الهرم الذى تتصورين • ايميليان يبعث اليك بتحياته • كنت تقولين فى رسالتك انك حزنت حزنا شديدا وانك بكيت ، فاعلمى اذن اننى حزنت حزنا شديدا أيضا واننى بكيت أيضا • وفى الختام أتمنى لك أن تكونى فى صحة جيدة وأنت تكونى راضية مسرورة • أما أنا فاننى في صحة جيدة واننى راض مسرور ، وما زلت يا ملاكى اللطيف صديقك :

ماكار دييفوشكين

٢١ آب (أغسطس)

سيدتي وصديقتي العزيزة فرفارا ألكسييفنا !

أحس بأنني مذنب ، أشعر بأنني آثم في حقك . ولكنني لا أرى أية فائدة في الاعتراف لك بذلك كله يا ماتوشكا ، مهما تقولي ! حتى قبل أن أرتكب الاثم ، كنت أعرف ذلك ، وكنت أحس ذلك . ولقد تدهورت وهويت الى الحضيض لشعوري بخطيئتي . ماتوشكا ! أنا لست شريرا ولا قاسيا ، ومن يشأ يا يمامتي أن يعذب قلبك الصغير المعبود ، لابد أن يكون نمرا كاسرا على الأقل . وأنا امرؤ لي نفس كنفس الحمل وداعة ، وليس بي ميل الى الوحشية الدموية كما تعلمين . ينتج عن ذلك ، يا ملاكي اللطيف ، أنني لست مسئولا عن سلوكي تماما ، فلا قلبي ولا فكري يتحمل تبعة هذا السلوك . فاذا سألتني من الجاني اذن ، قلت لك لا أدري من الجاني في حقيقة الامر . تلك قصه سوداء مظلمة، قصة غامضة ياماتوشكا . لقد أرسلت الى ثلاثين كوبكا فضة ، ثم أرسلت الى عشرين كوبكا بعد بضعة أيام : فأخذ قلبي يئن حين نظرت الى هذه القروش تتصدق عليّ بها يتيمة فقيرة . لقد احترقت يدك ، وبعد قليل لن يكون معك ما تسدين به رمقك ، ثم أنت تبكين طالبة اليّ أن أشترى لنفسي تبغا . فماذا كان يجب على أن أفعل في هذه الحالة ؟ هل كان يجب عليّ أن أرضى بسلبك مالك كما يفعل لص من قطاع الطرق ، وأن آخذ هذا المال دون أن يعذبني ضميري أيتها اليتيمة المسكينه ؟ لقد فقدت عندئذ شجاعتي يا ماتوشكا ، وخارت قواي ، أعني انني أحسست في أول الامر على غير ارادة مني ، انني لا أصلح لشيء ، وانني أنا نفسي لا أفضل نعل حذائي ، فرأيت اذن انه من غير اللائق أن أقدر نفسي أي تقدير ، وأن أهب لنفسي أي اعتبار ، وأيقنت انني أتفه من التفاهة ، وأنني شيء مخجل،

شيء حقير لا كرامة له . فلما فقدت احترامي لنفسي على هـــذا النحو ، واستسلمت لانكار مزاياي وكرامتي ، شعرت انني قد ضعت . وكانت تلك اللحظة هي لحظة السقوط ، السقوط الذي لا مهرب منه . ان القدر هو الذي أراد ذلك . نعم هو القدر . ولا يد لي في الامر ، ولا حيــلة لي فيه ، ولست أنا الجاني . خرجت من المنزل أنشد استنشاق الهــواء فحسب . ولكن كل شيء كان يساهم في دفعي الى الشقاء ذلك اليوم . الطبيعة تبدو شديدة الحزن والأسى والشجن ، الجو بارد ، والمطر ينهمر . وكان طبيعيا أن أجد ايميليان في طريقي ... ذلك أمر لا مفر منه . كان ايميليان قد رهن كل ما يملك للحصول على قروض لم يلبث أن أنفقها . فلما التقيت به لم يكن قد أكل شيئا منذ يومين ، وكان يفكر في رهن أشياء لا يستطيع المرء حقا ان يرهنها ، فما هي بالاشياء التي ترهن . فماذا تريدين يا فارنكا ؟ لقد خضعت ... خضعت لا استسلاما لميل شخصي ، بل رحمة بالانسان . هكذا سقطت في الاثم يا ماتوشكا ، ما أكثر مابكينا معا يا ماتوشكا ، أنا وهو ! ... وتكلمنا عنك . انه انسان طيب ، انسان له قلب من ذهب ، انسان حساس جدا . انني أشعر بذلك شعورا قــويا يا ماتوشكا . وذلك هو السبب في أن مصائب كثيرة تنزل بي ... ان السبب في ذلك هو انني أحس بالأمور احساسا قويا ... أنا أعــرف فضلك عليّ يا يمامتي . انني منذ عرفتــك أخذت أعرف نفسي معــرفة أصدق وأعمق ، وأصبحت أحبك مزيدا من الحب يوما بعد يوم . كنت قبل أن ألقاك ، يا ملاكي الرقيق ، انسانا منعزلا ، انسانا لا يعيش حقا ، انسانا يشبه أن يكون نائما . كانوا جميعا ، أولئك التعساء ، يزعمون أن لي دماغا متحجرا ، وكانوا يهزءون بي ويسخرون مني صراحة ، حتى صرت أحتقر نفسي بنفسي . كانوا يؤكدون انني غبي أبله ، حتى صدقت انني كذلك فعلا . فلما ظهرت لي ، أضأت وجودي كله ، وغمرت بالنور

حياتي المظلمة القاتمة • صار كل شيء فيّ عندئذ مضيئا : قلبي وروحي ؟ وأخذ كل شيء يشع • وفزت بالطمأنينة الداخلية حين أدركت بفضلك انني لست أسوأ من غيري • فليس يعوزني الا البريق الخارجي ، وشيء من اللمعان والمظهر ، ولكنني انسان بالقلب والفكر • حتى اذا أدركت أخيرا ، وا أسفاه ، أن القدر يهجم علي ويفتك بي رغم كل شيء ؟ حتى اذا اندفعت ، وقد أذلني القدر ، فأنكرت عزة نفسي وكرامتي ، غلبني الشقاء على أمري ، وأرهقتني الكوارث تتلو الكوارث ، فخارت عزيمتي وهويت الى قاع اليأس • أما وقد عرفت الآن كل شيء يا ماتوشكا ، وعرفت كيف حدث لي ذلك الامر ، فانني أضرع اليك دامع العينين أن لا تلحي مزيدا من الالحاح ، وأن لا تلقي عليّ أسئلة جديدة في هذا الموضوع ، فان قلبي ليتمزق ، واني لأشعر بمرارة ثقيلة وحسرة لا تطاق •

وأنا اذ أعبر لك عن احترامي يا ماتوشكا ، أبقى صديقك الامين الوفي :

ماكار دييفوشكين

٣ أيلول (سبتمبر)

لم أكمل رسالتي السابقة يا ماكار ألكسييفتش ، لأنني كنت حزينة حزنا شديدا • لم أملك القدرة على مواصلة الكتابة • تمر بي لحظات أحب فيها أن أكون وحيدة أستسلم لحزني وكآبتي دون أن يراني أحد ، وقد أصبحت هذه اللحظات تكثر في حياتي يوما بعد يوم • ان في ذكرياتي شيئا يصعب تفسيره وتعليله يجذبني اليها جذبا لا سبيل الى مقاومته ، جذبا

يبلغ من القوة انه يتفـق لى فى بعض الاحيـان أن أبقى ساعات طويله لا أشعر بشىء مما حولى ، وأنسى الحاضر نسيانا تاما . ان كل شعور فى حياتى الراهنة ، ســواء أكان بهيجا أم أليما أم كئيبا ، يوقظ فى نفسى العواطف التى تماثله من حياتى الماضية . والى عهد طفولتى ، الى عهـد طفولتى الذهبى ، انما ينصرف ذهنى وتنصرف أحلامى عندئذ فى أكثر الاحيان ، وبعد هذه الاحلام أشعر دائما بارهاق شديد . لقد أصبحت ضعيفة ، فالاحلام النفسية تضنينى ، وذلك يفاقم ما أنا فيه من تضعضع الصحة ووهن العافية .

ولكن الصباح فى هذا اليوم مضىء نير تذهبه الشمس بأشعتها وقلما نرى له مثيلا هنا فى الخريف ؛ وقد بث هذا الحياة فى نفسى وأنعشها ، فاذا قلبى فرح منذ نهضت من فراشى . هو الخريف اذن قد وصـل ! لشد ما كنت أحب هذا الفصل من فصول السنة فى الريف ! لقد كانت حياتى النفسية غنية غنى كبيرا فى ذلك الحين ، رغم اننى كنت ما أزال طفلة . كنت أوثر أماسى الخريف على أصباحه . أتذكر الآن بحـيرة صغيرة كانت تقع فى سفح رابية ، غير بعيدة عن منزلنا . اننى أتذكر هذه البحيرة حتى لكأننى أراها بعينى فى هذه اللحظة : كانت واسـعة كبيرة ، هادئة رائعة ، صافية مضيئة كأنها البلور ؛ كان سطحها يبدو ساكنا سكونا تاما فى بعض الاحيان متى كان المساء هادئا . ما من ورقة على الاشجار التى تحف بشطئانها تتحرك . الماء يشبه أن يكون غافيا ، فهو راكن كأنه مرآة . الهواء طرى ، يكاد يكون باردا . والندى يحط على العشب . وأضواء تشتعل فى الأكواخ عند الشاطىء . قطعان الماشية تئوب . تلك هى الساعة التى كنت أحب أن أتسلل فيها من المنزل فأمضى قرب بحيرتى أحلم وأغرق فى تأملات صامتة . هذه نار حطب جاف تحترق فى كوخ أحد الصيادين قرب الماء ، وهذا ضوء اللهب ينعكس سحائب على

صفحته . السماء تبدو باردة ، زرقاء زرقة عميقة ، تقطعها أخاديد متوهجة عند الأفق ، ثم تصفر الأخاديد شيئا بعد شيء . الهلال يظهر في السماء. الهواء يشبه أن يكون له رنين . يكفى أن يطير عصفور على حين فجأة ، أو أن تنزلق حصى تدفعها نسمة خفيفة ، أو أن تنبجس على سطح البحيرة سمكة تصفق الماء ، حتى يسمع المرء هذه الاصوات كلها . وكان الظلام يتكاثف شيئا فشيئا فى بعيد ، فكل شيء يبدو كأنه يغرق هناك فى ضباب، بينما يصبح للأشياء القريبة حواش أوضح وحدود أدق كأنها مقدودة قدا بسكين . ان كل شيء يظهر عندئذ بينا مجلوا : القارب الصغير المنسى قرب الشطئان ، الجزيرات الصامتة المنثورة هنا وهناك ، البرميل المهجور فى مكان على ضفة البحيرة . ومن حين الى حين تهب نسمة فتغضن صفحة البحيرة ، ويرتجف غصن من أغصان السيتس الصفراء الاوراق بين أعواد القصب . وهذا طائر متأخر من طيور السمج يطير على حين فجأة ، ثم يغطس فى الموجة الباردة ليستأنف بعد ذلك طيرانه صافقا جناحيه الى أن يختفى فى الضباب ... كنت أتأمل حاله ، وأصغى اصغاء شديدا . ما أعذب الجو فى تلك اللحظات ! وما أعظم ما كنت أشعر به من سعادة ! كنت أيامئذ صبية صغيرة . كنت أحب الخريف حبا جما حين يتقدم الفصل فيجنى الفلاحون قمحهم ويفرغون من أعمالهم فى الحقول . ذلك أوان السهرات الطويلة الجميلة داخل الاكواخ بانتظار الشتاء الذى يقبل . الطبيعة تصطبغ عندئذ بألوان قاتمة ، والسماء الجهمة تغشاها غيوم مظلمة ، والأوراق الصفراء تتراكم فتشكل بسطا رخوة عند أطراف الغابات المعراة ؛ الحرج يزرق فى أول الامر ثم يصير الى سواد ولا سيما عند المساء ، حين يسقط بخار رطب فتنبجس الاشجار من الضباب انبجاس عمالقة ، فى منظر من أشباح مرعبة . كان يتفق لى أحيانا أن أتلبث أثناء نزهة من النزهات ، فاذا أنا أرانى متخلفه وحيدة على حين

فجأة . كنت عندئذ أغذ الخطى خائفة ، وأرتعش ارتعاش ورقة في مهب الريح ، وقد تملكني ذعر شديد من تصور شبح رهيب أو عملاق شرير قد ينبجس من وراء جذوع الاشجار المخيفة بين لحظة وأخرى . وكانت الريح ترعش الغابة على حين بغتة فتملؤها همهمة صماء في أول الامر ، ثم تتسع الهمهمة وتتكاثر مجتاحة أرجاء الغابة شيئا بعد شيء ، مثيرة في جميع الجهات آهات حزينة وأنات غامضة . والريح في جريانها المستميت تهوى على الاغصان المستدقة فتنزع عنها أوراقها الصغيرة بغتة ، وتجرفها أمامها في زوبعات غضبى حانقة . وهذه أسراب من الطيور تهب على حين فجأة كأنها مذعورة ، فتجرى وراء الأوراق الميتة وهي تطلق صرخات حادة ، وتشكل جموعها الكثيفة سحائب طويلة تسوّد السماء وتحجبها تماما . ما أشد الخوف الذي كان يخنق صدري في تلك اللحظات ! كان يخيل الى عندئذ انني أسمع صوتا يدمدم على مقربة مني قائلا : « اركضي، اركضي ، اهربي أيتها البنية ، لا تتلبثي في هذا المكان ، لأن أمورا رهيبة تتهيأ هنا ، أركضي ، اسرعي ، فري ، فكان الهلع يشلني شلا ، وكان قلبي يأخذ يخفق خفقانا شديدا ، وكنت أطلق ساقي في الريح مسرعة في الجرى ما أمكنني الاسراع ، فما أصل الى المنزل الا وقد تقطعت أنفاسي من اللهاث . الغرفة ممتلئة صخبا ومرحا . الاطفال توزع عليهم أعمال سهلة ، فهم يقشرون الباسلاء أو يقشرون خضارا أخرى ؛ وعيدان من خشب طرى رطب تطقطق في المدفأة . وكانت المربية العجوز أوليانا تحدثنا عن الزمان الماضي ، وتقص علينا حكايات مرعبة يدور فيها الكلام على ساحرات وعلى أرواح عائدات من العالم الآخر . فكنا نحن الاطفال نتراص ونتقارب متلاصقين، مبتسمين ابتسامة من يشعر بالامن والطمأنينة. ولكننا نصمت على حين فجأة قلقين : « هس ... ما هذا الصوت ؟ كأن أحدا يقرع الباب » . ولكن لا شيء من ذلك ... وانما هو مغزل

العجوز فلوروفنا يدمدم دمدمته الهادئة • ما كان أشـد الضـحك الذى ينفجـر عندئذ فى رهطنا ؟ ثم كان يتفق لنا ألا نسـتطيع سـبيلا الى النوم فى الليل ، لأن مخاوف عجيبة تستبد بنا أو لأن أحلاما مرعبة تلاحقنا • وكنا نستيقظ أحيانا فما نجرؤ أن نتحرك بل نظل ساكنين تحت أغطيتنا مرتعشين • ولكننا ننهض فى الصـباح نضرين نضارة الزهـور • ونلقى نظرة نحو النـافذة فنرى البرية فى خارج المنزل قـد تجلدت ، ونرى صقيعا دقيقا قد تعلق بالأغصان العارية ، ونرى طبقة من الجليد رقيقة كالورق قد فرشت صـــفحة البحيرة ، ونرى بخـارا أبيض يتصاعد على سطحها ، ونرى أسراب العصافير تطير فى السماء وتملأ الهواء زقزقات فرحة • الشمس ترسل أشعتها الساطعة فى جميع الجهات ، فتسقط على طبقة الجليد الرقيقـة فتحطمها تحطيم الزجاج • كل شىء مضى فـرح نير • وتعود النار تزفر فى الموقد • ونتحلق حول السماور ، ثم نأخذ نضحك متى ظهر لنا من وراء الزجاج ذلك البوز الاسود ، بوز كلبنـا بولكان الذى ترتعد فرائصه من البرد لأنه قضى الليل فى الخارج ، والذى أخذ يحيينا محركا ذيله فى فرح • ويمرق أمام نوافذنا أحد الفلاحين مسرعا ، على عربة يجرها حصان قوى • انه ماض الى الغابة ليجىء منها بشىء من حطب • اننا نشعر جميعا برضى عظيم وسعادة كبيرة ! ••• لقد كان المحصول وافرا ، والقمح يتكدس فى الحقـول حيث تسـطع تحت ضوء الشمس بيادر ضخمة يغطيها القش • انها للذة أن يرى المرء هذه البيادر ؟ يشعر المرء عندئذ بطمأنينة وثقة وسعادة : لقد وهب الله لكل واحد رزقا طيبا • فالجميع يعلمون أن الخبز لن يعوزهم فى هذا الشتاء• الفلاح الصـــغير يعرف أن امرأته وأولاده لن يجـوعوا فى أيام البرد الشديد • لذلك فالفتيات ما تنفك تطلق أغانيها الراعشة فى الســـهرات الطويلة مدوية بغير انقطاع ، وما تنفك جوقاتها تصاحب حلقات الراقصين

فى أحواش المزارع بلا توقف • ولذلك أيضا تخضل الأعين فىالكنيسة يوم الاحد شكرا للخالق على ما وهب وأعطى ••• ألا ما كان أجمله من عهد ، ذلك العهد الذهبى من طفولتى !

هكذا رأيتنى أبكى فجأة بكاء طفلة ، بعد استرسالى فى استحضار تلك الذكريات كلها • رأيت ذلك الماضى رؤيه واضحة جدا ، جلية جدا ، دقيقة جدا ، وانبثق هذا الماضى فى نفسى مضيئا ذلك الضياء كله ، بينما الحاضر حالك هذه الحلكة ، مظلم هذا الظلام ••• ترى كيف ينتهى هذا كله ؟ كيف ينتهى هذا كله ؟ يراودنى فى بعض اللحظات يقين قوى يشبه أن يكون رؤية ، بأننى سأموت فى هذا الخريف • أنا فى الواقع مريضة جدا ، مريضة جدا جدا • اننى أفكر فى الموت كثيرا، ولكننى لا أريد أن أموت هنا ، لا أريد أن أدفن فى هذه الارض غير الكريمة • من يدرى ؟ قد اضطر الى ملازمة فراشى قريبا ، كما حدث فى المرة الماضية ابان الربيع ، مع أننى لما أبرأ من مرضى تماما بعد • فى هذه اللحظة مثلا أشعر بوهن شديد جدا • لقد غابت فيدورا طول النهار لشؤون تخصها ، فبقيت فى البيت وحيدة • وقد أصبحت أخشى الوحدة والعزلة منذ زمن • اننى أتصور دائما أن فى الغرفة أحدا لا أراه ، ولكنه قريب منى يكلمنى • يحدث لى هذا خاصة بعد أن استرسل فى تأملات طويلة ، ثم أرتد فجأة الى الواقع الراهن • ان غما ثقيلا يعترينى فى مثل هذه اللحظات ، فأشعر بخوف شديد • لذلك ترانى أبعث اليك اليوم برسالة طويلة هذا الطول كله •

ان تلك المخاوف تتبدد وتزول حين أكتب • أودعك الآن خاتمه هذه الرسالة ، فلم يبق عندى ورق ، وليس يتسع وقتى لمزيد من الكتابة على كل حال • نفد ما حصلت عليه من بيع ثيابى وقبعتى الصغيرة ، فلم

يبق لى منه الا روبل واحد فضة • أحسنت اذ دفعت الى صاحبة البيت روبلين • ستهدأ الآن بعض الوقت •

يجب عليك أن تدبر أمرك بحيث تصلح رداءك قليلا • أستودعك الله • اننى متعبة مرهقة • لا أدرى لماذا أصبحت واهنة هذا الوهن كله • ان أيسر جهد يرهقنى • ماعسانى فاعلة اذا جاءنى شغل ؟ ان ذلك كله يقتلنى قتلا فى الواقع •

ب • د

٥ أيلول (سبتمبر)

يمامتى ، عزيزتى فارنكا !

عانيت اليوم مشاعر مختلفة • أولا : لم يفارقنى الصداع لحظة طول النهار • ومن أجل أن أخفف عن نفسى قليلا مضيت أتنزه على شاطىء فونتانكا • المساء مظلم رطب • لقد هبط الليل منذ الساعة الخامسة • ولم تكن السماء ممطرة ، ولكن الضباب لا يقل عن مطر غزير • ان سحابات كبيرة مستطيلة تنزلق على السماء • وكان رصيف القناة يزدحم بالناس• وكان جميع هؤلاء الناس يلوح فى وجوههم المرعبة حزن شديد وعبوس قاس ، فكان ذلك يغرق المرء فى جو من الكآبة والأسى : فلاحون سكارى، نساء ثرثارات فطس الأنوف ينتعلن أحذية لكن رؤوسهن عارية ، عمال، حوذيون ••• وهنا وهناك رجل يحث الخطى وراء عمل من الاعمال ، وصبية صغار ، وأجير قفال بمعطف مخطط ، له وجه ضامر سوده الدخان ، يحمل فى يده قفلا • وبعد ذلك بقليل جندى محال على التقاعد

يشبه أن يكون عملاقا من العمالقة ، ينتظر فرصة أن يبيع لأحد المارة موسى أو خاتما من البرونز • ذلك هو الجمهور الذى رأيته هنالك • طبعا لم يكن الوقت الذى خرجت فيه الى النزهة هو الساعة التى يخرج فيها وجوه الناس • وما الفونتانكا أخيرا الا قناة لعبور المراكب • ياللفوضى التى يراها المرء هناك ! ان المرء ليعجب كيف يمكن لهذه الاشياء جميعا أن تجد متسعا لها فى ذلك المكان ••• أمر يصعب فهمه : فلاحات يقفن على الجسور أمام بسطاتهن التى تحمل حلوى رطبة وتفاحا يوشك أن يكون عفنا • انهن قذرات جدا ، هاته النساء ، مبللات الثياب • شىء يثير الحزن فى القلب ، هذه النزهة على فونتانكا • البلاط رطب تحت الاقدام ، وعلى الجانبين مبان عالية قاتمة سوّدها الدخان • أمامى الضباب • وفوق رأسى الضباب • مساء قاتم مظلم يبعث الكآبة فى النفس •

فلما انحرفت نحو شارع جوروخوفايا كان الليل قد أطبق ، فأخذوا يشعلون الفوانيس • منذ زمن لم يتفق لى أن وجدت فى شارع جوروخوفايا • ياله من شريان صاخب يعج بالضوضاء ! ما أغنى واجهات المخازن فى هذا الشارع ! كل شىء هنالك يسطع ويتلألأ : الأقمشة ، الأزهار وراء الزجاج ، القبعات الصغيرة المزدانة بأشرطة ملونة • قد يتوهم المرء ان هذه الاشياء كلها ليست الا للزينة • ولكن لا : هنالك أناس يشترون هذه الاشياء ليهدونها الى نسائهم • شارع مترف باذخ • وتوجد فى شارع جوروخوفايا مخابز ألمانية كثيرة ، أغلب الظن ان الذين يستغلون هذه المخابز أناس على جانب عظيم من الغنى والثراء • ما أكثر العربات التى تمر فى كل لحظة ! كيف تستطيع أرض الشارع أن تحتملها ؟ انها مركبات فخمة ، يتلألأ زجاجها كأنه مرايا ، وليس فى داخلها الا قطيفة وحرير ، وللخدم فيها مظهر ارستقراطى جدا ، على أكتافهم تلتمع الشارات المقصبة ، وعلى جنوبهم تتدلى سيوف • كنت أنظر

فى كل عربة من هذه العربات التى تمر • انها ملأى بسيدات يرتدين أجمل الثياب ، لعلهن أميرات أو كونتيسات • هى الساعة التى تخرج فيها هذه الصفوة من أبناء المجتمع الراقى ذاهبة الى حفلات الرقص أو اجتماعات السهر • لا بد أن تكون رؤية أميرة أو سيدة عظيمة ، عن كثب ، منظرا شائقا • أحسب أن هذا لا بد أن يكون ممتعا ، أما أنا فلم يتح لى أن أرى هذا المنظر فى حياتى ، اللهم الا من بعيد ، كما رأيته فى هذا المساء وأنا ألقى نظرة الى داخل العربات • لقد انصرف خيالى اليك فى تلك اللحظة ـ آه يا يمامتى ـ يا صديقتى العزيزة ! ان قلبى لينزف دما متى فكرت فيك • لماذا أنت شقية هذا الشقاء كله يا فارنكا ، يا ملاكى الرقيق ؟ أهذه السيدات خير منك ؟ أية ميزة لهن عليك ؟ أنت طيبة جميلة مثقفة ، فلماذا يكون حظك هذا الحظ ؟ لماذا تعيش النفوس الطيبة النبيلة فى الشقاء والهجران ، بينما لا يحتاج غيرها حتى الى البحث عن السعادة لأن السعادة هى التى تلقى بنفسها بين ذراعيه ؟ أعرف يا ماتوشكا ان هذا التفكير شر ، أعرف أن هذا التفكير حرام ، فهو لبرالية وزندقة والحاد • ومع ذلك فاننى أتساءل صادقا باسم الحقيقة المقدسة نفسها : لماذا خلق نساء للسعادة ، بقرار من القدر ، منذ كن فى أرحام أمهاتهن ، بينما نساء أخريات يرين النــور فى ملاجىء أيتام ؟ ما أكثر ما تهبط السعادة على ايفان ما ، ايفان غبى ، وكأن القدر يقول له : « ما أنت يا هذا الا ايفان ما ، ولكننى أريد لك أن تعيش فى رغد وفرح ، تتمتع بخيرات أجدادك ، تشرب وتأكل وتلهو • فاغرف من هذه الملذات ما شاء لك هواك • فمن أجل هذا خلقت يا عزيزى ، وهكذا يجب أن تكون » • أعرف يا ماتوشكا أن هذه الأفكار اثم ، اثم كبير ، ولكن المرء يسقط فى هذا الاثم على غير ارادة منه فى بعض الأحيان • لماذا لا تملكين أنت أيضا مركبات فخمة يا طائرى الجميل الرقيق ؟ لو

ملكت مثل هذه المركبات لهب جنرالات يستجدون منك نظرات عطف حين تمرين ، جنرالات لا أناس تافهون مثلى ، وللبست حريرا وذهبا ، لا ثيابا عتيقه من غليظ القماش كما تلبسين الآن ، ولكنت أشبه بتمثال من الخزف نضارة وامتلاء وازدهار خدين ، لا نحيلة هزيلة ضامرة الوجه كما تظهرين اليوم • لو كنت كذلك لكان حسبي أنا ، من أجل سعادتى ، أن ألمحك فى الشارع وراء نافذة ساطعة الاضواء ، وأن ألمح خيالك يتبختر على جدار ، حسبى عندئذ ، حتى تفيض نفسى بهجة ، يا طائرى الصغير الجميل ، أن أتصور أنك سعيدة ، راضية فرحة • فانظرى أين نحن الآن ؟ كأنما لا يكفيك أن أناسا أشرارا دفعوك الى الشقاء ، فلا بد أن يجىء أيضا رجل حقير وقح سافل يهينك ويسىء اليك فى عقر بيتك • يكفى أن يكون هذا الوقح مرتديا رداء أنيقا ، وأن ينظر اليك من خلال نظارة ذات اطار ذهبى ، حتى يظن ان كل شىء مباح له، وان عليك أن تصغى الى أحاديثه السفيهة متسامحة راضية ، أليس الامر كذلك حقا أيها الأصدقاء الطيبون ؟ ولماذا هذا كله ؟ لأنك يتيمة ، لأنك بلا سند ، لأنك محرومة من صديق قوى يستطيع أن يحميك ! ما هذا الرجل السافل ، ما هؤلاء الناس الذين لا يخشون أن يهينوا طفلة فقيرة مثلك ؟ ليس هؤلاء الأوغاد ببشر ، انهم عدم ••• انهم يتظاهرون بالوجود حتى يُلتفت اليهم ويحسب حسابهم ، ولكنهم ليسوا فى الواقع شيئا ! أنا من هذا على يقين عميق • تلك هى حقيقة هؤلاء الناس ، وفى رأيى يا صديقتى العزيزة ان العازف على أرغن بربارايا الذى رأيته اليوم فى شارع جوروخوفايا أجدر بالاحترام منهم • صحيح انه يجر نفسه فى الشوارع من الصباح الى المساء جاهدا أن يحصل على بضع كوبكات قديمة مهترئة تتيح له أن يأكل من جوع ، ولكنه سيد نفسه يكفل رزقه دون أن يستجدى أحدا • انه لا يريد صدقه • بالعكس : هو يجهد فى

سبيل لذة الآخرين ، وكأنه يقول : « أنا مفيد بمقدار ما أطيق ، أحاول أن أسليك ما وسعنى ذلك » . صحيح انه بائس ، وأن كبرياءه لا تخفف شيئا من بؤسه . ولكنه بائس ممتلىء النفس نبلا . صحيح انه متعب ، وانه يتجلد من شدة البرد ، ولكنه يعمل ، ويستمر يعمل ، على طريقته طبعا. هناك ناس كثير من هذا القبيل يا ماتوشكا ، هناك ناس كثير من هؤلاء الرجال الشرفاء ، من هؤلاء الرجال الذين لا يجنون مالا كثيرا (تبعا لمقدار العمل الذى يقومون به وتبعا لفائدة هذا العمل) ولكنهم لايدينون لأحد بشيء ، لا ينشدون عطف أحد ، ولا يأكلون من خبز أحد . أنا من هؤلاء الرجال يا صديقتى ، أنا مثل ذلك العازف على أرغن بربازيا . لا أقصد أننى مثله ، لا ، ليس هذا ما أردت أن أقوله ، لست مثله أبدا . ولكننى مع ذلك أشبهه بمعنى ما ، أشبهه من جهة نبل الجهد . أنا أجهد مثله على قدر ما تطيق قواى ، وأنا أعمل ما أستطيع أن أعمله . ليس ما أعمله بالكثير ... أنا أعرف ذلك ... ولكن ما من انسان يقدر أن يعطى أكثر ما عنده .

اذا كنت أحدثك عن العازف على أرغن بربازيا ، يا ماتوشكا ، فلأننى شعرت اليوم بثقل الفقر مضاعفا . لقد وقفت أنظر الى العازف . وافتنى أفكار سود ، فجعلت نفسى أمامه ، عسى أن تزاولنى تلك الأفكار السود. كان قد وضع آلته تحت نافذة من النوافذ . وتجمع حوله نفر قليل : أنا وحوذيون ، وفتاة كبيرة ، وبنية صغيرة قذرة شعثاء ، ثم صبى صغير فى العاشرة من عمره ، كان يمكن أن يكون جميلا لولا ما يظهر فى وجهه من مرض : انه هزيل شديد الهزال ، كل ما يرتديه قميص فوقه معطف صغير لا يكاد يغطيه ، وهو حافى القدمين تقريبا . كان الصبى يصغى الى الموسيقى فاغرا فاه ، تلك سنُّه . كان لا يستطيع أن يحول بصره عن الدمى التى تدور فوق الأرغن ، بينما يداه وقدماه تتجمدان

من شدة الصقيع . كان يرتجف من البرد عاضا بأسنانه طرف كمه . لاحظت انه كان يمسك ورقة صغيرة فى يده المقبوضة . ومر سيد فقذف للعازف على الأرغن بقطعة صغيرة من النقد ، سقطت فى درج يحجبه شبك من وراءه يرقص فرنسى وسيدات جميلات . فلما سمع الصبى رنين قطعة النقد ارتعش ونظر فيما حوله رجلا ، واذ حسب اننى أنا الذى قذفت قطعة النقد هرع نحوى فمد الىّ الورقة مرتجف اليدين ، وقال لى مرتعش الصوت : « اقرأ » ففضضت الورقة وقرأتها . هى قصة معروفة . اليك ما كان مكتوبا فى الورقة : « أنا أمُّهم أيها المحسنون ، وأنا أحتضر . أولادى الثلاثة جياع . ساعدوهم اليوم ، فاذا مت تذكرتكم فى العالم الآخر ودعوت لكم ، لأنكم رحمتم أولادى » . ماذا تريدين يا صديقتى العزيزة ؟ تلك حالة شائعة . الأمر واضح . ولكن ماذا كان يمكننى أن أفعل ؟ لم أعطه اذن شيئا . ولقد طعن قلبى أن أضطر الى رفض تقديم معونة . كان الصبى الصغير المسكين قد ازرق وجهه من شدة البرد ، ولعله كان جائعا ، ومن يدرى على كل حال : ربما كان صادقا غير كاذب، بل لا شك فى انه قال الحقيقة . أنا أعرف هذه الأمور . ولكن الأمر الذى يثير حفيظتى أن لا تراعى هاته الأمهات أولادهن ، فيرسلنهم الى الشارع بهذه البطاقات أشباه عراة فى مثل هذا الجو البارد . لعلها امرأة حمقاء لا ارادة لها . أظن انها مهجورة لا يعنى بها أحد ، فهى تبقى فى منزلها حزينة يائسة ، ولعلها مريضة فعلا . مع ذلك كان ينبغى لها أن تتجه الى أحد تطلب معونة . وقد تكون امرأة كاذبة ترسل ابنها الهزيل الجائع الى الشارع عامدة لتوهم الناس بأنها مريضة . فما عسى أن يتعلم هذا الصبى الشقى حاملا بطاقات من هذا النوع ؟ أى درس سيستمده من الحياة ؟ سوف يقسو قلبه ، هذا كل شىء . فهو يمشى ، ويركض ، ويستجدى ، والناس يمرون مسرعين لا يلتفتون اليه ولا